

السحر

**بين الحقيقة والوهم
في التصور الاسلامي**

دكتور عبد السلام السكري



نشر بموافقة إدارة البحوث
بالأزهر الشريف

الطبعة الدولية
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

الناشر

الدار المصرية للنشر والتوزيع



al dar al-masria publishing & distribution house ltd.

20 Kalypso, St., suite 301, Acropolis, P.O.Box 8559

Tel. (02)498688, Telex 5341 Hosni-Cy Fax-(003572) 312983

Nicosia - Cyprus

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك

لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو

العزیز الحکیم»

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ،
عجزت عن إدراكه عقول العارفين ، وقصرت عن إحصاء نعمائه ألسنة
الواصفين ، شرع سبحانه لعباده الأحكام وأبان لهم في وضوح جلى الفرق بين
الحلال والحرام ، فما من شيء خفى ودق مهما بلغ خفاؤه واستحكمت دقته
إلا وهو سبحانه يعلمه علم اليقين ، فهو عالم غيب السموات والأرض وإليه
يرجع الأمر كله .

ونصلى ونسلم على سيدنا ومولانا محمد ناصر دين الاسلام بتأييد من
ربه ، وصاحب الدعوة العامة إلى الإنس والجان ، جعل الله معجزاته ظاهرة
للعيان فقامت به حجة الله البالغة على الخلق أجمعين ، صلوات الله وسلامه
عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحابته الغر المحجلين ومن تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد

فإنه من أفضل القربات إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ أن يشتغل
الإنسان بما يحييه الله يوم تموت القلوب ، فلاشتغال بعلوم الاسلام وبياناتها جليلة
واضحة للناس قرينة إلى الله تعالى فهي التركة الكريمة التي ورثها العلماء
وطلاب العلم جيلا بعد جيل عن سيد أهل الاسلام وعن صحابته الأجلاء
والتابعين من بعدهم ، وقد شاء الله تعالى أن يكرمنا بهذه الرسالة الشريفة فجعلنا
ضمن طلاب العلم . فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه .

وهنا يسعدني أن أقدم على هذا العمل - على الرغم من ظروفى
الصحية - استجابة لطلب بعض إخوانى أن أكتب فى السحر وأحكامه فى
شريعتنا الاسلامية السمحة حتى يستبين الحق فى هذا الموضوع الخطير ، وقد
استعنت بالله ربى ورجوته أن يوفقنى للقيام بهذه المهمة وأن تكون لله تعالى
خالصة عسى الله أن يمن على بالشفاء فهو القادر على ذلك وحده وهو الذى
إليه تصير الأمور .

«ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ،

نكثور

عبد السلام عبد الرحيم السكرى

المدرس بكلية الشريعة والقانون

بدمهور

(الفصل الأول)

(فى تاريخ السحر)

يؤكد المؤرخون أن أول ما كتبه الإنسان فى حياته حسبما وجد منحوتا على الصخر أو منقوشا أو مرسوما كان عن السحر ، وهذا يخبرنا بأن الإنسان قد اهتم به منذ بداية حياته ، وتاريخ السحر كما بدىء فى أول الحياة البشرية فهو لايزال حتى الآن ، ولعل العلة فى ذلك هى أن الانسان منذ بدايته تكالب على الحياة فالتمس السحر حتى يحقق له الحظ الحسن فى المحصول الزراعى ، فقد اشتغل فى بدء حياته بها ، أو يفك له سحرا قام به غيره إلى غير ذلك من تطلعاته ، وقد استخدم الإنسان السحر فى أمور كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

- ١ - حماية الزراعة من الحشائش وإبعاد الطيور عنها .
- ٢ - إخضاع الطيور والحيوان للصائد ليسهل عليه اصطيادها .
- ٣ - شفاء الأمراض وعلاج الحروق مثل الكلمات التى نطقت بها (إزيس) فى الأسطورة المصرية الطفل حوريس حسبما أوردته أوراق البردى .
- ٤ - سلامة الحيوانات بالتمائم التى كانت توضع حول رقية الحيوانات ظنا من صاحبها أنها تمنع السحر ، وما زالت حتى الآن بقايا من تلك الجهالات فى قرى الريف .
- ٥ - استخدم السحر كذلك فى عمليات دفن الموتى عامة وتخنيطهم خاصة ، كما حدث من فراعنة مصر وغيرهم فى العالم وأثر ذلك موجود مشاهد حتى الآن .
- ٦ - كما استخدم السحر أيضا فى إيذاء الناس بكل أساليب الإذاية ، وهذا هو السحر الأسود الذى اعتبر من الجرائم منذ أول عهد الإنسان بالسحر ، ثم اعتبر من المخالفات القانونية بعد ذلك ، بل إن أهل العصور الوسطى كانوا ينفذون فى السحرة حكم الإحراق بالنار أحياء إذا قاموا بأية عمليات من هذا النوع من السحر ، وقد شاع هذا النوع وذاع بين بنى الإنسان وحتى اليوم .

والواقع أن السحر هو أحد الموضوعات القليلة التي كتب عنها بكل لغات العالم ، وفي كل الدول وشتى البلاد وفي كل الآونة والأزمان على الرغم من أن هناك المعارضين لإثبات حقيقته والمنكرين لها ، الا إنهم في واقع رأيهم لا يقطعون بعدم وجوده ألبتة ولكنهم يعترفون بأن هناك أمرا غير عادى وربما يسندونه إلى ظواهر نفسية أو إلى عالم ما وراء الطبيعة أو غير ذلك من تأويلاتهم^(١) .

فقد وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام شىء لايزال مشاهدا في كل وقت ، وأن بعض الناس يملك خصائص لم يكشف عن كنهها العلم ، فهذا التخاطر عن بعد ما هو وكيف يتم ؟ وكيف يسمع إنسان صوت إنسان وبينهما شقة بعيدة ؟ وهذا التنويم المغناطيسى ما هو وكيف يتم ؟ كيف يحدث أن تسيطر إرادة على إرادة وأن يتصل فكر بفكر آخر بحيث يوحى أحدهما إلى الآخر ويتلقى عنه . وهناك أمور كثيرة يمارى فيها العلم كالصرع ونحوه ، إماماً لأن العلم لم يجمع منها المشاهدات والأدلة الكافية حتى يمكن تحديدها وبالتالي الاعتراف بها ، وإماماً لأنه لم يهتد إلى وسيلة تدخل هذه الأمور فى نطاق التجارب العلمية ومع أن فرويد^(٢) أحد الفلاسفة فى علم النفس حاول بشتى الطرق إنكار القوى الروحية إلا أنه لم يستطع إنكار تلك الأمور التى لاتزال غامضة ، بل إنه اعترف بوجودها ولكنه لم يستطع تفسيرها فماذا يقول مثلاً فى الاحساس عن بعد الذى يقع فعلاً الخ .

ولا شك أنه من المكابرة فى الواقع أن يقف إنسان كائناً من كان لينفى ببساطة مثل هذه القوى المجهولة فى الكائن البشرى لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرب بها هذه القوى ليحكم عليها ويحدد ماهيتها وأسبابها ، فعالم السحر عالم غريب ، ففيه القدرة على الإحياء والتأثير ، إما فى الحواس والأفكار وإما فى الأشياء والأجسام .

ومع ما ذكرنا فإنه من المسلمات المطلقة أن الوسائل والآثار والأسباب والمسببات لاتقع كلها إلا باذن الله تعالى .

(١) التاروت وسحر هاروت وماروت (١٦ - ١٩) .

(٢) فرويد : طبيب فيلسوف نمساوى ، مؤسس علم التحليل النفسى .

نوازع السحر فى قديم الزمن :

وقد كانت الغابات - فى رأى الأقدمين - فى أول أمرها عامرة بالجن والشياطين والسحرة والمردة والأقزام وعرائس الجن ، والفلاح الساذج فى إيرلندة^(٣) لا يزال يؤمن بوجود الجنيات ويستحيل أن يعترف بشاعر أو كاتب على أنه من رجال النهضة الأدبية هناك إلا إذا أدخل الجنيات فى أدبه وشعره^(٤) .

ونحن لا ننكر أن تكون الغابات والأماكن الخربة والصحارى والقبور وأماكن القذارة كالمعاطن والمزابل والحمامات وغيرها من هذا القبيل هى أماكن يأوى إليها الجن بكافة أنواعه غالبا ، إلا أن الانسان البدائى تصور عالما من الأرواح يجهل طبيعتها وغاياتها ولهذا سعى إلى الخرافة وعمل على استرضاء تلك الأرواح واجتلابها فى جانبه لمعونته ، ومن ثم كان السحر هو جوهر الديانة البدائية بمثابة الروح من شعائر العبادة ، ولهذا تصور بعض الناس آنذاك أن خضما حقيقيا مليئا بقوة السحر وأطلقوا عليه اسم (مانا) وكان الساحر فى رأيهم إنما يقطر قطرات ضئيلة من هذا المورد الذى لا ينتهى ، والذى يستمد منه قدرته على السحر ، وكان هناك ما يسمى بالسحر التمثيلي^(٥) الذى كان هو أول الطرائق التى كسب بها الانسان معونة الأرواح ، وكان هذا النوع معروفا فى (سومطرة)^(٦) وفى (أرخبيل بابار)^(٧) والحال كذلك كان فى قبيلة (دياك) فى (بورنيو)^(٨) فقد كان الساحر إذا أراد أن يخفف آلام امرأة تضع يقوم هو بنفسه بحركات الوضع على سبيل التمثيل لعله بذلك يوحى بقوة سحره إلى الجنين أن يظهر ، بل كان أحيانا يقوم الساحر بنحرجة حجر على بطنه ثم يسقطه على الأرض آملا أن يقلده الجنين المستعصى فتسهل ولادته . وهذا كله نوع من الإحياء^(٩) .

(٣) إيرلندة : جزيرة أوروبية فى بحر الشمال تقع غرب بريطانيا . راجع معجم اللغة والاعلام (٤) قصة الحضارة ج ١ ص ١٠١ تأليف ول ديورانت ترجمة د . زكى نجيب محمود - دار التأليف والنشر ١٩٤٩ .

(٥) السحر التمثيلي هو أن يقوم الإنسان بأداء أشباه الأفعال التى يريد أن تحصل له بقوة نفسه .

(٦) سومطرة : كبرى جزر أندونيسيا شهيرة بخصب تربتها .

(٧) أرخبيل بابار هى مجموعة جزر بحر إيجة .

(٨) بورنيو : ثالث جزيرة فى العالم وكبرى جزر أندونيسيا محيبتها بريطانيا .

(٩) قصة الحضارة ج ١ ص ١١١

وفى العصور الوسطى كانوا يسحرون الشخص بأن يغرزوا الدبابيس فى تمثال من الشمع يمثل صورته^(١٠) ، كما حدث تماما للنبي ﷺ فقد ذكر ابن حجر فى الفتوح من الزيادات على رواية عمرة عن عائشة أن الرسول ﷺ وجد فى طلعة النكر المستخدمة فى سحره الذى فعله ليبيد بن الأعصم تمثالا من الشمع ، وهو تمثال له ﷺ وفيه إبر مغروزة ووتر فيه إحدى عشرة عقدة فنزل جبريل بالمعونتين فكلما قرأ الرسول آية انحلت عقدة وكلما نزع إبرة وجد لها ألماً ثم يجد بعدها راحة حتى قام كأنما نشط من عقال^(١١) .

وكان هنود بيرو^(١٢) يحرقون الناس ممثلين فى نماهم^(١٣) ويطلقون على هذا اسم (إحراق الروح) وليس سواد الناس فى العصر الحاضر بأرقى من هذا السحر البدائى فى أراجيفهم وخرافاتهم فنسمع عن أشياء مثل هذا وإن اختلفت فى الطريقة والاسلوب .

وصحيح أن السحر بدأ بالخرافة إلا أنه انتهى بالعلوم ، فهناك الألوف من أغرب العقائد جاءت نتيجة للفكرة الروحانية القديمة ثم نشأت عنها طقوس عجيبة بعد ذلك ، ولقد بدأ الاعتقاد فى السحر فى أوائل التاريخ الإنسانى إلا أنه لم يزل عن الإنسان زوالا تاما ، وكانت عبادة الأصنام وغيرها مما يكون له قوة سحرية كالتماثيل أرسخ فى القدم من السحر نفسه وأثبت منه فى أعماق النفوس ثم ظهرت بعد ذلك الأحجية وما زالت مثلا من الأمثلة التى تعاصرنا حتى الآن كالأصنام وما إليها من ذوات القوة السحرية - على حد ما يزعمون - والعجيب أن نصف سكان أوربا تقريبا يلبسون المدليات والتماثيل ليستمدوا بوساطتها وقاية ومعونة من وراء الطبيعة^(١٤) .

والواقع أن تاريخ المدنية ليعلمنا فى كل خطوة من خطوات سيره كم تبلى قشرة الحضارة من الرقة والوهن ، ثم كيف تقوم المدنية على شفا جرف هار

(١٠) نفس المصدر .

(١١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١٠ ص ٢٣٠ .

(١٢) بيرو : جمهورية فى أمريكا الجنوبية تقع بين كل من كولومبيا ، والبرازيل ، وبوليفيا ، والأرجنتين .

(١٣) نماهم جمع نمية ومعناها : الصور المزينة فيها حمرة كالدّم ومنها الصنم . راجع دى فى المعاجم .

(١٤) قصة الحضارة ج ١ ص ١١٥ .

فوق قمة بركان لا يخمد سعيه من الوحشية البدائية والخرافة الواسعة والجهل المكبوت ، وما المدنية المعاصرة إلا غطاء وضع وضعا على قمة العصور الوسطى ولا تزال آثار العصور باقية في بعض الناس الى اليوم ، فقد بالغ فريزر في مبالغة غير مستغربة منه فقال : إن أمجاد العلم تمتد بجذورها الى سخافات السحر ، لأنه كلما أخفق الساحر في سحره استفاد من إخفاقه هذا استكشافا لقانون من قوانين الطبيعة يستعين بفعله على مساعدة القوى غير الطبيعية في إحداث ما يريد إحداثه من ظواهر ثم أخذت الوسائل الطبيعية تسود وترجح كفتها شيئا فشيئا ، ولو أن الساحر كان دائما يخفى هذه الوسائل الطبيعية ليحتفظ بمكانته عند الناس ما استطاع الى إخفائها من سبيل بأن يعزو الظاهرة التي أحدثها إلى السحر الذي استمدته من القوى الخارقة للطبيعة ، وهذا شبيه جدا بأهل هذا العصر حين يعزون الشفاء الطبيعي لوصفات وعقاقير سحرية . وعلى هذا النحو كان السحر هو الذى أنشأ لنا الطبيب والصيدلى وعالم المعادن وعالم الفلك الا أن الطريق كان أقصر بين الفلكى والساحر منها فى سائر ضروب العلم .

ثم لا يخفى أنه كان للكهنة^(١٥) دور كبير فى إضرار الناس فى إيقائهم على الخرافة باحتكارهم لضروب معينة من المعرفة ، وقد كان أدب الكهنة آنذاك ترانيم دينية وطلاسم سحرية يتغنون بها عادة . وتنتقل بالرواية من ذاكرة إلى أخرى ، وكانت الكلمة التى معناها الشعر عند الرومان تدل على الشعر وعلى السحر فى آن واحد ، وكذلك الكلمة التى معناها النشيد عند اليونان معناها

(١٥) الكهنة جمع كاهن وهو من يدعى معرفة الأسرار أو أحوال الغيب . راجع كهن فى المعاجم قال القاضى عياض : كانت الكهانة فى العرب ثلاثة أضرب : أحدهما : أن يكون للإنسان ولى من الجن يخبره بما يسترقه من السماء ، وهذا بطل ببعثة النبى محمد ﷺ .

الثانى : أن يخبره الجن بما يطرأ أو يكون فى أقطار الأرض وما خفى عنه مما قرب أو بعد - وهذا لا يبعد وجوده ولا استحالة فيه خلافا للمعتزلة وبعض المتكلمين الذين أحالوه . الثالث : المنجمون : وهذا الضرب يخلق الله فيه لبعض الناس قوة ما لكن الكذب فيه أغلب ومنه العرافة وهى التى يستدل صاحبها على الأمور بأسباب ومقدمات يدعى معرفتها بها . وقال الخطابى : العراف هو الذى يتعاطى معرفة مكان المسروق ومكان الضالة ونحوها وقال فى النهاية : الكاهن يشمل العراف والمنجم . راجع نيل الاوطار ج ٧ ص ٣٦٨ .

فى الأصل طلسم سحرى ، وقد تطورت أنغام الشعر وأوزانه تطورا ظاهرا على أيدى السحرة فى ذلك الوقت ليزيدوا - بزعمهم - من التأثير السحرى^(١٦) .

ولا شك أن التنجيم سابق على علم الفلك ، وقد دام وجوده على الرغم من ظهور علم الفلك أما طرق العلاج فى هذه الفترة البدائية فكانت باصطناع الرقية السحرية التى من شأنها - على حد دعواهم - أن تسترضى الروح الشريرة التى حلت فى البدن العليل لعلها تتركه ، وكان للخزاف دور فى تصوير الأشخاص فى تماثيل يستفاد منها فى تائم السحر^(١٧)

السحر فى بلاد الهند قديما :

وقديما كانت هناك بالهند أسفار تسمى بأسفار الفيدا^(١٨) نمت على تتابع الأجيال التى تناقلتها بالرواية جيلا بعد جيل ، والفيديات يطلقها طائفة الهندوس بالهند على كل تراثهم المسمى عندهم بالتراث المقدس الذى ورثوه عن أولى مراحل تاريخهم ، ولم يبق لهم من تلك الفيديات الكثيرة التى شهدها الماضى ، إلا أربعة أسفار هى :

- ١ - سفر رج ومعناه : كتاب معرفة ترانيم الثناء .
- ٢ - سفر ساما ومعناه : كتاب معرفة الأنغام .
- ٣ - سفر ياجور ومعناه : كتاب معرفة الصيغ الخاصة بالقرابين .
- ٤ - سفر أثارفا ومعناه : كتاب معرفة الرقى والسحر^(١٩) .

والمراد من هذه الأسفار هنا هو السفر الأخير لنبيين أن للسحر قواعد وعلوما ومعارف كانت فى قديم الزمان ، ولذلك يقول بعض المؤرخين : ليس فى وسع أحد أن يجزم برأى فى إسناد السحر وما كان معه من علوم الى مؤلفيها أو الى أزمان تأليفها ، ويرجع أولوا الرأى من المواطنين الهندو آنذاك أقدم هذه الترانيم إلى تواريخ تتراوح بين سنة ٦٠٠٠ ، ١٠٠٠ ق . م ، ويرجح أنها جمعت ورتبت بين سنتى ١٠٠٠ ، ٥٠٠٠ ق . م^(٢٠) .

(١٦) قصة الحضارة ج ١ ص ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٢ .

(١٧) نفس المصدر ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٨ .

(١٨) الفيدا : معناها المعرفة ، وسفر الفيدا : معناه الحرفى : كتاب المعرفة .

(١٩) راجع قصة الحضارة ج ٣ ص ٣٨ : تأليف ول ديورانت / ترجمة د . زكى نجيب محمود ط التأليف والنشر ١٩٤٩ .

(٢٠) المصدر السابق ص ٣٩ .

وقد ازدهرت الخرافة فى الجو اللاهوتى فى الهند المفعم بالخوف والألم وهى أول معونة ترسلها القوة الكامنة فوق الطبيعة لتعالج بها الأدوية الصغرى فى الحياة - على حد زعمهم - ازدهارا خصيبا حتى أصبحت القرابين والتمايم وإخراج الشياطين الحالة فى الأبدان والتنجم والنبوءة بالغيب - على حد زعمهم أيضا - والتعزيم ، والنذور ، وقراءة الكف والعرافة وطائفة الكهان التى بلغت فى هذا الوقت ٨١٢ ر ٧٢٨ ٢ ، وكذلك فاتحو البخت الذين يبلغون المليون ومروضوا الثعابين بالسحر وعددهم مائة ألف ومن يمارسون (اليوجا)^(٢١) وغيرهم ، وكان هذا كله جانبا واحدا من الصورة التاريخية التى تمثل الهند قديما .

كما أنه كان لليهود منذ ألف ومائتى عام عدد كبير من الكتب التى تشرح أصول التصوف والسحر والعرافة وتذكر السحر وصيغه السحرية التى يمكن أن تهيب السبيل لتحقيق أية غاية شئت .

وأما البراهمة الذين زعيمهم (برهاما)^(٢٢) الذين يزعمون أن العالم من روحه وقوته فقد نظروا نظرة ازدراء واستنكار صامت إلى تلك الديانة التى يملؤها السحر الا أنهم احتملوا وجودها لأنهم خشوا أن تكون الخرافة بين عامة الناس عاملا ضروريا لصيانة قوة البراهمة أنفسهم من جهة ، ومن جهة أخرى ربما ظنوا أن الخرافة يستحيل فناؤها ، فإن ماتت فى إحدى صورها فماداك ، لا لكى تعود إلى الوجود فى صورة أخرى ، وهنا أحس البراهمة أن أقل الحكمة يقتضى ألا تقاوم مثل هذه القوة التى فى وسعها أن تجسد نفسها فى كل العصور .

ومن هذا التخبط العقلى لدى تلك الحضارات كان يعتقد الهنود السذج كما يعتقد كثير من الأمريكان المثقفين فى التنجم وسلموا به تسليما وبأن كل نجمة لها تأثير خاص على أولئك الذين ولدوا وهى فى أوجها ، كما كان العرافون

(٢١) اليوجا : علم من مذهب فلسفى ، أدخل فى السحر والتصوف منها فى الفلسفة راجع جـ ٣ ص ٢٦٧ من كتاب قصة الحضارة .

(٢٢) برهاما : يزعم أهل الهند أنه إله طائفة الهندوس ، وقد أخذت مكانته تتواضع فى نفوسهم مع الزمن ولو أنهم عقلوا الحقيقة ماصح لديهم هذا الزعم الباطل فلا إله الا الله وحده بالبرهان واليقين .

والسحرة والمنبثون بالغيب إذا ما أعطيتهم أجرا زهيدا يعلنون لك ما مضى من الحوادث ومقبلها بدراستهم للأكف أو للبراز أو للأحلام أو لعلامات ما فى السماء أو للخروق التى أحدثها الفئران فى الثياب ، ويزعمون بترتيلهم لعبارات السحر - التى لم يكن ترتيلها فى مقدور أحد سواهم - أنهم يخمدون الشياطين ويشحرون الثعابين ويستعيدون الطيور .

وكذلك كان السحرة نظير أجر معلوم يسلطون الشياطين على العدو أو يطردونه من هذا الذى يؤجرهم ، كما كانوا ينزلون الموت المفاجئ على العدو أو يلحقون به علة ليس لها شفاء حتى البرهمى إذا ما تتأعب جعل يفرق بأصابه ذات اليمين وذات الشمال حتى يطرد الأرواح الشريرة فلا يسمح لها بالدخول من فمه المفتوح (٢٣) .

وكان الهنـدى فى شتى عصوره مثل كثيرين من الفلاحين الأوربيين يتحوط من عين الحسد فأعداؤه قد يستخدمون السحر فى أية لحظة شاؤا لينزلوا به تعاسة الحظ أو ليقضوا على حياته ويستطيع الساحر فوق هذا كله أن يجدد الحيوية فى الإنسان أو أن ينشئ الحب فى أى إنسان لأى إنسان (٢٤) .

واعلم عزيزى القارئ أن جهود الهند فى العلم قديمة جدا فقد نشأ فيها علم الفلك عن عبادة الأجرام السماوية ومشاهدة حركاتها لتحديد أيام الأعياد والقرايين ونشأت كذلك بعض العلوم الأخرى .

ومن ثم فإن نشأة علم الفلك عن التنجيم هى نشأة غير مقصودة ثم أخذ رويدا رويدا ينفص عن نفسه الأغلال فى ظل اليونان ، وأقدم الرسائل الفلكية وهى (السددانتا) كانت حوالى ٤٢٥ ق .م وكانت قائمة على أساس العلم اليونانى ونشأ عنها (٢٥) .

ومن العلوم التى اشتهرت بها بلاد الهند علم الطب الذى بدأ بأول مدونة له وهى (أترافا - فيدا) معناها : كتاب للطب ، وفى هذا الكتاب تجد قائمة بأمراض

(٢٣) راجع فيما كتبناه : قصة الحضارة ج ٣ ص ٢٢١ ، ٢٢٢

(٢٤) قصة الحضارة ج ٣ ص ٢٢٢

(٢٥) المصدر نفسه ص ٢٣٥ .



مقرونة بأعراضها إلا أنك تجدها محاطة بكثير جدا من السحر والت
ثم فقد نشأ علم الطب تبعا لعلوم السحر ، فالقائم بالعلاج كان يدرس
وسائل جثمانية لشفاء المريض على أساس أن هذه تساعد على نجا
له من صيغ روحانية ، ثم أخذ على مر الزمن يزيد من اعتماده على الوسائل
الديوية ماضيا الى جواز ذلك في تعاويذه السحرية لتكون هذه معينة لتلك من
الوجهة النفسية كما نفعل اليوم بتشجيعنا للمريض كالاىحاء إليه بأنه شفى .

ويذهب هذا الطب الهندى القديم إلى أن المرض يسببه اضطراب فى
واحد من العناصر الأربعة : الهواء ، الماء ، البلغم ، الدم ، وطريقة العلاج
عندهم هى الأعشاب والتمايم السحرية ، ولا يزال كثير من طرائف الطب القديم
فى وصف الأمراض وعلاجها مأخوذا به فى الهند اليوم ، وأن ذلك ليصيب
من النجاح أحيانا ما يثير الغيرة فى صدور أطباء الغرب .^(٢٦)

على أن الأطباء والجراحين كانوا يتميزون بما يفرق بينهم وبين
المعالجين بالسحر وكانوا يسكنون منازل تحيط بها حدائق يستنبتون فيها
الأعشاب الطبية .

ومما يظهر لنا ويبدو أن التنويم باعتباره وسيلة من وسائل العلاج قد نشأ
عند الهنود الذين كانوا كثيرا ما ينقلون مرضاهم الى المعابد لمعالجتهم بالاىحاء
التنويمى أو (نعاس المعبد) كما كان يحدث فى مصر واليونان وغيرهما .

ثم كان من نتائج اتصال الأطباء الانجليز بالأطباء الهنود أن دخلت طريقة
العلاج الهندى فى انجلترا . وبالجمله فإن الطب الهندى بصفة عامة قد تطور
تطوراً سريعاً فى العهدين الفيدي والبوذى فقد أقيمت المستشفيات فى سيلان -
الهند - منذ سنة ٤٢٧ ق . م ، وفى شمال الهند منذ سنة ٢٢٦ ق . م .

ومن جهة أخرى كان بعض الهنود القدامى قد ألف قصيدة طويلة ، وكان
ينشدها على مستمعين مأخوذين بالسحر ، وهكذا كان الأدب الهندى مجالا خصباً

(٢٦) نفس المصدر ص ٢٤٢ .

(٢٧) راجع قصة الحضارة ج ٣ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

للكايات الخرافية بل إنه من الانحياز إلى شعب الهند مصدرا لمعظم الحكايات الخرافية التي عبرت الحدود بين الحضارات كأيها عملة دولية .

ومما لاشك فيه أن في كل عصر يقولون لنصرة الحق ويتعاملون مع الحياة بدقة التصور الواضح ، فقد أتى بعض الفلاسفة الهنود باللائمة على السحرة وعلى اللاهين المسعرفين في حجب الدنيا فقال : أيها الساحر الأحمق إمسح من نفسك هذا الظمأ للمال ، واقتلع من قلبك كل الشهوات ، واقنع نفسك بما تكسبه بمالك ، لا يأخذنك زهو بمال أو أصدقاء أو شباب ، إن الزمن يقضى عليها جميعا في لحظة واحدة ، إن الحياة رجراجة مثل قطرة الماء على ورق اللوتس إن الزمن لاه والحياة زائلة ومع ذلك فأنفاس الأمل لاتنقطع ، إن الجسد قد أصابه التجميد والشعر قد شاب ، والفم قد خلا من الأسنان والعصا ترتعش في قبضة اليد ومع ذلك فالإنسان لايزال متشبثا بمواضع الرجاء ، احتفظ باتزانك دائما ، ومن العبث أن تغضب أو تتور الخ^(٢٨) .

هذا ، وقد ثبت لنا أن السحر وإن كان طريقه مملوء بالخرافة إلا أن منه حقيقة لاشك فيها دلت التجارب عليها ، فالذى يقوم بعمل السحر المؤثر لابد أن يكون له طبيعة خاصة ويحتاج إلى تدريبات شاقة ، وكذلك معرفة بأصول قديمة وأساليب حكيمة وعلوم ومعارف عديدة سبقت من التجارب الإنسانية على مدى الزمن .

فلقد اكتشف العلماء أدوات معدنية في شرق الصين يرجع تاريخها إلى أربعة قرون قبل الميلاد وكانت مصنوعة من سبائك من النحاس والألمنيوم يستحيل على علم الإنسان في وقتها وإمكاناته العملية إنتاجها ، كما وجدوا في العراق آنية من الفخار يرجع تاريخها الى ما يزيد على ستة قرون قبل الميلاد وهذه الآنية يتولد منها تيار كهربائى إذا وضع فيها الماء ، كذلك في روسيا وبالقرب من طشقند عثر العلماء على أوان فخارية محكمة الإغلاق ووجد بكل واحدة منها نقطة كبيرة من الزئبق وتمتد الى عصور ما قبل الميلاد .

(٢٨) نفس المصدر ص ٢٧٦ .

ومن ثم فإنه لامناص من الإقرار بأن للسحر حقيقة موجودة وثابتة ، وأنه يعتمد على علوم ومعارف قديمة ، وثقافات وحضارات كانت واندثرت ، إلا أن بعضها قد عثر عليه فيما هو مسطر في الطقوس الدينية آنذاك ووصفات السحر والسحرة كما وجد بعضه في كتب علم الخيمياء^(٢٩)

علوم السحر هجرتها الشرائع الآلهية :

على أنه ينبغي أن يعلم أن علوم السحر كانت مهجورة لدى الشرائع الإلهية لما فيها من الضرر المؤكد ولما يشترط فيها من التوجه لغير الله تعالى من كوكب أو غيره ، ولذلك كانت كتبها كالمفقودة بين الناس حتى لاتكاد تعثر على كتاب منها إلا القليل النادر الذي وجد في كتب الأمم القديمة فيما قبل نبوة سيدنا موسى عليه السلام مثل ما وجد عند النبط والكلدانيين حيث كانت شرائع من تقدمه من الأنبياء مقتصرة على التوحيد والمواظب والتذكير بالدار الآخرة وما فيها من الجنة والنار^(٣٠) .

ومع ذلك فقد كانت العلوم والمعارف السحرية وغيرها من العلوم الأخرى موجودة لدى أهل بابل من السريانيين والكلدانيين ، كما كانت موجودة في أهل مصر من القبط وغيرهم ، وكان لهم فيها التأليف والآثار ، ولم يترجم من هذه الكتب إلا القليل النادر مثل كتاب (الفلاحة النبطية) وهذا الكتاب من وضع أهل بابل وكان أساسا للسحر الذي أخذه الناس من هذا المؤلف وما رسوه وتقننوا فيه حتى أصبحوا بارعين فيه وتلته فيما بعد كتب أخرى مثل ما أطلق عليه اسم (مصاحف الكواكب السبعة) وكذلك كتاب (طمطم الهندى) .

وبعد حين جاء جابر بن حيان في هذه الأمة فتصفح تلك الكتب المشار إليها واستخرج منها الصناعة ووضع هو الآخر تأليفه في هذا الصدد وأكثر من الكلام في صناعة السيمياء^(٣١) لأنها من توابعها .

(٢٩) الخيمياء : هو علم الكيمياء السحرية وراجع التاروت لعبد الرزاق نوفل ص ٢٧ .

(٣٠) مفتحة ابن خلدون ص ٤٢٢ ط الشعب .

(٣١) السيمياء : هي ما يركب من خواص أرضية كدهن خاص أو كلمات خاصة توجب إدراك الحواس الخمس ويرادفها (الهيمياء) وهي مثل السيمياء إلا أن ما يوجب ذلك فيها مضافا للآثار السماوية

ثم جاء محمد بن مسلمة بن أحمد المجريطى إمام أهل الأندلس فى هذه التعاليم السحرية فخلص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها فى كتاب سماه « غاية الحكيم » ولم يكتب أحد فى هذا العلم بعده فى عصره (٣٢) .

ولا يخفى أن لنفوس الكهنة ونشاطهم باعا طويلا فى استخدام القوى الشيطانية ، ولا سيما إذا علمنا أن خاصية السحر فى الساحر تكون بالقوة شأن القوى البشرية كلها ولكنها لا تقتصر على هذا بل تخرج إلى الفعل بالرياضات المعروفة لدى السحرة وذلك باستخدام أعمال الكفر وغيرها . وكثير منها يكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة ، والخضوع والتذلل فهى لذلك وجهة إلى غير الله تعالى ، وسجود له . وذلك كفر صريح ولهذا كان الحكم على السحر فى جملته بأنه كفر هو الصحيح .

فالسحر حقيقة لامرية فيها بين العقلاء من البشر ووجوده لدى أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين كثير ، ونطق به القرآن الكريم وجاءت به الأخبار على سبيل الحكاية والتحذير منه ، بل إنه كان للسحر فى بلاد بابل ومصر زمن بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة (٣٣) ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما ادعاه قومه (٣٤) .

وقد بقى من آثار ذلك شيء فى البرارى بصعيد مصر وله شواهد دالة على ذلك ، كما كان بأرض الهند من يشير إلى إنسان فيتحت قلبه ويقع ميتا وينقب عن قلبه فلا يوجد فى حشاه كما كان بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة ، كما وجد فى بلاد المغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون هناك باسم (البعاجين فكانوا يشيرون إلى الكساء أو الجلد فينخرق ، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج

(٣٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٢ .

(٣٣) أسواق نافقة : أى قائمة ورائجة - راجع مادة نفق فى المعاجم .

(٣٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٣ - وإن كنا نرى أن سحرة فرعون ليسوا من السحرة الحقيقيين وإنما كان سحرهم من النوع المجازى فهم قد استخدموا التمويه والتخييل والخداع وكل ذلك لاحقيقة له فى الواقع وأشار إلى ذلك القرآن فى غير موضع على نحو ما سيأتى .

ويسمى أحدهم باسم (البعاج) لأن أكثر ما ينتحله من السحر هو بعج الأنعام بغية إرهاب أصحابها ليعطوه من فضلها ، وكان هؤلاء دائما متسترين ، يعملون فى الخفاء خوفا على أنفسهم من الحكام آنذاك الذين كانوا يتعقبونهم ليوقعوا بهم العقوبات^(٣٥) .

وهكذا فقد ظلت علوم السحر ومعارفه تنتقل من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل على الرغم من قسوة العقوبة التى فرضتها حكومات الغرب وهى الإعدام عندما علموا وشاهدوا ضرره الفادح للتخلص من هؤلاء السحرة الذين عاثوا فى الأرض فسادا ، ومع ذلك لم تكن تلك العقوبات والإجراءات كافية لشل حركة السحرة أو استئصال بذور الشر منهم بل إن السحرة الذين أعطوا حظا من التعليم كانوا يحيطون أعمالهم السحرية بسرية تامة يصعب معها اكتشافهم .

وهنا نقفز قفزة كبية لنجد أنه فى القرن الثامن عشر الميلادى - للأسف - قد ألغيت عقوبة الإعدام بالنسبة للسحرة واستبدلت بعقوبة الحبس البسيط أو الغرامة المالية - الأمر الذى ترك فرصة كبيرة لعودة السحر وانتشاره وأصبح تعلمه واستخدامه علنا حتى عقدت له المؤتمرات فى الأنديز والجمعيات التى روجت له وشجعت عليه ، الأمر الذى جلب عددا من الجنس من مختلف البيئات لتعليم السحر واستخدامه حسب أهوائهم ووقع بذلك الشر المستطير كما هو مسطر فى بعض الكتب^(٣٦) .

والحضارات الحديثة لم تنكر السحر أو تهمله بل إنها اهتمت به كموضوع له خطورته وأهميته فبحثت فيه وكتبت عنه ، وحتى الآن ما زالت جهود العلماء مبذولة فى مختلف الدول تتتابع وتتلاقى فى محاولة لكشف ما يشمل السحر من غموض لعل فيه ما يمكنهم من الاستفادة من القوى الخفية ، وأضيف إلى ذلك أن شيئا جديدا قد ظهر فى عالم السحر وهو عقد المؤتمرات والاجتماعات السحرية وقيامهم بهذه الأعمال علنا وفى وضوح النهار وأمام الجموع الحاشدة بما لا يمكن تفسيره أو تبريره ، كذلك أذاعته وسائل الإعلام فى العالم

(٣٥) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٤ .

(٣٦) كتاب السحر لابراهيم الجمل ص ٢٣ وما بعدها ، وكذلك غيره من الكتب قديما وحديثا .

ونشرته إحدى الصحف اليومية تحت عنوان (أول عملية جراحية فى العالم بالسحر) (٣٧) .

ونص الخبر :

شهد مئات من الصحفيين الفرنسيين أول عملية جراحية من نوعها فى العالم تتم عن طريق استخدام السحر إذ كانت المفاجأة المذهلة التى افتتح فيها مهرجان السحر الأول الذى يقام الآن فى فرنسا هى العملية الجراحية التى قام بها الساحر الشهير (رانكى) فى بطن فتاة كانت تشكو من وجود ورم فى بطنها ، ولقد استخرج الساحر الورم دون استخدام البنج أو الأدوات الجراحية ، فتح الساحر بطن الفتاة بعد أن مرر فوقها أصابعه ثم توالت مساعدته استئصال الورم عن طريق ملقاط من الخشب ثم أعاد الساحر إغلاق مكان الجرح ، وتعتبر هذه العملية هى أجراً عمل يقوم به ساحر حتى الآن فى العالم .

هذا هو رأى العلم ، أما الشريعة الاسلامية فقد أثبتت أن للسحر حقيقة لا شك فيها بل إن القرآن الكريم وهو القول الفصل قد صرح بهذه الحقيقة وأثبت أن السحر مما يكتسب بالتعلم والتعليم وأن له آثارا ضارة ونكر منها على سبيل المثال إزالة الألفة بين الرجل وزوجه والتفريق بين كل منهما وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له ، كذلك أوردته السنة المطهرة فى أصح كتب الحديث الشريف ومن ذلك أن النبى ﷺ سحر وأثر فيه السحر وأنه استخرجه واطلع عليه وعلى الشئء المستخدم فيه كما أخبره الله تعالى بالذى قام به .

والعلماء الآن فى عديد من بلاد العالم لاسيما فى انجلترا وفرنسا وأمريكا وسويسرا وفى بلاد الشرق الأقصى يهتمون بدراسة ما سبق اكتشافه من أوراق قديمة لايعرف تاريخ وضعها ولا الأجيال التى بدأت تداولها ، وعلى الرغم من تشعب تلك الدراسات واتساعها والتعمق فيها لم تستطع أن تكتشف ولو القليل من أسرار تلك الأوراق (٣٨) .

هذا ، ولا أود أن أسهب فى هذا المضمار طويلا ، وأكتفى بما ذكرته هنا عن تاريخ السحر حسبما تيسر ولعله يؤدى الغرض المطلوب .

لكن الذى أود الإشارة إليه بعد ما تقدم هو أن الاهتمام بالسحر وعلومه ومعارفه بالشكل الذى حدث عبر الأجيال السالفة أدى الى رواج الشعوذة والدجل

(٣٧) صحيفة الاهرام القاهرية الصادرة بتاريخ ١١/١٢/١٩٧٩ .

(٣٨) التاروت وسحر هاروت وماروت ص ٣٧ .

إلى جانب السحر الحقيقى ، حيث استخدمت فيها مادة الكيمياء التى لعبت بدورها أخطر أنواع الدجل والخرافة وكان من نتيجة ذلك أن اهتزت العقيدة فى نفوس بعض الضعفاء من الناس خاصة إذا استخدمها من له خبرة ودراسة بدقائقها ، علما بأن مادة الكيمياء هى مادة نافعة جدا فى كثير من أنواع الأنشطة البشرية شأنها فى ذلك شأن أية مادة صالحة لخدمة الإنسان ، والاستخدام هو الذى يميز الاتجاه المستخدمة فيه إن كان استخداما صالحا أو فاسدا ، لأن العناصر مأمورة من الله تعالى أن تتفاعل مع الإنسان خدمة له وتيسيرا عليه .

والشر وإن كانت له قوة هائلة ومخيفة وله صور وهيئات متعددة إلا أنه مما ينبغى للمسلم أن يجزم به أن الله تعالى وراء الشر والأشرار محيط ، ومهما عظمت قوى البغى وذاع سلطانها وطال أمدها فلا بد أن ينتصر الخير على الشر فى النهاية وإن تأخر بعض الوقت فإن الله لا يعجل لعجلة أحد ولعلك تعجب فى بعض الأحيان حينما ترى أن الله تعالى يسخر الشر ليكون خادما وسببا مباشرا فى وجود الخير .

فالشّر صفة مردولة وخبيثة كم خربت بيوتا كانت آمنة وكم نصبت من المجازر الادمية التى ضاعت ملايين الأرواح البريئة عبر قرون الدنيا بسببها ، أتعرف من الذى قام بهذا التخطيط لهذا كله ؟ إنه الشيطان ! ، والشيطان وحده ؟ أما مساعدوه وأعوانه فبعضهم من الجن وهم المردة وتلك هى الأرواح الشريرة بالإضافة إلى بعض الادميين الذين سقطوا فى قبضة اللعين فأصبحوا شياطين من نوع آخر ، ومن ثم فإن عداوة الشيطان للبشرية هى عداوة أبدية قائمة منذ ادم عليه السلام ، قال الله تعالى (شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) (٣٩) .

فلا ينبغى أن يستهتر الإنسان بالشيطان لكونه غير ملموس لنا ولا مرئى لكنه موجود حقيقة ، ويفعل كل هذه الأفاعيل وغيرها فهو لا يفتأ عن الوسوسة بالشر لبنى آدم ليل نهار ، قال تعالى (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) (٤٠) .

فالشيطان يرانا هو وأعوانه من غير أن نراهم لكننا نحس بتأثيرهم كأن نرى أشياء تبدو عادية لاشيىء فيها لكننا عند التجربة نحس بتأثيرها فالكهرباء

(٣٩) سورة الأنعام الآية (١١٢) .

(٤٠) سورة الأعراف الآية (٢٧) .

مثلا إذا رأيت أسلاكها المتصلة بالتيار الكهربائي لاترى فيها شيئا سوى إنها أسلاك كأى أسلاك أخرى فإذا أمسكت بها أحسست فعلا بخطورتها وتأثيرها ، فلا يلزم من عدم رؤيتنا للشيطان نفى وجوده .

ومع أن لدى الشيطان قوة هائلة وإدراكا جيدا إلا أن الله تعالى جعل لكل مخلوق قدرة لايتعداها فهو لايستطيع التغيير ولا التبديل فيما خلق من أنظمة الكون الطبيعية ونواميسه المستقرة .

ومما يؤسف له أن ناسا من بنى آدم باعوا أنفسهم للشيطان ، بل وعظموه حتى تحولوا الى شياطين مردة وسماهم الله بذلك ، قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون)^(٤١) .

أما أسباب إقدام الإنسان على هذا التحول الخطير فمنها :

- ١ - شراهة النفس وتشوفها إلى حب المال .
- ٢ - تشوفها إلى الوصول إلى قمة السر الخفى .
- ٣ - اليأس المطلق نتيجة صدمات فى الأغلب تكون صدمات عاطفية .
- ٤ - حب السيطرة والجاه والسلطان .

ولقد حذرنا القرآن تحذيرا فى غاية الصراحة من اتباع الشيطان على أى نحو فقال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير)^(٤٢) .

والشعر بأنواعه التى سنعرض لها إما أن يقتصر عمله وتأثيره على شخص معين سواء كان ذلك الشخص ذكرا أو أنثى وهو الغالب عليه ، وفى هذه الحالة لابد للساحر أن يكون على اتصال مستمر بالشياطين ومردة الجن ويشترط فيه أن يكون جيد الدراية والخبرة فى التعامل مع الجن سواء كان فى تحضيرهم أو انصرافهم عالما بخبايا السحر وممارسته ، وهذا لايتأتى إلا إذا كان الساحر قد قضى مدة طويلة جدا فى ممارسة السحر واستخدامه .

(٤١) سورة الأنعام الآية (١١٢) .

(٤٢) سورة فاطر الآية (٦) .

ومما ينبغي أن تعلمه أن السحرة أناس اتصفت نفوسهم بالخبث والدناءة والدهاء فهو يعتقد اعتقاداً راسخاً في سيده (الشيطان) وهو كذلك عدو لجميع الأديان ، وعلى استعداد أن يرتكب أبشع الجرائم الخلقية في أى وقت إرضاء لسيده ، ويقضى معظم وقته منطوياً على نفسه ويشترط الشيطان فيمن يتعامل معه من السحرة شروطاً في غاية الصعوبة والانحطاط والذل في نفس الوقت .

هذا ، ونلاحظ أنه يتبع السحر بعض الأمور كالسيمياء والهيمااء (٤٣) والكلمات وبعض الخواص ، إلى غير ذلك مما سيأتى الكلام عنها في صلب هذا الكتاب .

غير أن الفلاسفة يفرقون بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنهما أثر للنفس الإنسانية بأن لهما آثاراً في بدنهما على غير المجرى الطبيعي وأسبابه الجسمانية بل آثار عارضة من كيفيات الأرواح تارة كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور ، وتارة من جهة التصورات النفسانية كالذى يقع من قبل التوهم كالذى يمشى على شفير حائط أو على جبل منتصب إذا قوى عنده توهم السقوط سقط بلا شك (٤٤) .

كما أنهم فرقوا كذلك بين السحر والطلسمات وعللوا هذا بأن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى من يعينه ، أما صاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وكذلك أوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر - كما يقول به المنجمون - ويضيفون إلى ما تقدم أن السحر اتحاد روح بروح ، بخلاف الطلسم فإنه اتحاد روح بجسم ، ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية والطبائع العلوية - كما يعرفونها - هي روحانيات الكواكب ، ولذلك يستعين صاحبها في غالب الأمر بالنجامة .

واعلم أن الساحر عند الفلاسفة غير مكتسب لسحره بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير (٤٥) .

(٤٣) سبق شرح معناهما .

(٤٤) مقمة ابن خلدون ص ٢٢٥ .

(٤٥) مقمة ابن خلدون ص ٢٢٦ .

ولتعلم كذلك أنه قد يوجد لبعض رجال التصوف وأصحاب الكرامة تأثير أيضا في أحوال العالم ولكنه ليس ذلك معدودا من جنس السحر ، وإنما هو بالإمداد الإلهي لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الإلهي حظ على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله تعالى دون الخوض في الخرافات وما يرتكبه بعض صوفية اليوم من مخاز ومآس يندى لها الجبين .

ولو استطلعنا حكم الشريعة في السحر والطلسمات وما إليها مما له مدخل في السحر لوجدنا أن الشريعة الغراء لم تفرق بين هذه الأمور بل جعلتها كلها من باب واحد لما فيه من الخطورة وارتكاب المحظورات الشرعية ولذلك حكمت بحرمة السحر وخطره ، فلقد أباح الله لنا من الأفعال ما يهمننا وينفعنا في ديننا ودنيانا . أما مالا يهمننا في شيء خاصة ما كان فيه نوع ضرر كالسحر ويلحق به الطلسمات وما إليها . والنجامة التي فيها اعتقاد التأثير الذي شأنه إفساد العقيدة برد الأمور إلى غير الله تعالى فيكون حينئذ ذلك الفعل محظورا على نسبته في الضرر ، وإن لم يكن مهما ولا فيه ضرر فلا أقل من تركه قرية إلى الله تعالى فإن من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه ، - على ما جاء في السنة المطهرة - ومن ثم فقد جعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة بابا واحدا من حيث الجملة لما فيه من الضرر وخصصته بالخطر والتحريم (٤٦) .

ومما هو جدير بالذكر أن كلاً من السحر والطلسمات والسيماء وما إلى ذلك كلها أمور غير خارقة للعادة على التحقيق ، بل هي عادة جرت من الله تعالى بترتيب مسبباتها على أسبابها غير أن تلك الأسباب لم تحصل لكثير من الناس بل للقليل منهم كالعقاقير التي تصنع منها الكيمياء والحشائش التي يصنع منها النفط (٤٧) الذي يحرق الحصون والصخور ، والدهن الذي من ادهن به لم يقطع فيه حديد . هذه الأمور ونحوها في العالم أمور غريبة قليلة الوقوع فإذا وجدت أسبابها وجدت مسبباتها على العادة فيها . فأسبابها عادية غير أن من يعرف تلك الأسباب من الناس قليل جدا ، ولذلك عد بعض العلماء السحر من جملة

(٤٦) مقامة ابن خلدون ص ٤٢٧

(٤٧) النفط : يفتح النون المشددة وكسرها والكسر أفصح هو يوجد من جبل في قعر بئر توقد به النار - والنفاطة هي الموضع الذي يستخرج منه النفط . راجع لسان العرب لابن منظور .

خوارق العادات ، ولكنى لا أرشحه وأرجح أنه ليس خارقا للعادة لخضوعه لقاعدة التعلم والتعليم وأنه فى وسع كل إنسان إذا أراد أن يكون كذلك^(٤٨) .

والسحر على هذا حقيقة ثابتة سببه الحسد والتنافس والتكالب على حب المال واتباع شهوة القوة وحب الهيمنة والسلطان ، كما أن من أسبابه أيضا الانتقال وإيقاع الناس فى المكائد والدسائس لدرجة أن كل أمير أو أميرة كان له ساحر أو ساحرة خاص بكل منهم يحقق لهم أغراضهم وأهواءهم ، وكان ذلك شائعا ولا يزال منه بقية ليست بالهينة حتى الآن فى إنجلترا وفرنسا وخاصة فى الرهبان حيث كان الفراغ الفكرى . حتى ذاع فى البلاد الأوروبية ، بل أخذ السحر نفس هذا الذبوع الآن فى الأمريكتين والاتحاد السوفيتى على الرغم من الحضارة التى وصلت إليها تلك البلاد ، وعلى الرغم مما بذلته أكثر الحكومات فى الدول الأوروبية من قصارى جهدها للخلاص من هؤلاء السحرة بفرض أشد أنواع العقوبات عليهم كما كان فى فرنسا وإيطاليا وألمانيا وفى اسكتلندا وأمريكا وغيرها إلا أن ذلك لم يقوض جهود السحرة لاسيما فى الآونة الأخيرة حيث خفضت العقوبة من الإعدام الى عقوبات أخرى تعزيرية فى القرن الثامن عشر الميلادى كما أسلفنا عليه القول ، على أن الذى يرضى لنفسه أن يكون ساحرا يعلم أنه قد رضى بالذل والحقارة والخضوع للشياطين واستعد لأن ترتكب فيه أبشع الجرائم كاللواطه وغيرها ، ولا يرضى بهذا إلا نفس دنيئة خبيثة لاتقيم للعقيدة قلبا ولا للأخلاق وزنا ولا نصيب لها فى الدنيا ولا فى الآخرة ، لأنها تتعامل مع أفقر أنواع الجن خبثا وكفرا .

والجن حقيقة موجودة وكائنة ولم ينكر وجوده إلا شرزمة قليلة من جهال الفلاسفة والأطباء ونحوهم ، أما أكابر القوم فإن المأثور عنهم الإقرار بوجودهم^(٤٩) .

وبعد : أخى الكريم : ينبغى أن تعلم أن الإسلام يعتبر الساحر إما كافرا إذا ارتكب ما يؤدى إلى الكفر أو عاصيا عصيانا شديدا لأنه على الأقل يكون مرتكبا لكبيرة من الكبائر والعبرة فى هذا بحال الساحر وطريقة استخدامه

(٤٨) الفروق للقرافى ج ٤ ص ١٦٨ .

(٤٩) راجع فيما كتبناه : غرائب وعجائب الجن للعلامة القاضى الشبلى ص ٣٥ - ٣٩ تحقيق إبراهيم الجمل - مكتبة القرآن .

للسحر ونؤكد لك هنا أن كل من مارسوا السحر أو يمارسونه ما ماتوا بخير ولن يموتوا عليه ، حياتهم حياة سوء ومصيرهم مصير سوء ، وفي الدنيا لابد أن يصابوا بإصابات بالغة رهيبة أخفها الجنون أو فقدان الذاكرة أو الخوف المميت في حياتهم من كل شيء ، فالمصائب تتوالى عليهم من كل اتجاه وصدق الله القائل (ولا يفلح الساحرون) (٥٠) .

فالسحر كان ولا يزال موجودا واحتمال وقوعه بأي شيء احتمال وارد ، والوقاية منه أن تعتصم بحبل الله تعالى وأن تتخذ القرآن الكريم وسيلة لنحضه فهو أكبر وسيلة لرد السحر والقائم به قال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) (٥١) .

فالقرآن فيه الشفاء الأكيد اليقيني الذي لا شك فيه لكن لمن آمن يقينا وأحس به وبعظمته وبركته ، وبالجمله فهو شفاء لكل نفس مطمئنة راضية واثقة بربها متحصنة به فمن كان مع الله كان الله معه قال الحق سبحانه (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) أما الذين لا تتوافر فيهم العقيدة الحق فليس القرآن لهم كذلك - قال سبحانه في بقية الآية (والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) (٥٢)

والقرآن الكريم نكر لنا سورة من قصار سوره ترشدنا إلى الاستعاذه من الشرور وفيها (ومن شر النفاثات في العقد) (٥٣) والمراد بها السواحر ، إلى غير ذلك من الآيات وكذلك كانت السنة المطهرة ولا تزال ترشدنا إلى ذلك وما وقع من الرسول ﷺ حين سحر خير موجه ومرشد على نحو ما سنذكره لك إن شاء الله في صلب كتابنا هذا في موضعه .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، اللهم لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا وأقل عثرتنا ربنا إنك أنت العزيز الكريم .

(٥٠) سورة يونس الآية (٧٧) .

(٥١) سورة الاسراء الآية (٨٢) .

(٥٢) سورة فصلت (الآية ٤٤) .

(٥٣) سورة الفلق (٤) .

(الفصل الثانى) (القول فى السحر)

وفيه مبحثان :

١ - المبحث الأول « فى تعريف السحر »

عرف علماء اللغة ، وعلماء الشريعة ، وعلماء الاجتماع ، السحر بتعاريف مختلفة بها يستطيع القارئ ومن خلالها أن يتصور ماهية السحر وحقيقته وأنواعه كبداية للدخول فى بيان موضوع السحر والأحكام الشرعية الخاصة به ، وهنا نبدأ بذكر هذه التعاريف كل على حدة .

١ - تعريف السحر عند علماء اللغة

قالوا : هو الأخذة ، وكل مالطف مأخذه ودق ، ومنه سحرت الصبى بمعنى خدعته وكل من استمال شيئا فقد سحره ، ومنه إطلاق الشعراء سحر العيون لاستمالتها النفوس ، ومنه قول الأطباء الطبيعة ساحرة ، وفى الحديث الصحيح قوله ﷺ (إن من البيان لسحرا)^(١) ففى هذا الحديث سمي الرسول ﷺ الفصاحة فى الكلام واللسانة فيه سحرا ، ذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى يتوهم السامع أنه حق . والمعنى . أن يكون الرجل عليه الحق لكنه ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه .

قال بعض العلماء : إن الحديث خرج مخرج الذم للبلاغة والفصاحة إذ شبههما بالسحر وقيل خرج مخرج المدح للبلاغة والتفصيل والبيان . والذى يبدو لنا أن العلماء يحمدون البلاغة ، والفصاحة ، ما لم تخرج إلى حد الإسهاب والإطناب ، وتصوير الباطل فى صورة الحق . فالسحر هنا هو البيان فى فطنة وذكاء .

(١) الحديث رواه البخارى بسنده الى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . راجع صحيح البخارى ج ١٠ ص ٢٢٧ .

والمراد من لطف المأخذ ودقته : هى تلك الصنعة التى لايهتدى إليها غير أهلها فهى إذن صنعة باطنة وخفية^(٢) .

أما قوله تعالى حكاية عن موسى (يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون)^(٣) فيمكن أن يقال كيف قالوا لموسى يا أيها الساحر وهم يزعمون انهم مهتدون ؟

والجواب عن ذلك : أن الساحر عندهم كان نعتا محمودا ، كما أن السحر كان علما مرغوبا فيه : فقالوا يا أيها الساحر على وجهه التعظيم له ، وخاطبوه بما تقدم له عندهم من التسمية بالساحر ، اذ جاء بالمعجزات التى لم يعهدوا مثلها ، ولم يكن السحر عندهم كفرا ، ولا كان مما يتعايرون به ، ولذلك قالوا يا أيها الساحر، والساحر العالم^(٤) .

وقال أهل اللغة أيضا : السحرُ هو صرف الشيء عن جهته الى غيرها قال الله تعالى (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا)^(٥) . أى مصروفا عن الحق ، وقوله تعالى (بل نحن قوم مسحورون)^(٦) بمعنى أزلنا وصرفنا عن معرفتنا بالتخييل .

ويقال أيضا : السحر : الفساد وهو الخبل فى العقل بعمل يتقرب به إلى الشيطان وبمعونته ومنه الأخذة التى تأخذ العين حتى يظن أن الأمر كما يرى وليس الأصل على ما يرى . ومنه كذلك التمويه والتخايل كالذى يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء .

والسحر بفتح السين الرثة وما يتعلق بالحلقوم : أما إذا كان بفتح السين والحاء معا (السحر) فالمراد به آخر الليل ومنه السحور طعام السحر وشرابه ، وجمعها أسحار . قال تعالى (وبالأسحار هم يستغفرون)^(٧) .

(٢) راجع مادة سحر فى المعاجم .

(٣) سورة الزخرف الآية (٤٩) .

(٤) لسان العرب لابن منظور مادة سحر ط دار المعارف .

(٥) سورة الإسراء الآية (٤٧) .

(٦) سورة الحجر الآية (١٥) .

(٧) لسان العرب لابن منظور ، نفس المادة ، وأنظر سورة الذاريات الآية ١٨ .

ومن هذا التعريف عند علماء اللغة يستقر في ذهن القارئ تصور معين لماهية السحر وحقيقته فما لطف مأخذه ودق سببه ، أو الاستمالة أو صرف الشيء عن جهته إلى غير ذلك كلها تدور حول معنى يكاد يكون واحدا وهو بالجملة تحويل الشيء عن وجهه أيا كان هذا التحويل سواء كان حقيقيا أو مجازيا على ما سنوضحه فيما بعد عند الكلام على نوعي السحر الرئيسين الحقيقي والمجازي إن شاء الله .

٢ - تعريفه عند علماء الشريعة

عرف علماء الشريعة الاسلامية السحر بتعاريف عدة نذكرها على النحو التالي :

فقد عرفه الحنفيون فقالوا : هو علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة لأسباب خفية .

أو : هو قول يعظم فيه غير الله تعالى وتنسب إليه التقديرات والتأثيرات^(٨) .

وعرفه المالكيون كتعريف الحنفية الأخير مع تغيير يسير في بعض الألفاظ مع اتحاد المعنى في كل منهما ، وقال ، عنه بعض المالكية : منه ما يكون خارقا للعوائد ومنه ما لا يكون كذلك^(٩) .

بيد أن بعض المالكيين يصرحون بأن السحر جنس يدخل تحته ثلاثة أنواع هي :

النوع الأول : السيمياء : وهو عبارة عما يركب من خواص أرضية ، كدهن خاص أو مائعات خاصة أو كلمات خاصة توجب تخييلات خاصة وإدراك الحواس الخمس أو بعضها منها لحقائق خاصة من المأكولات والمشروبات والمبصرات والملبوسات والمسموعات .

(٨) حاشية رد المحتار للمحقق محمد أمين الشهير بابن عابدين ج ١ ص ٤٤ ، ٤٥ ، تبين الحقائق في شرح كنز الدقائق للزيلعي ج ٢ ص ٢٩٣ .

(٩) حاشية السوقي على الشرح الكبير ج ٤ ص ٣٠٢ ، الفروق للقرافي المالكي ج ٤ ص ١٣٧ .

وقد يكون لذلك وجود حقيقى يخلق الله تلك الأعيان عند تلك المحاولات ، وقد لا تكون له حقيقة بل تخيل .

وقديستولى ذلك على الأوهام ويسلب الفكر الصحيح بالكلية وتصير أحوال الإنسان مع تلك المحاولات كحالات النائم من غير فرق ، ويختص ذلك كله بمن عمل له السحر ، أما من لم يعمل له فلا يجد شيئاً من ذلك إطلاقاً .

النوع الثانى : الهيمياء : وهى كالسيمياء تماماً إلا أنها تمتاز عن السيمياء أن ما تقدم من المحاولات يضاف - عند الهيمياء - للآثار السماوية من الاتصالات الفلكية وغيرها من أحوال الأفلاك فيحدث جميع ما تقدم ذكره .

النوع الثالث : بعض خواص الحقائق من الحيوانات وغيرها ، ومثل ذلك : يأخذ سبع من الحجارة ثم يرجم بها نوعاً معيناً من الكلاب ، وشأن هؤلاء الكلاب أنه إذا رمى بهذه السبع عضها كلها ثم يلقطها الرامي بعد ذلك ويطحرها فى ماء فمن شرب منه ظهرت عليه آثار عجيبة خاصة نص عليها السحرة^(١٠) .

وقد قالوا فى هذا كلاماً كثيراً من حيث التأثير ونحن لا نريد أن نسعى وراء تلك الأراجيف .

أما الشافعيون فقد عرفوا السحر بأنه مزاوله النفوس الخبيثة لأقوال وأفعال ينشأ عنها أمور خارقة للعادة^(١١)

وعرفه الحنابلة : بأنه عقد ورقى وكلام يتكلم به أو يكتبه أو يعمل شيئاً يؤثر فى بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له^(١٢) .

(١٠) الفروق للامام شهاب الدين أبى العباس أحمد بن إدريس الصنهاجى المشهور بالقرافى د ٤ ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(١١) مغنى المحتاج للعلامة الشربىنى الخطيب د ٤ ص ١٢٠ ، حاشية الشرفاوى على التحرير للعلامة الشرفاوى د ٢ ص ٣٨٥ .

(١٢) كشاف القناع لفتية الحنابلة البهوتى د ٦ ص ١٨٦ ، المغنى لأبى محمد عبد الله بن قدامة د ٨ ص ١٥٠ .

وعرفه الزيدية^(١٣) بأنه إظهار القدرة على تبديل الخلق وجعل الإنسان بهيمة وعكسه وجعل الجماد حيوانا الى غير ذلك^(١٤) .

هذا ، وللمفسرين كذلك كلام فى تعريفه :

فقد عرفه العلامة الألوسى بأنه أمر غريب يشبه الخارق للعادة وليس به إذ يجرى فيه التعلم ويستعان فى تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح قولاً كالرقى التى فيها ألفاظ الشرك ومدح الشيطان وتسخير ، وعملاً كعبادة الكواكب والتزام الجنابة وسائر الفسوق .

وكذلك اعتقاداً كاستحسان ما يوجب التقرب اليه ومحبة إياه ، وذلك لا يستتب الا بمن يناسبه فى الشرارة وخبث النفس ، فإن التناسب شرط التضام والتعاون . فكما أن الملائكة لاتعاون إلا خيار الناس المشبهين بهم فى المواظبة على العبادة والتقرب إلى الله بالقول والفعل ، كذلك الشياطين لاتعاون إلا الأشرار المشبهين بهم فى الخبائث والنجاسة قولاً وفعلًا واعتقاداً .

وبنحو هذا التعريف عرفه العلامة البيضاوى فى تفسيره . إلا أنه زاد عليه فقال (وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعوونة الآلات والأدوية وخفة اليد فغير منموم ، وتسميته سحراً فهو على التجوز لما فيه من الدقة والخفاء^(١٥) .

وقال عنه القرطبى فى تفسيره نقلاً عن بعض العلماء - لم يعينهم - إن أصله التمويه بالحيل والتخايل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعانى فيخيل للمسحور أنها بخلاف ماهى به وهو ما يقول به المعتزلة وبعض أهل السنة ، ويتفق الامام أبو بكر الجصاص مع القرطبى فى هذا التعريف وينضم إليهم الأستاذ الامام محمد عبده وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا لكن يلاحظ أن القرطبى مع أهل السنة فى ثبوت حقيقته^(١٦) .

(١٣) هى طائفة من فرق الشيعة وأعد لها وأقربها إلى مذهب أهل السنة وتنسب إلى الامام زيد .
(١٤) التاج المذهب لأحكام المذهب للقاضى العلامة أحمد بن قاسم العنسى اليمانى الصنعانى ج ٤ ص ٢٥٥ .

(١٥) روح المعانى للعلامة محمود الألوسى البغدادى ج ١ ص ٣٣٨ ، تفسير البيضاوى ص ٢١ .
(١٦) الجامع لأحكام القرآن للامام القرطبى مجلد ١ ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، أحكام القرآن لأبى بكر الرازى الجصاص ح ١ ص ٤١ ، تفسير القرآن الحكيم للأستاذ الامام محمد عبده ، محمد رشيد رضا (المنار) ج ١ ص ٣٣٠ ، ج ٩ ص ٤٢ ، ٤٣ .

وقال بعض العلماء المعاصرين : إنه أمر تقتدر به النفوس البشرية على التأثير فى عالم العناصر إما بمعين أو بغير معين من الأمور السماوية^(١٧) .

وقال عنه الأستاذ سيد قطب يرحمه الله تعالى : إن السحر خداع الحواس وخداع الأعصاب والإيحاء الى النفوس والمشاعر وهو لا يغير من طبيعة الأشياء ولا ينشئ حقيقة جديدة لها ولكنه يخلل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر ، وهذا هو السحر كما صورته القرآن الكريم^(١٨) .

وقال عنه أيضا بعض المعاصرين : بأنه حصول أمر خارق للعادة غير مألوف للبشر خفى سببه يتخيله الناظر يجرى مجرى التمثيل والخداع ، ومنه قوله تعالى (سحرروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم)^(١٩) .

وقال : إن هناك سحرا غير منظور وهو تأثير خفى فى جسم بشرى يوجد انفعالا على غير إرادة المسحور^(٢٠) .

(تعليق على هذه التعاريف للسحر)

نبدأ أولا بتعريف الحنفية لنرى أنهم تناولوا السحر من حيث إنه سحر حقيقى فهم بنوه على حصول الملكة النفسانية التى ينتج عنها أفعال غريبة ، وهذه الملكة لا تتحقق إلا بالاتصال بالأرواح الشريرة^(٢١) وعلوم النجوم والكواكب وما إليه على النحو الذى سار عليه السحرة الحقيقيون . إلا أن الحنفية فى هذا قد أغفلوا السحر المجازى وهو ما يعرف عند العامة بالشعوذة . كما أنهم لم يصرحوا لامن قريب ولا من بعيد بخارقة السحر للعادة من عدمه . وتعليقنا هذا يشمل التعريف الأول والثانى للحنفية .

(١٧) آيات الأحكام لفضيلة المرحوم الشيخ السابيس ج ١ ص ١٥

(١٨) فى ظلال القرآن للمرحوم الأستاذ سيد قطب ج ٦ ص ٤٠٧ ط دار الشروق .

(١٩) سورة الأعراف الآية (١١٦) .

(٢٠) كتاب الجن للاستاذ سيد عبد الله ص ٨٠ .

(٢١) الأرواح الشريرة هى الجن المتمرد ومنهم الشياطين : وإليك نبذة عن الجن والشياطين .-

- ١ - الجن لغة : جن الشيء بجنه جنا بمعنى ستره ، وكل ما ستر عنك فقد جن عنك ، وفي القرآن الكريم . فلما جن عليه الليل (أى ستره) (سورة الانعام الآية ٧٦) وبه سمى الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار ، وقد سمى الجنين جنينا لاستتارهم في بطن أمه . والجان : هو أبو الجن خلق من نار ثم خلق منه نسله ، وجمعه جنان ، والجان أيضا ضرب من الحيات أكحل العينين يضرب إلى الصفرة وهو كثير في بيوت الناس وفي الحديث : أنه ﷺ نهى عن ذبائح الجن (وهو أن يبنى الرجل الدار فاذا فرغ من بنائها نبح ذبيحته ، وكانوا يقولون : إذا فعل ذلك لا يضر الجن أهل هذه الدار .

وفي الحديث أنه ﷺ نهى عن قتل الجنان ، وهى الحيات التى تكون فى البيوت واحدها جان ، وهو الدقيق الخفيف ، قال الزجاج إن العصا صارت تتحرك كما يتحرك الجان حركة خفيفة وهى تلك التى كانت فى يد موسى عليه السلام ، قال وكانت فى صورة ثعبان . وهو العظيم من الحيات ، قال أبو العباس رحمه الله : شبهت فى عظمتها بالثعبان وفى خفتها بالجان ولذلك قال الله تعالى (فإذا هى ثعبان مبين) سورة الشعراء الآية (٣٢) وقال مرة أخرى (كأنها جان ولى مندبرا) سورة النمل الآية (١٠) .

والجان هو الشيطان أيضا قال الله تعالى (الا إبليس كان من الجن) سورة الكهف الآية (٥٠) وأكثر كتب التفسير على أن إبليس كان من غير الملائكة للآية المذكورة وقيل إبليس من الجن بمنزلة آدم من الأنس . راجع مادة جنن فى لسان العرب لابن منظور - طبعة دار المعارف .

وقال ابن دريد : زعم قوم من أهل اللغة اشتقاق إبليس من الابل اس كانه أبلس أى ينس من رحمة الله تعالى ، وأبلس الرجل إبلاسا فهو مبلس إذا ينس وقد سمى إبليس بهذا الاسم بعد لعن الله إياه ، وكان اسم إبليس حيث كان مع الملائكة (عزازيل) وكان من الملائكة نوى الأجنحة الأربعة ثم أبلس (أنظر : غرائب وعجائب الجن للامام الشبلبي ص ٢٣ و ٢٤) .

وهذا القول لابن دريد لا يسلّم به فى نقطة واحدة وهى زعمه أن إبليس كان من الملائكة لأن نص القرآن صريح فى أنه كان من الجن وعلى هذا أكثر المفسرين . لكن يسلّم له أنه كان مع الملائكة لا منهم ، ولا يجوز لنا أن نفرّك النصوص إلى اجتهادات تصح أو لاتصح ثم إن ابن دريد لم يأت بدليل شرعى يؤيد ما ذهب إليه . والله اعلم . ونقل الامام الشبلبي فى كتابه السابق ذكره عن أبى المثنى أن أبلس كان اسمه (نائل) فلما أسخط الله سمى شيطانا ، كما نقل أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله : لما عصى إبليس لعن وصار شيطانا ، كما نقل عن سفيان قوله : كنية إبليس (أبو كنوس) .

= وإبليس اسم اعجمي لا ينصرف للعجمة والتعريف ، وقيل هو عريى واشتقاقه من الإبلاس ولم ينصرف للتعريف ولأنه لا نظير له فى الأسماء .
واعلم أن الجن عموما عند أهل الكلام والعلم باللسان على مراتب خمس :
الأولى : إذا ذكر الجن خالصا : قيل جنى .
الثانية : فإذا أمكن أن يسكن مع الناس فى بيوتهم : قيل عامر . وجمعه عَمَار .
الثالثة : فإن كان مما يعرض للصبيان : قيل أرواح .
الرابعة : فإذا أحبب وتعمز : قيل شيطان ، فإن زاد على ذلك فهو مارد .
الخامسة : فإذا زاد على التمرد وقوى أمره : قيل عفريت : وجمعه عفاريت .
(أنظر كتاب غرائب وعجائب الجن للامام المحدث القاضى بدر الدين الشبلى ص ٢٥ تحقيق إبراهيم محمد الجمل) مكتبة القرآن الفجالة / القاهرة ١٩٨٢ م)

٢ - الشيطان : حية له عرف ، والشاطن الخبيث ، وكل عاتى متمرد من الجن والانس والدواب شيطان وتشيطن الرجل وشيطن إذا صار كالشيطان وفعل فعله وقيل الشيطان : من شاط يشيط إذا هلك واحترق .

والشيطان لا يرى ولكنه يستشعر أنه أقبح ما يكون من الأشياء ، ولو رئى فى أقبح صورة وكانت العرب تسمى بعض الحيات شيطانا

★ وفى حديث قتل الحيات : خرجوا عليه فإن امتنع والا فاقتلوه فإنه شيطان - أراد أحد الشياطين من الجن .

★ وفى الحديث أيضا : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وهو مثلٌ والمراد به أن يتسلط عليه فيؤموس له لا أنه يدخل فى جوفه عادة ، واعلم أن النون من لفظ الشيطان والشياطين هى نون أصلية ومن بنية الكلمة ، وقيل : إنها زائدة ، وعلى هذا فإن جعلته من فيعلا يعنى شيطانا صرفته ، وإن جعلته من شيط لم تصرفه لأنه من فعلا ، ومعناها فى حالة تأصيل النون من الشطن وهو البعد عن الخير أو من الحبل الطويل كأنه طال فى الشر .

أما فى حالة القول بزيادة النون كان من شاط يشيط إذا هلك . والشيطان من سمات الابل : وهو وسم يكون فى أعلى الورك منتصبا على الفخذ الى العرقوب ملتويا - راجع مادة شطن فى لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف .

وبالجملة : فإن الشياطين عصاة وهم من الجن من ولد إبليس ، لكن أعتاهم وأغواهم وأقواهم المردة والغاريت وهؤلاء جميعا هم أعوان إبليس يفتنون من بين يديه فى الأغواء كأعوان الشياطين . قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : يجب أن يعلم الانسان أن الله تعالى أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم الى جميع الثقلين الانس والجن وأوجب عليهم الايمان به وبما جاء به وطاعته وأن يحلوا ما أحل الله ورسوله ، ويحرموا ما حرمة الله ورسوله =

.....

= ثم قال : وإن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من الانس والجن فلم يؤمن بها استحق عقاب الله تعالى كما يستحقه أمثاله من الكافرين الذين بعث اليهم الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين أهل السنة والجماعة وغيرهم ولم يخالف أحد من المسلمين في وجود الجن .

وكذلك فإن جمهور طوائف الكفار على إثبات الجن ، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم وإن وجد فيهم من ينكر ذلك كما يوجد في المسلمين من ينكره أيضا كالجهمية والمعتزلة وغيرهم .

أما أبو بكر الباقلاني وكثير من القدرية يثبتون وجود الجن قديما وينفون وجودهم الآن ، ومنهم من يقر بوجودهم ويزعم أنهم لا يرون لدقة أجسامهم ونفوذ الشعاع فيها ، ومنهم من يقول : إنهم لا يرون لأنهم لا لون لهم .

قال إمام الحرمين : إن التمسك بالظواهر والآحاد تكلف منا مع إجماع الصحابة والتابعين على وجود الجن والشياطين والاستعانة بالله تعالى من شرورهم ولا يراغم مثل هذا الاتفاق متدين متشبه بمسكة من الدين ، فمن لم يرتدع بهذا وأمثاله فينبغي أن يتهم في الدين ويعترف بالانسلال منه

على أنه ليس في إثبات الشياطين ومردة الجن ما يقدح في أصل من أصول العقل وقضية من قضاياها .

ثم قال : اعلم إن كثيرا من التلاسفة وجماهير القدرية وكافة الزنادقة قد أنكروا الشياطين والجن رأسا مع أنه قد تواترت به أخبار الانبياء تواترا معلوما بالاضطرار والمعلوم بالاضطرار أنهم أحياء عقلا فاعلون بالارادة بل مأمورون منهيون فليسوا صفات أو أعراضا قائمة بالانسان أو غيره كما يزعمه بعض الملاحدة .

واعلم ل أهل السنة والجماعة يقولون بدخول الجن بدن المصروع كما قال تعالى في سورة البقرة (الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) فجماهير الطوائف تقر بوجود الجن بل يقررون بما يستجلبون به معاونه الجن من العزائم والطلاسم سواء أكان ذلك سائغا عند أهل الايمان أو كان شركا ، فإن من المشركين من يقرؤون من العزائم والطلاسم والرقى التي لاتفقه بالعربية فيما هو شرك بالله ، ولهذا نهى علماء المسلمين عن الرقى التي لايفقه معناها لأنها مظنة الشرك وإن لم يعرف الراقي أنها شرك .

(انظر فيما كتبناه كتاب الجن للامام ابن تيمية ص ٣ : ٧ دار القاسية بالاسكندرية) .

السحر علم كان ولا يزال فى بعض الأماكن له قواعده وأصوله وأنماطه وكل ما كان كذلك لا يكون خارقا للعادة لأن تعلمه وتعليمه أمران ممكنان ، ولو شاء أى شخص أن يتعلم السحر لتعلمه لكن هل يمكن لشخص أن يتعلم خرق العادة ؟ أقول لا .

ويقول بعض العلماء المعاصرين إن خرق العادة للساحر ممكن لأن الله يخلق على يديه الفعل الذى يريد !

نقول له إن خرق العادة يأتى لسبب من الأسباب الست المعروفة ومنها المعجزة للرسل والأنبياء فهذا يلتبس بذاك فما قولك ؟ أجاب بأن المعجزة فيها تحد للبشر أما السحر فلا تحد فيه ، وهنا نقول له وماذا تقول فى الأسباب الخمسة الباقية ؟ وهى ليس فيها تحد ؟ فإذا أجاب بأن السحر مثل تلك الأسباب ويدخل فيها . قلنا له إن الله خرق العادة لتلك وهى ليس فيها تحد ؟ فإذا أجاب بأن السحر مثل تلك الأسباب ويدخل فيها : قلنا له إن الله خرق العادة لتلك الأسباب وله حكمة ظاهرة فى كل منها على حدة كما فى خرق العادة للرجل الصالح إكراما له وخرقها لأحد العباد معونة له وخرقها للارهاص بقرب بعثة نبي من الأنبياء ، وخرقها على يد فاسق خديعة له ومكرا ، وخرقها بقصد الالهة كما وقع لمسيلمة الكذاب فإن قال بأن السحر لا يصدر الا من فاسق فيخرق الله له العادة خديعة له وعلى هذا يكون السحر من جملة الخوارق ؟ قلنا له ، هذا قول بخلاف ما عليه جمهور علماء التوحيد فهم لم يعدوه من جملة الخوارق بل أشاروا إليه بما يوهن دخوله فى جملتها . ومن ثم بقى السحر شبيها بخرق العادة فحسب .

أما ما يؤخذ على تعريف الألوسى أنه لم يتناول فى تعريفه السحر المجازى (الشعوذة) ولعله فعل كما فعل الأحناف فهم أيضا قد اغفروه فالألوسى حنفى المذهب .

ومع أن البيضاوى عرف السحر كما عرفه الألوسى إلا أنه لم يغفل السحر المجازى المشتغل على الحيل والآلات والأدوية وخفة اليد والحركة - وهذه هى الشعوذة المعروفة ، كذلك الأفعال التى يقوم بها

الحاوى أو غيره وهى فى الغالب لاتؤدى الى الكفر ، وتسميتها وإدخالها فى مسمى السحر إنما هو من طريق التجوز فحسب لأنها ليست من السحر حقيقة ، وكذلك ما يفعله بعض الدجالين فى قرى الريف من (فتح الكتاب) بما يسمى كتاب (أبو معشر الفلكى) أو غيره فهولاء حمقى وجهلة هم ومن يذهب إليهم ويصدقهم وكلها شعوذات وحيل ودجل بقصد أكل أموال الناس بالباطل وهذا لا مرية فيه ، فمن يؤمن بالله يهد قلبه .

وإذا ما انتقلنا كذلك الى تعريف السحر الذى ذكره الشيخ السائس رحمه الله فنجد أنه قد اقتصر فيه على الأمور السماوية فحسب ولعله يقصد علوم الفلك والكواكب فى استخدام السحر ولم يتناول فيه الأمور الأرضية والتى تتمثل فى عدة أشياء وعلى رأسها الارواح الشريرة .

ولذا فإننا نرى أنه تعريف غير جامع ويخالف ما عليه عامة العلماء القدامى الذين ذكروا أنواعه كلها ، منها ما يتعلق بالأمور السماوية ومنها كذلك ما يتعلق بالأمور الأرضية الى غير ذلك .

الخلاصة

بعد استقراء ماقاله علماء الشريعة فى تعريفهم للسحر نجدهم أنهم لا يخرجون عن اتجاهات ثلاثة :

الاتجاه الأول : أن السحر خارق للعادة ويكتسب بالتعلم والتعليم .

الاتجاه الثانى : أن السحر يشبه الخارق للعادة وليس بخارق لها على وجه الحقيقة .

الاتجاه الثالث : أن السحر عبارة عن حيل وتخايل وتمويهات وخداع . وهنا يتضح لنا أن من قال بأن السحر كله خيالات فهو على غير صواب ومن قال بأنه سحر حقيقى بمعاونة الشياطين أو غيرهم مطلقا فهو أيضا على غير صواب .

وإذن يكون الصواب أن بعضه سحر حقيقى وهو الذى تعتريه جميع الأحكام الشرعية الخاصة بالسحر ، وبعضه الآخر شعوذة وهى ما نسميه مجازا بالسحر وهى خدع وتمويهات لاحقيقة لها فى الواقع ولا تعود

بالضرر إلا على مستخدمها نفسه فى بعض الأحيان كالحاوى الذى يستخدم فى حيله وخداعه مواد كيميائية وهو جاهل بمؤثراتها واستخدامها العلمى لأنه ربما وقع فى خطأ فى الاستعمال نتج عنه ضرره ، لأن مادة الكيمياء تلعب دورا كبيرا وخطيرا ومفيدا فى نفس الوقت فى كثير من أوجه النشاط الإنسانى .

ويمكننا أن نعرف السحر تعريفا على حسب ما قرأناه وأوردناه عسى أن يكون جامعا ومانعا إن شاء الله .

تعريفنا للسحر : هو عبارة عن أمور دقيقة موعلة فى الخفاء يمكن اكتسابها بالتعلم تشبه الخارق للعادة وليس فيها تحد ، أو تجرى مجرى التمويه والخداع تصدر من نفس شريرة تؤثر فى عالم العناصر بغير مباشرة أو مباشرة .

شرح التعريف : قولنا (أمور دقيقة موعلة فى الخفاء) قيد أول لإخراج الأمور الظاهرة فهى ليست من السحر كأحدث الصناعات الدقيقة المبتكرة وغيرها فهى ظاهرة واضحة « يمكن اكتسابها بالتعلم » قيد ثان لإخراج المعجزة والكرامة وسائر الأمور الخارقة للعادة ، فالأولى لا تكتسب على إطلاقها والثانية مثلها أو بمجاهدة النفس ، أما السحر فاكسابه ممكن لأى شخص شاء أن يتعلمه .

(تشبه الخارق للعادة) قيد ثالث لإخراج كل ما من شأنه الخارقة للمألوف من نواميس الكون (وليس فيها تحد) قيد رابع أتيت به على فرض صحة قول من قال بأن السحر خارق للعادة فإن كان كذلك وصح فهو قيد لإخراج المعجزة لأنها متحدية للخلق بأن يأتوا بمثلها ، وهنا يكون السحر من قبيل الاستدراج للفساق الذين يخرق الله العادة على أيديهم استدراجا لهم .

(أو تجرى مجرى التمويه والخداع) وهو قيد خامس لإبراز القسم الثانى من قسمى السحر وهو السحر المجازى (الشعوذة) تلك التى تقوم على الحيل والتمويه والخداع .

(تصدر من نفس شريرة) قيد سادس لإخراج النفس الطيبة الطاهرة فإنها بعيدة كل البعد عن هذا الخبث والفساد ، والنفس الطيبة كنفس النبي والولى فهما نقيتان كريمتان .

(تؤثر فى عالم العناصر) « قيد سابع لإثبات أن السحر يؤثر فى العناصر كلها سواء كان إنسانا أم حيوانا وذلك كفن سحر الحيات والثعابين واصطيادها والسيطرة عليها ، وقد عرف هذا النوع من السحر وكان يمارس فى بلاد الشرق منذ عصور موعلة فى القدم . سواء كان وسيلة من وسائل التسلية أو طريقة لإبعاد الزواحف الخطيرة عن الإنسان والماشية^(٢٥) .

« بغير مباشرة » كما يفعله السحرة من عقد للتفريق بين المرء وزوجته مثلا ، أو « بمباشرة » كالسحرة الذين كانوا فى بلاد المغرب فقد كانوا ينظرون الى الإبل فتنبعج بطونها ، أو كمن يكتب على كفه ويسلم على إنسان معين ليعقده عن امرأته ليلة زفافه - على النحو الذى يفعله سخفاء الناس وأراذلهم خاصة فى قرى الريف بقصد الإطعام من ليلة العرس وأخذ المال بغير حق . وهؤلاء لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم والله سبحانه أعلم .

٣ - تعريف السحر عند علماء الاجتماع

عرف عالم الاجتماع المسلم ابن خلدون رحمه الله علوم السحر والطلسمات^(٢٦) بأنها علوم بكيفية استعدادات تقدر النفوس البشرية بها على التأثير فى عالم العناصر إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية . والاول هو السحر والثانى هو الطلسمات^(٢٧)

(٢٥) الموسوعة العربية الميسرة ص ٩٧٢ ط دار القلم .

(٢٦) الطلسمات عبارة عن : أسماء خاصة لها تعلق بالافلاك والكواكب فى أجسام من المعادن وغيرها تحدث لها آثار خاصة ربطت فى مجارى العادات - على زعم أهل هذا العلم . راجع الفروق للقرافى ج ٤ ص ١٤٢ .

(٢٧) المقدمة لآبى زيد عبد الرحمن الملقب ولى الدين المشهور بابن خلدون المالكي الحضرمي ص ٤٢٢ ط دار التحرير ١٩٦٦ .

وهذا التعريف يتلاقى مع بعض تعريفات علماء الشريعة فيما سبق أن ذكرناه وهو شيء طبيعي فابن خلدون هو عالم مسلم له باع طويل في خدمة الشريعة الإسلامية مع ما آتاه الله من سعة اطلاع في بقية العلوم الأخرى .

يقول ابن خلدون ما ملخصه : إن هذه العلوم كانت مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر والتوجه لغير الله ولذلك كانت كتبها كالمفقودة إلا ما وجد في كتب الأقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام مثل النبط والكلدانيين . وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفي قبط أهل مصر وغيرهم ، وكانت لهم فيها تأليف مشهورة ولم يترجم لنا من كتبهم إلا القليل مثل (الفلاحة النبطية) من وضع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ، ووضعت بعد ذلك كثير من هذه التأليف إلى أن ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة واطلع على كتب من سبقوه واستخرج الصناعة وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء لأنها من توابعها ، لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسانية لا بالصناعة العملية فهو من قبيل السحر (٢٨) .

ثم اعلم أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة في النوع فهي مختلفة بالخواص وهي أصناف وكل واحد من هذه الأصناف مختص بخاصية لا توجد في الأخرى ، ومن هنا فإن النفوس الساحرة على مراتب ثلاثة : **أولها :** النفوس المؤثرة بالهمة فحسب من غير استعمال آلة ولا معين وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة بالسحر .

ثانيها : النفوس المؤثرة بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمون ذلك بالطلسمات وهو نوع أضعف من المرتبة الأولى .

(٢٨) المرجع السابق .

ثالثها : التأثير في القوى المتخيلة وذلك بأن يعمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ، ويلقى أنواعا من الخيالات والمحاكاة ، وصورا مما يقصده من ذلك ، ثم ينزلها إلى الحس من الرأئين بقوة نفسه المؤثرة فيه إلى غير ذلك من أنواع الخداع والتخيلات ، وهذا ما يسمى عند الفلاسفة بالشعوذة أو الشعبة ، وهو ما نعرفه في هذا المؤلف باسم (السحر المجازي) (٢٩) .

هذا وقد علق الأستاذ سيد قطب فقال : إنه ما يزال مشاهدا في كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن كنهها بعد ، فلقد سمي بعضها بأسماء ولكنه لم يحد كنهها ولا طرائقها ، فمثلا : هذا التذاطر عن بعد ما هو وكيف يتم ؟ كيف يملك الإنسان أن يدعو إنسانا على أبعاد وفواصل لا يصل إليها صوت الإنسان في العادة ولا بصره ؟ فيتلقى عنه دون أن تقف بينهما الفواصل والأبعاد ، وهذا التنويم المغناطيسي ما هو وكيف يتم ؟ كيف تقف أن تسيطر إرادة على إرادة .. ؟ إن كل ما استطاع العلم أن يقوله الى اليوم في هذه القوى التي اعترف بها هو أن أعطاها أسماء ولكنه لم يقل قط ما هي ؟ ولم يقل قط كيف تتم ؟ الى أن يقول : والسحر من قبيل هذه الأمور وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الأمور (٣٠) .

واذا رجعنا الى تعريف المفكر الاسلامي المشار إليه نجد أنه هنا يثبت في تعليقه أن السحر من جملة الأمور الخفية التي لم يستطع العلم أن يفسر ظواهره ، بينما نجده هناك فيما مر من تعريفات علماء الشريعة يقول : إن السحر هو خداع الحواس والأعصاب والايحاء ولكنه لا يغير من طبيعة الأشياء ! فكيف لا يغير من طبيعة الأشياء مع أنه يثبت هنا في تعليقه بأنه يحدث أشياء لا يستطيع الإنسان تفسير ظواهرها ؟ فكان عليه رحمه الله أن يعترف صراحة بأن للسحر حقيقة ثابتة حتى يكون رأيه متسقا مع خواطره .

(٢٩) راجع المقدمة لابن خلدون ص ٤٢٢ ، ٤٢٣

(٣٠) راجع في ظلال القرآن لسيد قطب ص ١ ص ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٧ ط دار الشرق

وقد عرفه بعض المعاصرين : بأنه هو العمل الذى يقوم به شخص معين تتوافر فيه شروط مخصوصة تحت ظروف واستعدادات غير مألوفة وبطرق سرية غامضة للتأثير على شخص أو جملة أشخاص رغم إرادتهم لتحقيق غرض معين له أو موصى به^(٣١) .

وعرفه جيمس فريزر^(٣٢) قال : السحر هو سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة وهو فن يترجم النظرية والمعتقد فى كل خطوة الى عمل ، وهو دائما أسلوب عملى لاستمطار المزروعات وإيقاع الصيد فى الشباك المعدة لاقتناصه فهو أسلوب لإخضاع قوى الطبيعة لإرادة الإنسان^(٣٣) .

أما « ويستر مارك ماريت » وهو من علماء التاريخ والاجتماع أيضا يقول : إن السحر تجربة بشرية ويتبع العالم الخارق للعادة ويشتمل على كل الإجراءات السيئة^(٣٤) .

ويقول عنه الدكتور « برنسلاف مالىنوسكى » : إن كل عمل من أعمال السحر يتميز أو يتحدد بواسطة أشياء معينة يقال أو أشياء معينة تعمل ، ومن هنا كانت التعويذة وهى تلاوة لبعض كلمات معينة فى ترتيب منسق معين وهى الجزء البارز الظاهر فى السحر وكذلك الطقوس التى تصاحب التعويذة^(٣٥) .

هذا وقد قيل فى السحر أقوال كثيرة جدا منها : أن السحر علم ، اذ كل ممارسة تعمل على أصول ثابتة وقواعد منتظمة تعتبر علما ، والسحر ينطبق عليه هذه الصفات فإنه يمارس بأصول مقدرة وقواعد مقررة^(٣٦) .

(٣١) كتاب السحر لابراهيم محمد الجمل ص ٤٢ ط مكتبة القرآن ١٩٨٢ م

(٣٢) هو عالم من علماء التاريخ وقد ألف كتابا أسماه (الغصن الذهبى) فرق فيه بين الدين

والسحر - أنظر كتاب التاروت وسحر هاروت وماروت لعبد الرزاق نوفل ص ٢٣ .

(٣٣) التاروت وسحر هاروت وما روت لعبد الرزاق نوفل ص ٢٨ و ٢٩ .

(٣٤) التاروت وسحر هاروت وما روت ص ٢٣ و ٢٤ .

(٣٥) المصدر السابق .

(٣٦) المصدر السابق ص ٢٤ .

وقيل : إن السحر ظاهرة حيث لا تفسير منطقي أو تبرير عقلي له ،
والعلم يسمى علما لأنه يستند الى حقائق عقلية ونظريات بديهية .

وقيل : إنه نوع من الفن كالشعر والتصوير والرسم والنحت
والموسيقى^(٣٧) ، هذا ، وقد أكدت الكتب القديمة أن السحر يفعل الأفاعيل
ويستخدم فيه الماء المعزم عليه في الآنية والخيوط والخطوط إلى غير
ذلك مما كان له آثاره في المجتمعات ، وقد وقع في أيدينا كتاب يروى
لنا ما كان في مصر في العهود القديمة وهو كتاب يرجع بالقارىء الى
الماضى البعيد الى ثلاثة آلاف وخمسمائة عام للحضارة المصرية في
العلوم والفنون والآداب^(٣٨) .

كما عرف السحر كاتب انجليزى معاصر هو (كولن ويلسون) من
أشهر الذين يشغلون أنفسهم بالفتنرات الإنسانية بأنه : هو القوى الغريبة
فإن الإنسان حينما يتتابه إحساس قوى بقيمة شىء معين فإنه ينشط قدراته
ويستثير الكامن منها فيما وراء الطرف النفسجى اللطيف الضوئى
للعقل ، ولم يكن السحر البدائى شىئا أكثر من استخدام تلك
القدرات^(٣٩) .

ويؤكد عالم الأجناس البشرية « إيفار ليسنر » : أن الأطباء السحرة
فى سيبيريا كانوا يستثيرون أنفسهم حتى يصلوا الى حالة من التهوس
المقدس - على حد كلامه - أو النشوة عن طريق دق الطبول والرقص
حتى يصل الواحد منهم الى الإغماء ، وأثناء الإغماء تصدر عنه أصوات
مختلف الطيور والحيوانات^(٤٠) .

(٣٧) المصدر نفسه .

(٣٨) كتاب وردة - رواية مصر الخالدة للكتور جورج أيبيرس الألمانى - ترجمة محمد مسعود ط
١٩٢٧ .

(٣٩) كتاب الانسان والأشباح والجن لسعيد اسماعيل ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٤٠) نفس المصدر ص ٨٤ .

فالسحر بمعنى واضح عبارة عن استخدام الإنسان لقدراته غير العادية ، ولذلك فهو يعتمد على مستوى من الوعي أكثر سموا وعلى إدراك للحقيقة أكثر اتساعا مما يمتلكه الناس عادة ، والساحر لاشك أنه يقوم بأعمال تفوق التصور العادي ويترتب على تلك الأعمال نتائج ملموسة خاضعة للتحقق والفحص^(٤١) .

ومن خلال قراءتنا عن السحر وجدناه قد لعب دورا كبيرا وغريبا فى حياة الناس على مر العصور والأزمان ، وتاريخ الإنسانية حافل بالكثيرين الذين استطاعوا القيام بمثل تلك الاعمال بإرادتهم .

وتأسيسا على ما تقدم يتضح لنا أن السحر عمل سييء ومرذول وأنه كان ساريا وموجودا منذ الأحقاب التاريخية الموهلة فى القدم وهذا ما أكدته علماء الشريعة وعلماء الاجتماع من خلال ما ذكرناه أنفا وغيره وأنه كذلك كان علما له أصول وقواعد يعرفها السحرة الذين مارسوه لاسيما قدماءهم وهو لا يزال فى بعض البلاد الى الآن .

وفى عصرنا الحديث وضع العلم موضوع السحر والسحرة تحت الدراسات الجادة وقام العلماء بأبحاثهم العملية وتجاربهم المعملية عليه وذلك فى بلاد كثيرة كفرنسا والاتحاد السوفيتى ، والمملكة المتحدة بانجلترا وبعض الولايات الأمريكية ، وما زالت اجتهادات العلماء فى مختلف الدول تتتابع وتتلاقى فى محاولات جادة لكشف ما يشمل السحر من غموض لعل فيه ما يمكنهم من الاستفادة من القوى غير المنظورة فيما يتطلع اليه العلم من اكتشاف العوالم الأخرى إن استطاعوا ، وكذلك اكتشاف ما بقى من الكواكب الأخرى الى غير ذلك من كل مبهم وغامض .

وفى الآونة الأخيرة فتحت « جريدة المسلمون » الدولية ملف السحر ، وكثر الكلام فيه لكن الذى استقر الأمر عليه أن ٩٩% من السحرة دجالون ، الا أن بعض السحرة^(٤٢) الذين عناهم هذا الأمر احتج على

(٤١) المصدر السابق ص ٨٦

(٤٢) هو محمد نايف العلاوى .

الجريدة وكتب مقالا رد فيه على اللائمين على السحر والسحرة واتهمهم بالتجنى والمغالطات وتعمد الإثارة لملايين البشر على هذا العلم الذى قال أنه يدرس فى أرقى الجامعات العلمية وقال : إننى درست هذا العلم فى جامعة السربون بفرنسا لمدة أربع سنوات ، لذا رأيت أن أكتب الرد تاركا أمور الدين لأهلها؟^(٤٣) وأورد فى رده كلاما لايسمن ولا يغنى من جوع فكل كلام فى مواجهة النصوص الشرعية لا عبرة به ولا قيمة له ، ثم كيف يسوغ لنفسه أن يترك أمور الدين وهو رجل من اسمه يعلم أنه مسلم ؟ وهل يعتد بإسلامه إذا كان هذا القول عن عمد ؟

وفى هذه الفترة طالعنا الصحف اليومية باستخدام السحر فى الهند كأحدث وسيلة لمنع الحمل ، ففى الهند قررت ولاية جوجارات ... الاستعانة بالسحرة الذين يمارسون الطب فى أعمال تنظيم الأسرة نظرا للنفوذ الذى يتمتعون به فى المناطق الريفية بالولاية ... قامت الحكومة الهندية بتدريب ١٦ ساحر على البرامج الخاصة بتحديد النسل كبداية لتعميم هذه الوسيلة ، المعروف أن عدد سكان الهند وصل إلى ٧٦٠ مليون نسمة ... ولم تسفر الوسائل التقليدية فى تحديد النسل هناك^(٤٤) .



(٤٣) جريدة (المسلمون) السنة الاولى - العدد العاشر ١٣ ابريل ١٩٨٥ .

(٤٤) أخبار اليوم بتاريخ ١٩٨٥/٩/٢١ .

٢ - المبحث الثاني هل للسحر حقيقة ؟؟

اختلف علماؤنا - رحمهم الله - فى ثبوت حقيقة السحر ، هل له حقيقة ثابتة أم لا حقيقة له ولهم فى هذا رأيان :

(رأى الاول)

يرى جمهور أهل السنة وعامة العلماء أن للسحر حقيقة ثابتة بنص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وله تأثير فى إيلام الأجسام وإتلافها نتيجة محاولة النفوس الخبيثة لأقوال وأفعال ينشأ عنها أمور خارقة للعادة خلافاً للألوسى وغيره الذين يقولون بأن هذه الأقوال والأفعال شبيهة بخرق العادة وليست بها .

فقد ذكر الله السحر فى كتابه ونكر أنه مما يتعلم كما ذكر ما فيه إشارة الى أنه مما يكفر به وأنه يفرق المرء وزوجه وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له^(٤٥) .

غير أن علماء الزيدية يعترفون بوجود السحر ويرتبون عليه أحكاماً إلا أنهم ينفون إسناد التأثير الى الساحر ويقصرون دوره على ادعاء التأثير ، وينسبون ما يصدر عن فعله من تأثير الى الله تعالى باعتباره الخالق لجميع الأفعال^(٤٦) .

(٤٥) فتح القدير د ٦ ص ٩٩ ، حاشية ابن عابدين د ١ ص ٤٤٥ ، الكنز للزيلعى د ٣ ص ٢٩٣ ، حاشية السوفى د ٤ ص ٣٠٢ ، جواهر الاكليل د ٢ ص ٢٧٨ ، بلغة السالك د ٣ ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، الفرق للقرافى د ٤ ص ١٣٧ ، قوانين الأحكام الشرعية لابن جزى ص ٣٩٥ ، المذهب للشيرازى د ٢ ص ٢٢٥ ، مغنى المحتاج د ٤ ص ١٢٠ ، تكملة المجموع لنجيب المطيعى د ١٨ ص ٢٢ ، حاشية الشرفاوى د ٢ ص ٣٨٥ ، كشف القناع د ٦ ص ١٨٦ ، المغنى لابن قدامة د ٨ ص ١٥٠ ، زاد المعاد لابن القيم د ٣ ص ٢١٤ ، أعلام الموقعين د ٤ ص ٣٩٥ تفسير المعونتين لابن القيم أيضاً ص ٣٢ ، فتح البارى د ١٠ ص ٢٢٢ ، شرح النووى على صحيح مسلم د ١٤ ص ١٧٤ ، نيل الاوطار د ٧ ص ٣٦٤ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى مجلد ١ ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير د ١ ص ١٤٤ ، روح المعانى للالوسى د ١ ص ٣٣٩ ، تفسير آيات الاحكام للسائيس د ١ ص ١٥ ، تفسير آيات الاحكام للصابونى ص ٧٤ ، ٧٥ ، مقمعة ابن خلدون ص ٤٢٣ ، (٤٦) شرح الازهار د ٤ ص ٣٧٩ ، التاج المذهب د ٤ ص ٢٥٥ .

وهذا فى ظنى خلاف شكلى فإنه من المتفق عليه أن الخالق لجميع الأفعال هو الله ، وعليه فإن الشيعة الزيدية يتفقون مع الجمهور فى ثبوت حقيقة السحر .

(الرأى الثانى)

يرى عامة المعتزلة والقدرية وأبو إسحق الاسترأبازى من علماء الشافعية وأبو بكر الرازى من الحنفية أن السحر تخيل وتمويه وأن ما يقع منه خيالات باطلة وتضليل وأنه من أبواب الشعوذة ، فلا تأثير له ألبتة لافى مرض ولا قتل ولا حل ولا عقد وإنما هو تخيل لأعين الناظرين ولا حقيقة له سوى ذلك .

ويتفق معهم فى هذا الرأى من العلماء المحدثين الامام محمد عبده وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا وغيرهما .

وعلماء الزيدية وأبو بكر الرازى من الحنفية : أنه لا تأثير للساحر إطلاقا وليس له دخل وإنما التأثير من الله تعالى فحسب ، وقد قدما أنه خلاف شكلى . لأن الزيدية يعترفون بتأثير السحر ويرتبون على الساحر أحكاما^(٤٧) .

ونرى أن هذا الرأى مخالف لما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف الصالح وما اتفق عليه عامة الفقهاء وأهل التفسير والحديث وما يعرفه عامة العقلاء بالمشاهدة لتأثيراته لاسيما من علمه ذوقا بما أصيب به .

(٤٧) التاج المذهب ج ٢ ص ٢٢٥ معنى المحتاج ج ٤ ص ١٢٠ ، فتح القدير ج ٦ ص ٩٩ ، كشف القناع ج ٦ ص ١٨٦ ، المغنى لابن قدامة ج ٨ ص ١٥٠ ، تفسير المعونتين ص ٣٢ ، البحر الزخار ج ٦ ص ٢٠٤ ، شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٧٩ ، فتح البارى ج ١٠ ص ٢٢٢ ، شرح النووى على صحيح مسد ج ١٥ ص ١٧٤ ، نيل الأوطار ج ٧ ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٤ ، روح المعاني ج ١ ص ٣٣٩ ، تفسير القرآن الحكيم (المنار) ج ٩ ص ٥١ ، تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٤٤ ، أحكام القرآن للجصاص ج ١ ص ٤٢ ، ٤٥ ، الزواجر لابن حجر الهيتمى ج ٢ ص ١٠٠ ، تفسير آيات الاحكام للسائيس ج ١ ص ١٥ ، وآيات الاحكام للصابونى ج ١ ص ٧٤ ، ٧٥ ، الفروق للقرافى ج ٤ ص ١٥٠ .

هذا وقد قسم ابن خلدون النفوس الساحرة الى مراتب ثلاثة . ولعل هذا التقسيم يخدم الرايين السابقين رأى الجمهور ، ورأى المعتزلة ومن وافقهم فيجمع بينهما فيصبح الخلاف من قبيل اشتباه المراتب .
قال رحمه الله فى مقدمته :

السحر حقيقة لا مرية فيها والنفوس الساحرة على مراتب ثلاثة .
الأولى : المؤثرة بالهمة من غير آلة ولا معين وهو الذى تسميه الفلاسفة السحر .
الثانية : المؤثرة بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات^(٤٨) وهى أضعف رتبة من الأولى .

الثالثة : التأثير فى القوى المتخيلة يعمد صاحب هذا التأثير الى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقى فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة وصورا مما يقصده من ذلك ثم ينزلها الى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤون كأنها فى الخارج وليس هناك شئ من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة . هذا تفصيل مراتبه .

ولما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لهما حقيقة فى الخارج ، والمرتبة الأخيرة الثالثة لاحقيقة لها ، فالقائلون بأن للسحر حقيقة نظروا الى المرتبتين الأوليين ، والقائلون بأن لاحقيقه له نظروا الى المرتبة الأخيرة ...

وانتهى ابن خلدون الى القول الفصل وهو أنه ليس بين العلماء اختلاف فى نفس الأمر بل إنما جاء من قبيل اشتباه هذه المراتب^(٤٩)

وبناء على ما تقدم يكون المعتزلة ومن معهم قد أجروا حكمهم على نوع من أنواع السحر وهو النوع المجازى منه ونحن معهم فى أنه ضرب

(٤٨) سبق شرح معناها فيما مر .

(٤٩) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٣ .

من التخيلات والتمويهات التي لا حقيقة لها، أما السحر الحقيقي فلم يتكلموا عليه ولم يتعرضوا للدلة المثبتة له كالموضعين اللذين نص عليهما القرآن الكريم كذلك فإنهم لم يتعرضوا بالكلام على ما ورد في السنة المطهرة من الحديث الصحيح الذي يثبت وجود حقيقة السحر غير أن الزيدية نسبوا تعرضاً في غاية الوهن والضعف حيث قالوا عن الحديث الصحيح أنها رواية ضعيفة وسيأتي كل ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى^(٥٠).

أدلة الرأي الاول

استدل جمهور أهل السنة على ما ذهبوا اليه من أن للسحر حقيقة ثابتة لا مرية فيها بأدلة من الكتاب والسنة:

الدليل الأول

قول الله تعالى (وأتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احد الا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون)^(٥١).

ووجه الاستدلال بهذه الآية الكريمة أن الله تعالى قد أخبر عن وجود حقيقة للسحر وأنه كفر وأن الشياطين يعلمونه الناس وأنه يخضع لقاعدة التعليم والتعلم، وأنه فتنة، ولذلك نهانا عن تعلمه وتعليمه، وأشار الى بعض تأثيراته كالتفريق بين الرجل والمرأة وذلك بازالة الألفة والمحبة بين الزوجين، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له. وبالجمل: فإن الآية تكشف عن أصل السحر ومنشئه وإثبات حقيقته وضرره وقبحه، وما يترتب عليه من الوعيد الشديد فلا ينتحله إلا كل شيطان مريد أو جبار عنيد.

(٥٠) البحر الزخار ج ٦ ص ٢٠٤، شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٧٩، تفسير القرآن الحكيم ج ٩ ص ٥١ الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٤، أحكام القرآن للجصاص ج ١ ص ٤٢ وما بعدها.

(٥١) سورة البقرة الآية ١٠٢.

أضواء من التفسير على الآية الكريمة

أولاً : التحليل اللفظي :

١ - قوله تعالى : ما تتلوا : ما موصول بمعنى الذى ، وتتلوا : أى تقرأ من التلاوة قاله عطاء ، وقال ابن عدس : تتلوا تتبع كما نقول جاء القوم يتبع بعضهم بعضاً . وقال القرطبي هي من الاتباع لأن من اتبع شيئاً وجعله إمامه فقد فضله على غيره . وهذا الأخير هو المعنى المراد من الآية بمعنى أن اليهود اتبعوا ما تقولته الشياطين وتحدثت به علي سليمان عليه السلام قال الألوسي رحمه الله : تتلوا : تتبع أو حراً وهو حكاية حال ماضية والأصل تلت (٥٢) .

٢ - قوله : علي ملك سليمان : أى على شرعه ونبوته ، وقال الزجاج المعنى على عهد سليمان وقيل المعنى فى ملك سليمان : يعنى فى قصصه وصفاته وأخباره (٥٣) .

وقال الألوسي : « علي ملك سليمان » متعلق بتتلوا ، وفى الكلام مضاف محذوف أى عهد ملكه وزمانه ، وعلى بمعنى فى ، لأن الملك والعهد لا يصلح أن يكون مقرأً عليه (٥٤) .

٣ - والمراد بالشياطين هنا هم شياطين الجن وهو المفهوم من هذا الاسم ، وقيل المراد شياطين الإنس المتمردون فى الضلال ، كقول جرير :

أيان يدعوننى الشيطان من غزلى وكن يهوننى اذ كنت شيطانا .
وقال إن المتبادر من الشياطين هم مردة الجن وهو قول الأكثرين ، وقيل المراد بهم شياطين الإنس ، وهو قول المتكلمين من المعتزلة (٥٥) وقد أوضحنا من قبل أنهم ينكرون وجود الجن .

(٥٢) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي مجلد ١ ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، روح المعاني للشيخ الألوسي ج ١ ص ٣٣٧ .

(٥٣) نفس المصدر ص ٤٣٣ .

(٥٤) روح المعاني للألوسي ج ١ ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٥٥) الجامع لاحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٣ ، روح المعاني ج ١ ص ٣٣٧ .

٤ - قوله « وما كفر سليمان » ، ما نافية ، تنفى الكفر عن سليمان عليه السلام الذى نسبته اليهود اليه فقد نسبته اليهود الى السحر ، وأنه ما استطاع السيطرة على ملكه إلا باستخدام السحر ، فبرأه الله من هذا الزعم الباطل ، وأشار أيضا الى أن السحر كفر ، ويكون المعنى « وما سحر سليمان ولا قال بالسحر » .

قال الألوسى : هذا اعتراض لتبرئة سليمان عليه السلام عما نسبته إليه اليهود وعبر سبحانه عن السحر بالكفر بطريق الكناية رعاية لمناسبة لكن الاستدراكية^(٥٦) .

٥ - ولكن الشياطين كفروا : لكن استدراكية على ما سبق أى أن سليمان ما سحر وما قال بالسحر ولا استخدمه كما يزعمون وإنما الذى فعل ذلك هم الشياطين فأثبت كفرهم بتعليم السحر وقوله تعالى « يعلمون الناس السحر » ، هى جملة حالية فى موضع نصب على الحال ، قال الألوسى : كفروا مستعمل فى معناه الحقيقى ، وجملة يعلمون حال من الضمير وقيل من الشياطين ، ورد هذا بأن لكن لاتعمل فى الحال . وأجيب بأن فيها رائحة الفعل^(٥٧) .

٦ - ما هو المراد بالملكين فى الآية الكريمة :
اختلف العلماء فى المراد بهما على أقوال :

القول الأول :

يرى بعض العلماء أن المراد بهما هما جبريل وميكائيل : وبناء على هذا تكون (ما) فى قوله تعالى (وما أنزل على الملكين) نافية للقرية التى قالها اليهود من أن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر ، وفى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ويكون كل من هاروت وماروت بدلا من الشياطين على أنهما اسمان لقبيلتين من الجن بدل بعض من كل . وممن قال بهذا القرطبى وابن جرير^(٥٨) .

(٥٦) الجامع لاحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٣ ، روح المعانى ج ١ ص ٢٢٧ ، ٢٣٨ .

(٥٧) المرجعان السابقان .

(٥٨) الجامع لاحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٤٠ ، تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

ويؤيد هذا التفسير ما رواه ابن جرير بإسناده الى الربيع بن أنس قال : وما أنزل الله عليهما السحر وأوّل القرطبي : فالملكين لم ينزلا بالسحر ولا تعلماه .

قال القرطبي : هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت الى سواء فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ودقة أفهامهم^(٥٩) .

هذا وقد ضعف هذا التفسير الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح^(٦٠) ، كما رده ابن جرير وقال إن (ما) موصولة بمعنى الذي وأطال القول في ذلك وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله الى الأرض وأذن لهما في تعليم السحر اختبارا لعباده وامتحانا بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه علي السنة الرسل كما ادعى أن هاروت وماروت مطيعان في تعليم ذلك لأنهما امتثلا ما أمرا به^(٦١) .

وقد علق الحافظ ابن كثير على ما قاله ابن جرير فقال : وهذا الذي سلكه غريب جدا وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن كما زعمه ابن حزم^(٦٢) .

القول الثاني :

ويرى بعضهم أن المراد بالملكين داود وسليمان عليهما السلام وحينئذ تكون اللام مكسورة . فقد روى ابن أبي حاتم بسنده الى الحسن بن أبي جعفر أن عبد الرحمن ابن أبيزى كان يقرأها (وما أنزل على الملكين داود وسليمان) قال أبو العالية : لم ينزل عليهما السحر ، هما علما الإيمان والكفر ، فالسحر كفر فهما ينهيان عنه أشد النهي^(٦٣) .

(٥٩) الجامع لاحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٤٠ .

(٦٠) فتح الباري بشرح صحيح البخارى ج ١٠ ص ٢٢٤ .

(٦١) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٣٧ .

(٦٢) نفس المصدر .

(٦٣) نفس المصدر .

وممن يرى هذا الرأي الاستاذ الامام محمد عبده ورشيد رضا وقالوا
بأن فيها قراءتين .

الأولى : قراءة بالفتح فى اللام وهى قراءة الجمهور ، والثانية : قراءتها
بالكسر وهى قراءة ابن عباس والحسن وأبى الأسود والضحاك . وقالوا :
وقد حمل بعضهم قراءة الفتح على قراءة الكسر .^(٦٤)

القول الثالث :

ويرى البعض : أنهما ملكان من الملائكة أنزلا لتعليم الناس السحر
ابتلاء من الله تعالى فمن تعلم وعمل به كفر ، ومن توى عمله ثبت على
الإيمان ، ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن قوم طالوت
بالنهر ، وحينئذ يكون هذا الرأي مبنيًا على قراءة الفتح^(٦٥) قال
الأوسى : المراد الجنس والملكان عطف على السحر وهما واحد إلا أنه
نزل تغاير المفهوم منزلة تغاير الذات ، وفائدة العطف هى التنصيص على
أنهم يعلمون ما هو جامع بين كونه سحرا وبين كونه منزلا على الملكين
للابتلاء من الله تعالى ، وكان السحرة فى هذا الزمان قد أظهروا أمورًا
غريبة فبعث الله الملكين لتعليم أبواب السحر حتى يميز بينه وبين المعجزة
وفى ذلك إمطة الأذى عن الطريق^(٦٦) .

وذكر البيضاوى نفس ما ذكره الأوسى وأضاف : أما ما روى أنهما
مثلا بشرين وركب الله فيهما الشهوة فتعرضا لامرأة يقال لها زهرة
فحملتهما على الشرك والمعاصى ثم صعدتا الى السماء بما تعلمت منهما ،
فهذه كلها حكايات عن اليهود لا ينبغى التعويل عليها أما (ما) فى (وما
أنزل على الملكين) فقليل إنها نافية معطوفة على ما كفر سليمان تكذيب

(٦٤) تفسير القرآن الحكيم ج ٩ ص ٤٤ .

(٦٥) روح المعانى للأوسى ج ١ ص ٣٤٠ ، مختصر تفسير الطبرى ص ١٧ ط الشروق .

(٦٦) نفسة المصدر ، تفسير النسفى ج ١ ص ٦٥ و ٦٦ ط دار إحياء الكتب العربية .

لليهود فى هذه القصة ، وهاروت وماروت عطف بيان للملكين ومن جعل
(ما) نافية أبدلها من الشياطين بدل بعض وما بينهما اعتراض (٦٧) .
أى أن قوله تعالى (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) هى جملة
الاعتراض فيكون المعنى وما كفر سليمان وما أنزل السحر على الملكين
ولكن الشياطين كفروا الخ على ما أوضحناه من قبل فى تأويل الآية .

أما الامام أبو بكر الرازى الجصاص : فقال : إن القراءتين صحيحتان ،
فعلى قراءة الفتح يكونان من الملائكة ، وعلى قراءة الكسر يكونان من غير
الملائكة وهما غير متنافيتين لانه جائز أن يكون الله أنزل الملكين فى زمن هذين
الملكين لاستيلاء السحر عليهما واغترارهما وسائر الناس بقولهما وقبوله
منهما (٦٨) .

ثم قال الرازى الجصاص : فإذا كان الملكان مأمورين بإبلاغهما
وتعريفهما وسائر الناس معنى السحر ومخاريق السحرة وكفرها جاز أن
نقول فى إحدى القراءتين وما أنزل على الملكين اللذين هما من الملائكة
بأن أنزل عليهما ذلك ، ونقول فى القراءة الأخرى وما أنزل على الملكين
من الناس لأن الملكين كانا مأمورين بإبلاغهما وتعريفهما الى أن
قال : فكيف يكون الملائكة مرسل اليهم ومنزلا عليهم ، والجواب : أن
هذا جائز وشائع لأن الله تعالى قد يرسل الملائكة بعضهم الى بعض كما
يرسلهم الى الأنبياء ، ويجعل هيتهم كهيئة بنى آدم لئلا ينفروا منهم (٦٩) .
القول الرابع :

ونكر كل من البيضاوى والإمام محمد عبده ورشيد رضا أنه قيل
إن المراد بالملكين أنهما رجلان صاحباً وقاراً وسمت فشيها بالملوك ،
وكان الناس يجلوניהما أشد الإجلال فشيها بالملوك وتلك عادة فيمن ينفرد
بالصفات المحمودة .

(٦٧) تفسير البيضاوى ص ٢١ ، ٢٢ .

(٦٨) أحكام القرآن للجصاص ج ١ ص ٥٦ .

(٦٩) أحكام القرآن للجصاص ج ١ ص ٥٦ .

قال الأستاذ الإمام : لعل الله تعالى سماهما ملكين بفتح اللام حكاية لاعتقاد الناس فيهما ويكون إطلاق لفظ الملكين عليهما مجازا كما قال بعض المفسرين (٧٠) .

وأردف الأستاذ سيد قطب رحمه الله قائلا : وأن هذين الملكين كانا هناك فتنة وابتلاء للناس لحكمة مغيبة ، وأنهما كانا يقولان لكل من يجيئ اليهما طالبا منهما أن يعلماه السحر إنما نحن فتنة فلا تكفر ... ثم قال : فإذا جاء الاختبار في صورة رجلين طيبين كالملائكة فليس هذا غريبا ولا شاذا بالقياس الى شتى الصور والابتلاءات الخارقة التي مرت بها البشرية (٧١) .

القول الخامس :

ويرى بعض العلماء منهم الضحاك أن المراد بالملكين علجان (٧٢) من أهل بابل ، وقد وجه بعض العلماء القول بالإنزال في قوله تعالى (وما أنزل على الملكين) بمعنى الخلق لا بمعنى الإحياء ، أى أنهما احتويا الشر من داخلهما وتمرسا عليه كما أن الحديد بطبعه فيه بأس شديد على ما جاء في قوله تعالى (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) (٧٣) .

والواقع : أنه قد مضى في تاريخ البشرية من الآيات والابتلاءات ما يناسب حالها في كل طور أطوارها ، فإذا جاء الاختبار عن طريق الملائكة فليس أمرا مستغربا لأن العقل لا ينكر وقوع المعصية من الملائكة ويوجد منهم خلاف ما كلفوا به ، ويخلق فيهم الشهوات اذ في قدرة الله تعالى كل موهوم ، ومن ثم كان خوف الأنبياء والأولياء والفضلاء من العلماء لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح فقد رويت عدة روايات عن الملائكة ، وأنهم اعترضوا على أولاد آدم فقال لهم الله تعالى اختاروا ملكين منكم فاختراروهما وركب فيهم الشهوة ونزلا الى الأرض فلم يمر وقت حتى فتنا بامرأة تسمى الزهرة بالعربية وأنهما راوداها عن نفسها فأبت عليهما إلا أن يكفرا ويشربا الخمر ويقتلا

(٧٠) تفسير البيضاوى ص ٢١ و ٢٢ ، وتفسير القرآن الحكيم ج ١ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(٧١) في ظلال القرآن ج ١ ص ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ .

(٧٢) العليج : الرجل الشديد الغليظ .

(٧٣) سورة الحديد الآية : ٢٥ وانظر تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٣٧ .

النفس ففعلا ووقعا عليها ، وعلمت منهما الاسم الذى يصعدان به الى السماء فصعدت فمسخت كوكبا وهو المعروف بالزهرة ، ثم خير الملكين بين عذاب الدنيا وبين عذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فهما يعذبان ببابل فى سرب من الأرض ، وقد ذكر فى هذا أيضا عن عبد الله بن عمر فيما يروى عن عطاء أنه كان إذا رأى الزهرة وسهلا سبهما وشتمهما ويقول : أن سهيلا كان عشارا باليمن يظلم الناس وأن الزهرة كانت صاحبة هاروت وماروت .. الى غير ذلك من القصص التى أشرنا إليها فيما مضى (٧٤) .

وهذا كله كلام ضعيف وبعيد جدا كما يبعد على ابن عمر وغيره ما نسب اليه ولا يصح منه شيء للأسباب التالية :

الأول : إن هذه كلها أساطير ولها روايات كثيرة لكن مما ينبغى أن يعلمه القارئ أنه ليست هناك رواية واحدة محققة يوثق بها حسبما استقرأناه وتتبعناه .

الثانى : إن هذه الأساطير تدفعها الأصول التى عليها الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه وسفراؤه إلى رسله فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

الثالث : إن الله سبحانه خلق الكواكب قبل خلق آدم عليه السلام ، وكان خلقها مع خلق السماء ، وهن السبع الكواكب الدوارة : زحل والمشتري وعطارد والزهرة والشمس والقمر وغيرها فالملائكة عباد مكرمون نزههم الله تعالى وكرمهم نعوذ بالله تعالى أن تنسب اليهم مثل هذه الأشياء التى لم يرد بها الكتاب أو السنة (٧٥) .

٧ - ما هو المراد ببابل وأين توجد :

يرى القرطبي - أن بابل هى بلد فى العراق وما والاها ، وهى اسم لا ينصرف للتأنيث والتعريف والعجمة ، ونقل عن ابن مسعود قوله لأهل الكوفة : أنتم بين الحيرة وبابل .

(٧٤) الجامع لاحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٤٠ ، ٤٤١ .

(٧٥) راجع فيما كتبناه : الجامع لاحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٤٢ ، وفى ظلال القرآن ج ١ ص ٩٧ .

وقال قتاده هي من نصيبين إلى رأس العين ، وقال قوم هي بلد بالمغرب لكنه ضعيف وقال آخرون هي جبل نهاوند^(٧٦) .

سبب التسمية : سميت بابل لتبليبل الألسنة بها حين سقط صرح نمرود وقيل إنه لما أراد الله أن يخالف بين ألسنة بني آدم بعث ريحا فحشرتهم من الآفاق إلى بابل فبليبل الله ألسنتهم بها ثم فرقتهم تلك الرياح في البلاد . وقال أبو عمر بن عبد البر : وأحسن ما قيل فيه ما رواه مأود بن أبي هند عن علياء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام لما هبط إلى أسفل الجودي ابنتى قرية وسماها ثمانين فأصبح ذات يوم وقد تبليبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها اللسان العربى وكان لا يفهم بعضهم عن بعض^(٧٧) .

والألوسى على أنها بلد فى سواد الكوفة على ما قال ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما وقيل بابل العراق وقيل غير ذلك ، أما الباء الأولى وهى حرف الجر فهى بمعنى (فى) والتقدير وما أنزل على الملكين فى بابل ، كذلك يراه الشيخ محمد رشيد رضا من أنها هى بابل العراق .

وكان أهلها قوما صابئين يعبدون الكواكب السبعة-ويسمونها آلهة ويعتقدون أن حوادث الدنيا كلها من أفعالها ، وهم معطلة لايعترفون بالصانع الواحد المبدع للكواكب وجميع أجرام العالم وهم الذين بعث إليهم إبراهيم عليه السلام الذى قام عليهم بالحجة من حيث لم يمكنهم دفعه ثم ألقوه فى النار فجعلها الله بردا وسلاما عليه ثم أمره بالهجرة الى الشام وكان أهل بابل وإقليم العراق والشام ومصر والروم على هذه المقالة الى أيام بيوارسب الذى تسميه العرب (الضحاك) ثم صارت مملكة إقليم بابل للفرس فانتقل بعض ملوكهم اليها فى بعض الأزمان فاستوطنوها ولم يكونوا عبدة أوثان بل كانوا

(٧٦) الجامع لاحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٤٢ و ٤٤٣ .

(٧٧) الجامع لاحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٤٢ و ٤٤٣ .

مقرين بالله وحده، إلا أنهم مع ذلك يعظمون العناصر الأربعة : الماء والنار والأرض والهواء ، لما فيها من منافع الخلق^(٧٨) .

قال ابن منظور فى اللسان . بابل موضع بالعراق ، وقيل هو موضع ينسب اليه السحر والخمر ، وفى حديث على كرم الله وجهه قال : إن حبى نهانى أن أصلى فى أرض بابل فإنها ملعونة ، قال الخطابى : فى إسناء هذا الحديث مقال ولا أعلم أحداً من العلماء قد حرم الصلاة فى أرض بابل ، وإن ثبت الحديث يحتمل أن يكون نهاه عن الإقامة فيها واتخاذهاوطنا ، أو لعل النهى له خاصة ، ولعل ذلك إنذار منه بما لقى من المحنة بالكوفة وهى من أرض بابل^(٧٩) .

وقال القاسمى : إن بابل : مدينة بالعراق على نهر الفرات^(٨٠) .

وفى بعض المعاجم وجدنا أيضا أن : بابل هى محافظة فى العراق قاعدتها الحلة ولها خمسة أفضية : الحلة ، الهاشمية ، المسيب ، المحاويل ، الهندية ، وهى مدينة تقع فى أرض شنعار ، وفيها بنى أولاد نوح برجهم فيبلل الله لغتهم ، ويقال للبابلى : ساحر وعيون بابلية أى ساحرة^(٨١) .

هذا ، وقد علمنا بالتحرى لدى من شاهدوا بابل أنها مدينة ليست كبيرة تساوى عندنا بمصر مدينة من المدن الصغرى كالمراكز ويطلق عليها هناك محافظة بابل وعاصمتها بغداد عاصمة الجمهورية العراقية الآن . وكانت هذه المدينة فيما سبق تشتهر بعمل السحر وتعليمه ، كما كانت مركزا لعبدة الكواكب فى تلك الأحقاب ، وقد عاشت حيناً من الزمن تحت حكم النمرود ، وجرت على أرضها .

(٧٨) راجع فيما كتبناه تفسير القرآن الحكيم ج ٩ ص ٤٤ وروح المعانى ج ١ ص ٣٤٢ .

(٧٩) راجع : لسان العرب لابن منظور مادة : ببل ط دار المعارف .

(٨٠) تفسير القاسمى المسمى محاسن التأويل لعلامة الشام محمد جمال الدين القاسمى ج ٢

ص ٢١٠ ط دار احياء الكتب العربية عام ١٩٥٧ .

(٨١) راجع المنجد فى اللغة والاعلام باب الباء .

معجزة الله الباهرة عندما ألقى إبراهيم عليه السلام فى النار وخرج منها سليما معافى بأمر الله تعالى ، ثم صارت فيما بعد إقليما للفرس الذين اتخذوها موطناً لهم .

٨ - ما المراد بهاروت وماروت :

يرى القرطبى أن المراد بهاروت وماروت أنهما بدل من الشياطين فى قول الله تعالى (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) ويجمع هواريت ومواريت مثل طواغيت^(٨٢) .

وقال الزجاج : المراد بهما أنهما ملكان . وذكر أنه روى عن على رضى الله عنه أنه قال أى والذى أنزل على الملكين ، وأن الملكين يعلمان الناس تعليم إنذار من السحر لا تعليم دعاء اليه . قال الزجاج وهذا القول الذى عليه أكثر أهل اللغة والنظر ، ومعناه أنهما يعلمان الناس على النهى فيقولان لهم : لاتفعلا كذا ولا تحتالوا بكذا فالذى أنزل عليهما هو النهى وعليه ابن الاعرابى وابن الانبارى^(٨٣) .

وذكر الحافظ ابن كثير قولاً عن ابن جرير قريباً لما قاله الزجاج حيث قال : إن هاروت وماروت كانا ملكين من الملائكة فأهبطا ليحكم بين الناس ، وقيل أنهما ملكان كانا قد طعنا على أهل الأرض فى أحكامهم فجعلهم الله مكان أهل الأرض فارتكبوا المعاصى وأورد ابن كثير فى ذلك عدة روايات أشربنا إليها من قبل وقلنا : إننا لم نجد رواية واحدة محققة يوثق بها من هذه الروايات^(٨٤) .

ويرى الألوسى أن هاروت وماروت عطف بيان للملكين وهما اسمان أعجميان منعا من الصرف للعلمية والعجمة ، وقيل هما اسمان عريبيان من الهربت والمرت بمعنى الكسر وكان اسمهما قبل عزا

(٨٢) الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، روح المعانى ج ١ ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٨٣) نفس المصدر ص ٤٤٣ و ٤٤٤ .

(٨٤) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٣٧ و ١٤٠ و ١٤١ .

وعزايا ، فلما قارفا الذنب سميا بذلك ، وقيل إنهما عبارتان عن قبيلتين من الشياطين لم يكن غيرهما بهذه الصفة^(٨٥) وعلى هذا القول الأخير يكونان بدلا من الشياطين بدل بعض من كل .

هذا ، وقد أورد الحافظ ابن حجر العسقلاني أقوالا فى المراد بهما : - .

منها : أنهما بدل من الملكين أو عطف بيان وجعل ما موصولة فى قوله تعالى (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) وقال هذا ما عليه الجمهور ومنها : أنهما بدل من الناس . واستبعده .

ومنها : أنهما من الشياطين على أنهما اسمان لقبيلتين من الجن وضعفه^(٨٦) .

المعنى الاجمالى للآية

تفيد الآية أن أحبار اليهود وعلماءهم نبذوا كتاب الله الذى أنزل على موسى عليه السلام وهو التوراة كأنهم لا يعلمون ، كذلك الحال نبذت ذريتهم ما أنزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وجعلوه وراء ظهورهم واتبعوا طرق السحر والشعوذة التى كانت تنقول بها الشياطين وتتحدث فى عهد سليمان عليه السلام وملكه حيث قالوا حينئذ لقومهم إنما ملككم سليمان بهذا السحر ، وأنه كان قد دفنه تحت كرسيه - حسب زعمهم - وهو فى الواقع من عمل الشياطين ، فلما مات استخرجته الشياطين ونسبوه الى سليمان فأنزل الله براءته مما رموه به وأشار الى إن السحر كفر فقال تعالى (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) الا إنهم استمروا فى غيهم وضلالهم ووسوسوا إلى الإنس به حتى فشا أمره بين الناس ، كذلك الحال فعله رؤساء اليهود حينما اتبعوا السحر والشعوذة من قبل ، واتبعوا ما أنزل على الرجلين المتظاهرين

(٨٥) روح المعانى ج ١ ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٨٦) فتح البارى شرح صحيح البخارى ج ١٠ ص ٢٢٤ .

بالصلاح هاروت وماروت بمملكة بابل ، وما يعلمان السحر لأحد من الناس إلا قالوا له لاتفعله ، إلا فى الخير ونحن فتنة وهذا منهم مكر وخداع وإمعان فى التعمية على الناس ، وقد كثر السحر فى ذلك الزمان وأظهر السحرة أمورا غريبة لدرجة أن هذين الرجلين كانا إذا علما أحدا من الناس قالوا له إنما هذا امتحان من الله وابتلاء فلا تكفر بسببه واتق الله فلا تستعمله فى الإضرار .

فالسحرة كل همهم أكل أموال الناس بالباطل والتفيس عما فى صدورهم من حقد أسود ، وهؤلاء لاشك أنهم قد خسروا بذلك الدنيا والآخرة لأنهم فى الدنيا عبارة عن جراثيم مسمومة وهم فى موقف الذل والاحتقار بين الناس ، وفى الآخرة ليس لهم عند الله حسنة يلقون بها ربهم بل يلقونه بسوء أعمالهم الشريرة ، فمالهم فيها نصيب لأنهم باعوا أنفسهم للشيطان ببيعة زهيدة لقاء أعمال كلها غاية فى الشر والانحطاط .

ولو أن هؤلاء عقلوا الحقيقة وأدركوا ما يؤولون إليه وآمنوا بالله تعالى الذى هو سائل كل إنسان عما استرعاه وخافوا عذابه لأثابهم الله على عملهم مثوبة هى أكبر وأعظم مما شغلوا به أنفسهم فى الدنيا من أعمال كل مسالكها فى يد الشيطان اللعين التى لا ينجو منها من دخل فيها غالبا ، وهى لاتعود الا بالخيبة والندامة فى الدنيا والخسران العظيم يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

واعلم أيها القارئ الكريم : أنه قد روى فى مسألة الملكين قصصا فى غاية الغرابة فهى تحط من شأن الملائكة كحكاية الزهرة مع الملكين ، وحكاية المراه التى جاءت من دومة الجندل الى أم المؤمنين عائشة تسألها عن أمر السحر الذى تعلمته وركبت بسببه كلبين أسودين حتى وصلت بابل ورأت رجلين معلقين فقالا لها بولى فى هذا التنور ثم رأت فارسا قد خرج منها فقيل لها هذا إيمانك قد خرج منك الخ تلك القصص التى بلغت طرفها نيفا وعشرين طريقا ورواها غير واحد كما ذكره الأوسى إلا أنه بالاستقراء لم نجد فيها رواية واحدة محقة ويوثق بها فضلا عن أنها تخالف الأصول فى الملائكة بل تخالف العقل المحض فقد أنكرها القاضى عياض والرازى وغيرهما وقال الرازى إن مثل هذه الروايات روايات

فاسدة ومربودة ، وقال الشهاب العراقي : إن من اعتقد في هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما مع الزهرة فهو كافر بالله العظيم .

والحق : أنه لم يرد فيها شيء لا مقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي ونظائرها مما يجب ألا يعول عليه ، فإن الإقدام على تكذيبها أولى من مخالفة الأصول واتهام العقل في قبولها وأمثالها من المفتريات والأراجيف ، ويا ليت كتب التفسير تخلو من مثل هذا حتى يسلم لنا ديننا من هذه الشوائب وأمثالها^(٨٧) .

أما المراد بالإذن في قوله تعالى (وما هم بضارين به من أحد إلاّ بأذن الله) الإذن التسخيري بمعنى أن الله يخلق الأشياء كلها ومنها الأشياء التي تأتي نتيجة عمل الساحر للسحر الحقيقي ، فالإذن ضربان :



الأول : الإذن لقاصد الفعل في مباشرته نحو : أذن الله لك أن تصل رحمك ، ومنه قوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) وهذا معناه الأمر .

الثاني : الإذن التسخيري : ويكون في تسخير الأشياء لتتفاعل مع الفعل كتسخير السم في قتل من يتناوله ، كتسخير النار إذا أوقدت للإحراق ، ومن ثم فإن إذن الله تعالى في وقوع التسخير والتأثير هو من قبيل هذا الضرب الثاني من معنى الإذن ، فليس هذا من قبيل الأمر بل هو قبيل القضاء .

وعلى هذا يقال : الأشياء كلها بإذن الله وقضائه ولا يقال الأشياء كلها بأمره ورضاه وإلا فإن أشياء تقع في الكون مغضبة

(٨٧) راجع الجامع لاحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٤١ ، روح المعاني للكلوسي ج ١ ص ٣٤١ ، الزواجر لابن حجر ج ٢ ص ٩٩ ، في ظلال القرآن ج ١ ص ٩٦ ، ٩٧ طدار الشروق - المعنى لابن قدامة ج ٨ ص ١٥١ .

لله تعالى ونهى عنها وحث على اجتنابها والله تعالى لا يأمر بالفحشاء والقول بغير هذا قول على الله تعالى بغير علم وعلى قائله أن يتحمل عواقب جهله بالله ورسوله ﷺ وشريعته الغراء^(٨٨) .

رأينا في المراد بالملكين هاروت وماروت

اتضح لك من خلال ما سردناه من أقوال للعلماء في المراد بالملكين في الآية ، وقد اختلفوا فيهما اختلافات كثيرة وقالوا فيهما أقوالا عديدة ، فمنهم من ذهب فيهما مذهب الإخباريين ينقل الغث والسمين ، ومنهم من وقف مع ظاهرها البحث وحاول الحيلة لما اعترضه ومنهم من ادعى فيها التقديم والتأخير ورد آخرها على أولها بما جعلها أشبه بالأغاز والمعميات التي يتنزه عنها أبلغ كلام وهو كلام الله تعالى .

والذي نراه : أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى في بلاد بابل وكانا يعلمان السحر حتى بلغ حسن اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء وأن ما يعلمانه للناس هو وحى من الله تعالى ، كما بلغ مكر هذين الرجلين ومحافظتهما على اعتقاد الناس الحسن فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما السحر : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، أى إنما نحن نبلك وتختبرك أتشكر أم تكفر وننصح لك ألا تكفر ، يقولان ذلك افتراء وإمعاناً في التعمية على الناس ليوهموهم أن علومهما إلهية وأن صناعتهما روحانية وأنهما لا يقصدان إلا الخير كما يفعل ذلك دجاجة هذا الزمان ومشعوذوه ليأكلوا أموال الناس بالباطل .

لذلك جاء القرآن الكريم مكذبا لليهود فيما افتروه وبرأ سليمان عليه السلام وكذب دعواهم على أن السحر منزل من السماء وأنه مذموم وأن السحرة أناس لا خلاق لهم ومآلهم العذاب الأليم . وعلى هذا فإن (ما) في قوله تعالى (وما أنزل على الملكين) هى ما النافية على أصح الأقوال . أما لفظ الملكين هنا وارد حسب العرف الجارى في ذلك الوقت كما سبق أن أوردناه حسب العرف الجارى في ذلك الوقت كما سبق أن

(٨٨) راجع فيما كتبناه : تفسير القاسمى المسمى محاسن التأويل للقاسمى ج ٢ ص ٢١٤ .

أوردناه فى الفصل الأول من كتابنا هذا من أن نكر آلهة الخير والشر كانت دائما فى كتابات المؤلفين والمؤرخين عن تاريخ الهند واليونان ومصر وغيرها وهى حكايات حال حكاها القرآن كما ورد على لسان الناس فى تلك العصور .

ومن ثم يتضح أنه بناء على اعتبار أن (ما) من قوله تعالى (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) نافية وهو أصح الأقوال فيها فإن هاروت وماروت بدل من الملكين (أى على حكاية تسمية الناس لهما فى ذلك العصر بهذا الاسم) وهما الرجلان الماكران اللذان تظاهرا بالصلاح وهما فى الواقع ليسا ملكين ولا حتى صالحين .

وعلى هذا فإن من قال بأن الملكين نزلا بالسحر أو نزل السحر عليهما اختبارا وفنة فقد أخطأ لما تقدم مفصلا أن المراد بالملكين هما ذاكم الرجلان اللذان تظاهرا بالصلاح وأخفيا الكفر والخبث وأن هاروت وماروت بدل منهما .

ومما يدل على بطلان القصة ونزول السحر عليهما أيضا وجوه :

الوجه الاول : أنهم ذكروا فى القصة أن الله تعالى قال لهما لو ابتليتما بما ابتليت به بنى ادم لعصيتما نى ، فقالا : لو فعلت ذلك بنا يارب لما عصيناك وهذا منهم تكذيب لله تعالى فضلا عن التجهيل له وذلك كفر صريح لاشك فيه . ولم يقل بهذا أحد .

الوجه الثانى : يقولون إنهما خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وذلك قول فاسد ، بل كان الأولى أن يخيرا بين التوبة وبين العذاب - وذلك هو منهج الله تعالى فى شرائعه - ولقد خير الله بينهما من أشرك به طول عمره ، وبالغ فى إيذاء أنبيائه ، فالقول بهذا قول يخالف الأصول التى عليها شرائع الله .

الوجه الثالث : إنه من العجيب حقا قولهم فى تلك القصة : أنهما يعلمان السحر فى حال كونهما معذبين ويدعوان اليه وهما يعاقبان فكيف ذلك ؟

الوجه الرابع : أن السحر لو كان نازلا عليهما لكان منزله هو الله ، وذلك غير جائز لأن السحر كفر وعبث لا يليق بالله تعالى إنزال ذلك فهو الكمال المطلق .

الوجه الخامس : أن قوله تعالى (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) يدل على أن تعليم السحر كفر ، فلو ثبت فى الملائكة أنهم يعلمون الناس السحر للزمهم الكفر وذلك باطل . لأنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

الوجه السادس : إنه من المعروف شرعا وعقلا وعادة أن الأنبياء عليهم السلام لا يجوز فيهم أن يبعثوا لتعليم السحر ، فإنه من الأولى ألا يجوز ذلك فى الملائكة فهم أمناء الله على وحيه وسفراؤه لأنبيائه .

الوجه السابع : أن السحر بطبيعته وأهدافه لا ينضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة فكيف ينضاف إلى الله تعالى ما ينهى هو عنه ؟ ويتوعد عليه بالعقاب ؟ فضلا عن أن يرسل به رسولا أو ملكا ، وهل السحر إلا الباطل والخبث والدناءة والتمويهات والتخيلات ؟

الوجه الثامن : لقد جرت عادة الله تعالى بإبطال السحر كما جاء فى النص الكريم فى قصة موسى عليه السلام قوله تعالى (ما جئتم به السحر إن الله سيبيطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون^(٨٩)) فكيف يتفق هذا مع إنزاله السحر ، على ما يسمى بالملكين ؟

الوجه التاسع : أن القرآن نفسه أنكر نزول أى ملك إلى الأرض ليعلم الناس شيئا من عند الله سوى الوحي إلى الأنبياء ، فإذا شئت فاقرا

(٨٩) سورة يونس الآيتان ٨١ و ٨٢ .

قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)^(٩٠) .

وقال أيضا منكرا على من طلب إنزال الملك (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون)^(٩١) .

فكانت هذه النصوص وغيرها واضحة الدلالة على أن الله تعالى لم يرسل الملك إلا للإنس بشرائعه المعروفة وكان ذلك على الأنبياء وهم من الإنس لتعليم بنى نوعهم .

ونعود الآن إلى سرد أدلة الفريق الأول وهم جمهور أهل السنة على ما ذهبوا إليه من إثبات حقيقة للسحر^(٩٢) .

(٩٠) سورة الانبياء الآية (٢١) .

(٩١) سورة الأنعام الآية : ٦ .

(٩٢) ونود أن نؤكد للقارئ هنا على عدة أمور :

الأمر الأول : ما كان عليه اليهود ولا يزالون من الخيث وفساد النية والاحتراف فى السعى بهدف الاضرار بالناس فالسحر لم يعرف الا عندهم وهم الذين نبؤوا كتاب الله وسلكوا طريق السحر والغواية .

الأمر الثانى : تنفيذ الآية أن السحر يستعان فى تعلمه وتأثيره بالشياطين وقد اشتهر السحرة بهذا الاتصال وأخبر الله تعالى عن ذلك فقال (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقا) الآية (٦) من سورة الجن ، وأن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء فيزينون على كل كلمة كذبا كثيرا حتى أطلع الله ذلك على سليمان فكان يأخذ كل هذا ويدفنه تحت كرسيه فلما مات أخرجوها وقالوا : هذا سحر سليمان وانما ملك ما ملك إلا بالسحر فبرأه الله تعالى وأشار إلى أن السحر كفر فى قوله (وما كفر سليمان الخ) .

الأمر الثالث : أن الله تعالى عبر عنه بأنه كفر تقبيحا لشأنه ، ونفر منه حتى لا يجروا عليه الناس تعلما وتعلما ، فضلا عن أنه من الكبائر والموبقات .

الأمر الرابع : أن تعليم السحر للناس من جانب الملكين أو الرجلين على الخلاف فيه إنما هو من باب الابتلاء أو العلم بالشئىء لا للعمل به وانما للتخلص من ضرره أو الاحتراز منه على ما ذكره الألوسى .

الأمر الخامس : ثبت أن للسحر حقيقة ثابتة مشاهدة لأمرية فيها وهو ما ذهب جمهور أهل السنة وللتأكيد على أنه حقيقة واقعة ضرب الله لنا مثلا على بعض تأثيراته فنكر أنه مما يفرق بين المرء وزوجه .

الدليل الثانى

قوله تعالى (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد إذا حسد) (٩٣) .

وجه الاستدلال بهذه السورة أن جمهور المفسرين وعامة العلماء على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم اليهودى للنبي ﷺ حينما أمره الله تعالى أن يستعيز بالمعوذتين من شر السحر والسحرة ، ومن شر كل مخوف سواء كان خافيا أو ظاهرا مجهولا أو معلوما . فلو لم يكن للسحر حقيقة ثابتة ما أمرنا الله أن نستعيز منه .

فقد ذكر القرطبى أنه روى أن نساء سحرن النبي ﷺ فى إحدى عشرة عقدة فأنزل الله تعالى المعوذتين وهما إحدى عشرة آية ، قال : وذكر ابن زيد أن السواحر المذكورات من اليهود ، وقيل هن بنات لبيد ابن الأعصم اليهودى المشهور ، وقد أورد القرطبى الحديث المروى فى الصحيحين بشأن السحر الذى حدث منهن لرسول الله ﷺ (٩٤) .

ونكر مثل هذا الكلام العلامة البيضاوى الا أنه ذكر أن رجلا يهوديا هو الذى قام بعمل السحر له ﷺ وعقده إحدى عشرة عقدة فى وثنٍ ونسة فى بئر فمرض عليه السلام فنزلت المعوذتان وأخبره جبريل بموضع السحر (٩٥) .

واتفق ما ذكره الألوسى فى تفسيره مع سابقه فيما ذهبوا إليه ، إلا أن الألوسى وجد رواية تضيف واقعة السحر الى لبيد بن الأعصم وبناته معا وقال إن سبب نزول المعوذتين سحر اليهود له عليه الصلاة والسلام (٩٦) وعلى ذلك الحافظ ابن كثير وغيره فى تفسيره (٩٧) .

(٩٣) سورة الفلق والنفث هو : النفخ وهو أقل من التفل أى بلا ريق ، وفى الحديث أنه ﷺ قرأ المعوذتين على نفسه ونفث - ومنه قوله (ومن شر النفاثات فى العقد ومن السواحر وهن السواحر والنوافث السواحر حين ينفثن فى العقد بلا ريق - راجع لسان العرب مادة نفث .

(٩٤) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٨ ص ٧٣٤٣ ، ٧٣٤٩ .

(٩٥) تفسير البيضاوى ص ٨١٥ .

(٩٦) روح المعانى ج ٣٠ ص ٣٥٧ ، ٣٦٢ .

(٩٧) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٥٧٣ ، ٥٧٤ وتفسير النسفى ج ٤ ص ٣٦٥ .

ومن ثم فقد ثبت لنا هنا ومما سيأتى إن شاء الله أن السحر حقيقة وأن له تأثيراً نتيجة عمل السواحر النفاثات^(٩٨) اللاتي عقدن عقداً فى خيوط ونفثن عليها ... الى غير ذلك من أعمال السحرة التى لم يغفلها القرآن ولا السنة اللذان وجها الأمة الى مواجهتهم بالاستعاذة .

(٩٨) اختلف المفسرون فى المراد بالنفاثات : يرى القرطبي والنسفي وابن كثير والجصاص وسيد قطب أنها النساء السواحر اللاتي يمقدن عقداً فى خيوط وينفثن عليها ويرقن ، ويقولون جميعاً الا الجصاص وسيد قطب بأن هؤلاء النسوة هن اللاتي قمن بسحر النبي ﷺ ، اما الجصاص وسيد قطب فهما من جملة المنكرين لهذه الواقعة بل إن الجصاص ينكر السحر جملة مع أنه تكلم فيه مفصلاً أحكامه . راجع : الجامع لأحكام القرآن مجلد ٨ ص ٧٣٤٧ ، ٧٣٤٩ وتفسير النسفى ح ٤ ص ٣٦٥ وتفسير القرآن العظيم ح ٤ ص ٥٧٣ ، وأحكام القرآن للجصاص ح ٣ ص ٤٧٨ ، فى ظلال القرآن ح ٣٠ ص ٤٠٠٦ ، ٤٠٠٧ .

ويرى البيضاوى والأتوسى أن المراد بالنفاثات : النفوس السواحر فالنفاثات صفة لموصوف محذوف واعتبر ذلك لمكان التأنيث مع أن تأثير السحر إنما هو من جهة النفوس الخبيثة والارواح الشريرة وسلطانها منها ، والأولى فى تفسير النفاثات هى النفوس ليشمل الرجال وليطابق سبب نزول المعوذتين فالذى سحره عليه الصلاة والسلام كان رجلاً على المشهور وقيل أعانه بعض النساء ، أما كون النفاثات جمع مؤنث وجاء بها القرآن هكذا فلاّن مثل ذلك من عمل النساء ، ويكيدهن فغلب المؤنث على المنكر هنا وهو جائز .

أما مجيء (النفاثات) بالتعريف خاصة دون شقيقاتها فى السورة فقد أرجع البيضاوى منيب ذلك الى أنها مخصصة لما روى عن واقعة سحره ﷺ ولأن كل نفثة شريرة بخلاف غاسق قليس كل غاسق فيه شر ، والغاسق هو الليل إذا اعتكر ظلامه ، والوقوب : هو دخول الظلمة والكسوف والاسوداد ، ويرى الالوسى أن تعريف النفاثات : إما للمعهد أو اللابذ ان يشمل الشر لجميع أفرادهن وتمحضهن فيه وتخصيصه بالذكر لما روى من واقعة السحر المشار إليها .

(راجع فيما كتبناه : تفسير البيضاوى ص ٨١٥ ، روح المعانى ح ٣٠ ص ٣٦١ ، النسفى ح ٤ ص ٣٦٥ .

وفى قوله تعالى (ومن شر النفاثات) قراءات : فقرأ الجمهور النفاثات بالنون والفاء المفتوحتين المشددتين ، وقرأ الحسن : النفاثات بضم النون ، وفى قراءة أخرى أيضاً عن الحسن وأبى الربيع : النفاثات بغير الف كالحذرات .

هذا ، وأحب أن أبين للقارى ، ما قيل فى النفث قبل أن أتترك المجال : اختلف العلماء فيه عند الرقى على فريقين : فريق منعه ، وفريق أجازة ، فمن المانعين : عكرمة وإبراهيم النخعي والضحاك ومن معهم من العلماء .

والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق إشعار بأن شر هؤلاء أشد ومن ثم فإن السواحر الساعيات بالأذى ، وهن اللاتي يعقدن في نحو خيط أو منديل أو أى أثر من آثار الأشخاص وينفثن عليه هو تقليد من تقاليد السحر وليس كله وتلك طبيعة السحر الغامضة التي ينبغي أن يسلم بها كل عاقل ، وهو بهذه الطبيعة مؤثر وشر يستعاذ منه بالله تعالى ويلجأ منه الى حماه سبحانه .

وهنا قد يسأل سائل : كيف أن سورة الفلق مكية أو حتى مختلف فيها بين مكيتها ومدنيتها ويكون سبب نزولها ما وقع من سحر للنبي ﷺ في المدينة ؟

ويجاب عن ذلك عجالة : أن سورة الفلق ليست مكية وإنما هي من السور المختلف فيها بين المكي والمدني والأرجح أنها مدنية كما جاء في الصحاح ، قال الألوسى ولا يلتفت لمن قال بمكيتها ، وحتى لو سلمنا بذلك فلا يلزم منه أنها لا تكون علاجاً للسحر ومؤثراته وسيأتى لذلك مزيد إيضاح عند ردنا على بعض المعاصرين قريباً إن شاء الله .

الدليل الثالث

أخرج البخارى بسنده الى أبى الغيث عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال اجتنبوا الموبقات الشرك بالله والسحر^(٩٩) .

هكذا أورده لبخارى مختصراً هنا ، ولم يذكر بقية الموبقات واقتصر على الشرك والسحر لتأكيد حقيقة السحر من جهة ، ومن جهة أخرى أن الاثنيتين الشرك والسحر أحق بالاجتناب .

= ومن المجيزين : ابن جريج وعطاء ومحمد بن سيرين ومحمد بن حاطب ومحمد بن الأشعث وغيرهم وهذا الأخير هو الأرجح الثابت بالسنة حيث روت عائشة أن النبي ﷺ كان ينفث في الرقية . رواه الأئمة . واعلم أنه كان يقال للمعوثين (المقشقتان) أى اللتان تبرئان من النفاق وكان رسول الله ﷺ يستعيز بهما من كل أمر مخيف وشر مستطير (راجع صحيح البخارى ج ١٠ ص ٢٠٨) .

(٩٩) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج ١٠ ص ٢٣٢ - كتاب الطب - باب السحر .

إلا أن الإمام البخارى ساق الحديث بتمامه مبينا عدد الموبقات فى حديث آخر ، فقد أخرج بسنده أيضا الى أبى الغيث عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات (١٠٠) .

ووجه دلالة الحديث أنه ﷺ قد عد السحر ونكره من جملة الموبقات (١٠١) بل إنه جاء فى المرتبة الثانية بعد الشرك بالله ، ولعل هذا الترتيب مقصود منه ﷺ فهو الذى لا ينطق عن الهوى ، والأمر باجتناب الشئىء لا يكون إلا على شئىء موجود وله حقيقة وإلا كان عبثا . وهو أمر للوجوب فدل ذلك على أن هناك أمرا وهو الرسول ومأمورا وهم الأمة ومأمورا فيه وهن الموبقات . فلو لم يكن للسحر حقيقة ثابتة ما أثبتته الرسول ﷺ ولا عده من جملة الأشياء المنهى عنها وبالتالى لم يكن هناك مأمورا بتركه تركا جازما .

الدليل الرابع

أخرج البخارى بسنده الى عيسى بن يونس عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت سحر رسول الله ﷺ رجل من بنى زريق يقال له ليبيد ابن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه فعل الشئىء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - وهو عندى لكنه دعا ودعا ثم قال : يا عائشة أشعرت أن الله أفئتنى فيما استقيته فيه ، أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل ؟ قال مطبوب (١٠٢)

(١٠٠) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج ٥ ص ٣٩٣ - كتاب الوصايا - باب النساء .

(١٠١) الموبقة : المهلكة وجمعها موبقات أى المهلكات للانسان .

(١٠٢) المطبوب : أى المسحور ، يقال طب الرجل أى سحر ، ومنه : طيبه أى عالجه ، فيقال هنا

للسحر طب وللمسحور مطبوب . راجع مادة طب فى المعاجم .

قال من طيه ؟ قال لبيد بن الأعصم قال فى أى شىء ؟ قال فى مشط ومشاطة^(١٠٣) وجف طلع نخلة نكر^(١٠٤) قال وأين هو ؟ قال فى بئر نروان^(١٠٥) فأتاها رسول الله ﷺ فى ناس من أصحابه ، فجاء فقال يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء^(١٠٦) وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين^(١٠٧) قلت يا رسول الله أفلا استخرجته قال عافانى الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شرا فأمر بها فدفنت^(١٠٨) .

ولهذا الحديث عدة روايات نذكر منها روايتين أخريين لما فيهما من فائدة :

إحداهما : أخرج البخارى بسنده إلى ابن عيينة يقول : أول من حدثنا به ابن جريج يقول حدثنى آل عروة عن عروة فسألت هشاما عنه فحدثنا عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قال : كان رسول الله ﷺ سحر ، حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتين ، قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا فقال يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ أتانى رجلان ، فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال الذى عند رأسى للآخر ما بال الرجل قال مطبوب ، قال ومن طيه ؟ قال لبيد بن الأعصم رجل من بنى زريق حليف ليهود كان منافقا ، قال وفيه ؟ قال فى مشط ومشاطة ، قال وأين ؟

(١٠٣) المشط : هو آلة تسريح الشعر المعروفة والمشاطة بضم الميم : وهو ما يسقط من الشعر عند مشطه ويقال أيضا مشافة بالقاف والمعنى فيهما واحد .

(١٠٤) جف طلع نخلة نكر : قطعة من جذوع النخل تكون من الغشاء الذى يكون على الطلع .

(١٠٥) بئر نروان : أو بئر روى أو بئر روان على خلاف فى التسمية : وهى موضع فى بستان بنى زريق بالمدينة المنورة على ساكنها افضل الصلاة والسلام ومن معه من خيار المسلمين .

(١٠٦) نقاعة الحناء بضم النون ، والحناء معروف . والمعنى : كأن ماء البئر التى كان فيها السحر أحمر اللون كلون الماء الذى ينقع فيه الحناء .

(١٠٧) رؤوس الشياطين : لفظ لا واقع له فى عالم الحس . والمعنى أنه شبه طلوعها فى قبحة برؤوس الشياطين وهذا التشبيه وقع فى كتاب الله تعالى عند تشبيهه لطلع شجرة الزقوم - راجع الآيات ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ و ٦٥ من سورة الصافات .

(١٠٨) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ح ١٠ ص ٢٢١ و ٢٢٢ - كتاب الطب - باب السحر .

قال في جف طلعة نكر تحت راعوفة في بئر ذروان ، قالت
فأتى النبي صلى الله عليه وسلم البئر حتى استخرجه فقال هذه
البئر التي أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن نخلها رؤوس
الشياطين ، قال فاستخرج ، قالت فقلت أفلا - أى
تنشرت ؟ (١٠٩) فقال أما والله فقد شفاني وأكره أن أثير على
أحد من الناس شرا (١١٠) .

ثانيتها : ما أخرجه البخارى بسنده عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه
« عن عائشة قالت : سحر النبي ﷺ حتى إذا كان ذات يوم وهو
عندى دعا الله ودعاه ثم قال : أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني
فيما استفتيته فيه ؟ قلت وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : جاءني
رجلان فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى ثم قال
أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل قال مطبوب قال ومن طبه ؟
قال لبيد بن الأعصم اليهودى من بنى زريق . قال فيماذا ؟ قال
في مشط ومشاطة وجف طلعة نكر قال : فأين هو ؟ قال في
بئر ذى أروان . قال فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه :
الى البئر فنظر اليها وعليها نخل ثم رجع إلى عائشة فقال :
والله لكان ماءها نقاعة الحناء ولكان نخلها رؤوس الشياطين ،
قلت يا رسول الله أفأخرجته ؟ قال لا ، أما أنا فقد عافاني الله
وشفاني وخشيت أن أثور على الناس شرا وأمر بها
فدفنت (١١١) .

هذا وقد روى الامام مسلم نفس الحديث فى صحيحه غير أنه وقع
فى روايته أن سؤال عائشة للرسول ﷺ عن كيفية تصرفه فى السحر
المعثور عليه فى البئر هل أحرقه ؟ وذلك فى قولها « قالت فقلت يا رسول
الله أفلا أحرقته ؟ » قال لا أما أنا فقد عافاني الله وكرهت أن أثير على

(١٠٩) النشرة بضم النون : هى ضرب من العلاج يعالج به من يظن أن به سحرا أو مسأمن الجن .

(١١٠) نفس المرجع ص ٢٣٢ و ٢٣٣ .

(١١١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج ١٠ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

الناس شرا فأمرت بها فدفنت ، وهذه الرواية رواها مسلم عن كريب عن ابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة كما رواه مسلم عن أبي كريب عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة^(١١٢) .

ووجه الدلالة فيه : أن الحديث يروى فى صراحة واضحة لا لبس فيها ولا غموض واقعة السحر التى ابتلى بها رسول الله ﷺ فى تسلسل وترتيب حيث شعر رسول الله فى ابتداء أمره أن هناك تغيرا فى عادته ثم كاشفه الله تعالى بأن ذلك سحر وأمره بالاستعاذة منه كما جاء فى بعض الروايات الأخرى ، وحدد الله له من قام به والآلة المستخدمة فى السحر ومكانه ، وبيّنت الحديث أيضا أن الرسول ذهب بنفسه الى البئر وعائنها ووصفها وأخبر عائشة رضى الله عنها بما رأى وكذلك الحوار الذى دار بينه ﷺ وبين عائشة رضى الله عنها من استخراج السحر أو إحراقه الى غير ذلك مما ورد فى الحديث ، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له ، وبهذا يثبت أن السحر حقيقة واقعة لا مرية فيها وواقع ملموس بالمشاهدة والتأثير^(١١٣) .

(١١٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٤ ص ١٧٤ - ١٧٨ باب السحر .

(١١٣) نود أن نوضح للقارئ هنا عدة أمور :

الأمر الأول : إن اليهود منذ أحقاب بعيدة هم أكثر الناس استخداما للسحر بهدف الإضرار بغيرهم من بنى البشر لأنهم يزعمون أنهم الشعب المختار ببقية الانسانية نوع حقير ، وحتى يسودوا الارض استخدموا كل الوسائل الدنيئة للايقاع والايذاء والاضرار بالناس حقدا وكراهية بل أنهم حتى فى عصرنا الحاضر يهدفون دائما الى زج غيرهم من الشعوب : إما بالحروب المدمرة ، وإما فى الانغماس الأعمى فى الشهوات والرذائل حتى إذا ما أضعفوها وأنهكوا قواها كان من السهل عليهم ان بنقضوا على تلك الشعوب الأخرى ليستبدوا بها ويستولوا على ثرواتها ويتحكموا فيها بما يشاؤون . والأمثلة على ذلك كثيرة فى عالم الحس والواقع .

ولنأخذ مثلا يتصل بموضوعنا لنؤكد به خبث نية اليهود وسوء طويتهم ووضوح حقارتهم ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر العسقلانى فى الفتح عن الواقدي ، قال : لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة الحديبية فى ذى الحجة ودخل المحرم من سنة سبع جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم ، وكان حليفا فى بنى زريق وكان ساحرا ، فقالوا له يا أبا الأعصم : أنت أسحرنا ، وقد سحرنا محمدا فلم نصنع شيئا ونحن نجعل لك جعلاً على أن تسحره لنا سحرا ينكوه يعنى يقضى عليه عاجلا ، فجعلوا له ثلاثة دنائير : أ ه فتح البارى ج ١٠ ص ٢٢٦ فانظر الى أى مدى تحط اليهود بخسة فعلهم وعبادتهم للمال ولو حقيرا . -

قال البيهقي : وقد كانت العقد التي فعلها لبيد بن الأعصم مغرورة بالأبر ، فأنزل المعونتين وهما إحدى عشر آية ، فسورة الفلق خمس آيات ، وسورة الفاس ست ، فكلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد كلها فقام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال . هكذا ذكره ابن القيم في تفسير المعونتين ص ٢٩ ط المطبعة السلفية .

هذا ، وقد وقع في مرسل عمر بن الحكم أن الرسول قال للبيد لما أخذه ما حملك على هذا ؟ قال حب الدنيا ، وتلك طبيعة اليهود على مر العصور (فتح الباري ح ١٠ ص ٢٣١) . الأمر الثاني : إن السحر الذي وقع للنبي ﷺ كان بعيدا عن مناطق الوحي فيه وهي العقل والقلب والروح فهذه مصونة بصيانة الله تعالى ، فقد كان السحر من جنس ما كان يعتريه ﷺ من الأسقام والأوجاع وهو من الأمراض ، وإصابته به كانت كإصابته بالسقم لا فرق بينهما ، قال القاضي عياض : السحر مرض من الأمراض وعارض من العلل يجوز عليه ﷺ فالسحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه لا على تمييزه ومعتقده . قال ابن حجر في الفتح : وقع في مرسل عبد الرحمن ابن كعب عند ابن سعد : فقالت أخت لبيد بن الأعصم ان يكن نبيا فسيخبر والا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله ، قلت : والكلام لابن حجر فوقع الشق الاول كما في الحديث الصحيح ، وقد قال بعض العلماء : لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فعله أن يجزم بفعله ذلك ، وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت فلا يبقى على هذا للملحد حجة (راجع فتح الباري ح ١٠ ص ٢٢٧ ، زاد المعاد لابن القيم ح ٣ ص ١٠٤) .

الأمر الثالث : أن كون النبي ﷺ معصوما لا يمنع من إرادة الشياطين الكيد له ، فقد ثبت في صحيح البخاري أن شيطاننا أراد أن يفسد عليه صلاته فأمكنه الله منه فقد أخرج البخاري بسند إلى أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع على الصلاة فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا كلكم فنكرت قول أخى سليمان (رب أغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) قال روح : فردة خاسئا) صحيح البخاري ح ١ ص ٥٥٤ - كتاب الصلاة - باب الأسير - فالحديث يروى أن الشيطان تفلت بمعنى تعرض له ﷺ قال العلماء : إن رؤية الشيطان على صورته التي خلق عليها خاص بالنبي ﷺ وأما غيره من الناس فلا لقوله تعالى في سورة الأعراف الآية ٢٧ - (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) .

الأمر الرابع : انه كما يتضح من الأدلة الأربعة التي مررناها للتدليل على ما ذهب اليه الجمهور من أن للسحر حقيقة ثابتة لا شك في ذلك وأن من يحاول أن يمحو هذه الحقيقة فمثله كمثل من يرى الشمس وهي في أوجها وينكرها ، والسحر قد يغير المزاج بعض الشيء كما حدث للنبي ﷺ وله تأثير في المسحور فقد يصيبه بأمراض عصبية وقد يؤثر في قوته فيضعفه ويفرق بين الزوجين ويجلب النزيف أو يعقد الرجل عن زوجته وقد يصل أحيانا إلى القتل إلى غير ذلك من مؤثراته . -

فالسحر أمره خطير وضرره عظيم يقوم به شرار الناس نتيجة عوامل نفسية مريضة أو شهوات هوائية كحب المال وجمعه أو حب السيطرة أو الإفلاس النفسى أو غير ذلك وهؤلاء اتصفت نفوسهم بالخسة والدناءة وخبث النية ولذلك تراهم يعملون السحر ويدفونونه فى أمكنة غريبة يصعب التفكير فيها أو الوصول إليها كلبيد بن الأعصم الذى دفن سحره للنبي ﷺ تحت راعوفة البئر والراعوفة هى الحجر الذى يقف عليه الساقى

الأمر الخامس : ان السحر يعتمد على قواعد وأصول يعرفها أربابها من السحرة ومن ذلك آثار الشخص المراد سحره فيأخذ الساحر أثرأ من آثاره كمنديل أو ثوب له أو شعر من شعره أو نحو ذلك كما فعل لبيد بن الأعصم فى واقعة السحر المشار إليها حيث حصل لبيد على شعر من مشط رسول الله عن طريق غلام من اليهود كان يخدمه وأعطاه لبيدا فصنع به ما صنع فقد روى ابن عباس عن عائشة أن غلاما من اليهود كان يخدم رسول الله ﷺ ففنت إليه اليهود فلم يزلوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه فأعطاهما اليهود فسحروا النبي ﷺ فيها وتولى ذلك لبيد بن الأعصم ومن معه من النساء . راجع تفسير المعونتين لابن القيم ص ٢٩ ، فتح البارى حـ ١٠ ص ٢٢٥ - ٢٢٧)

الأمر السادس : إن السحر قد يؤثر مرضا وثقلا وحبا وبغضا ونزيفا وما الى ذلك وقد يطول هذا المرض بالمسحور فترة طويلة ، فقد ذكر الحافظ فى الفتح أنه وقع فى رواية أبى ضمرة عند الإسماعيلي : أنه عليه الصلاة والسلام (أقام فى السحر أربعين ليلة) .

وفى رواية وهيب عن هشام عند أحمد : ستة اشهر قال : ويمكن الجمع بينهما بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه والأربعين يوما مدة استحكامه - قال السهيلي : لم أقف فى شىء من الاحاديث المشهورة على قدر المدة التى مكث النبي ﷺ فيها فى السحر حتى ظفرت به فى جامع معمر عن الزهرى أنه لبث ستة اشهر . قال الحافظ ابن حجر معقبا على كلام السهيلي : وقد وجدناه موصلا بإسناد صحيح وهو المعتمد (راجع فتح البارى حـ ١٠ ص ٢٢٦ .

الأمر السابع : إن السعى فى استخراج السحر متى أمكن ذلك - واجب لأنه إفساد ، وإبطال الإفساد واجب ، فقد ذهب النبي ﷺ بنفسه الى البئر الذى فيها السحر واستخراجه كما صرحت بذلك الروايات لأن ذلك من المنفعة الضرورية ، ونكر الحافظ فى الفتح أنه وقع فى حديث ابن عباس عند ابن سعد أن النبي ﷺ بعث الى على رضى الله عنه وعمار فأمرهما أن يأتيا البئر . وفى مرسل ابن الحكم : إن جبير بن أبياس وهو ممن شهد بدرا أمره الرسول ﷺ أن يستخرج السحر بعد أن دله على موضعه فى البئر وقيل غير ذلك والله أعلم .

(راجع فتح البارى حـ ١٠ ص ٢٣٠) .

ويبقى علينا أن نبين وجه الاختلاف في الروايات الثلاثة :

فالرواية الأولى : وهي رواية عيسى بن يونس عن هشام عن أبيه عن عائشة لم تبين هل الرسول ﷺ استخرج السحر أم لا ، فالذى يبدو أن الرسول ﷺ لم يستخرجه اكتفاء بمعافاة الله له وشفائه إياه .

أما الرواية الثانية : وهي رواية سفيان بن عيينة تثبت أن الرسول ﷺ قد استخرج السحر ، وأما سؤال عائشة فجعله عن النشرة وهي العلاج من السحر .

وفي الرواية الثالثة : وهي رواية أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة نجد أنها قد نفت استخراج السحر صراحة .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح : والنظر يقتضى ترجيح رواية سفيان لتقدمه في الضبط ويؤيده أن النشرة لم تقع في الرواية الثالثة وهي رواية أبي أسامة . والزيادة من سفيان مقبولة لأنه أثبتهم لاسيما أنه كرر استخراج السحر في روايته مرتين وهذا يبعده من الوهم . وزيادة ذكر النشرة جعل جوابها منه ﷺ بـ(لا) بدلا عن الاستخراج وهناك احتمال آخر وهو : أن الاستخراج المنفى في رواية أبي أسامة غير الاستخراج المثبت في رواية سفيان بن عيينة فالمثبت هو استخراج الجف ، والمنفى استخراج ما حواه . قال : وكأن السر في ذلك ألا يراه الناس فيتعلمه من أراد استعمال السحر^(١١٤) .

والذى يبدو لنا أنه لا تعارض بين الروايات حيث يمكن الجمع بينهما بأن نقول : إن الرسول ﷺ وهو الذى بعثه الله رؤوفاً رحيماً والحريص على أمته قد استخرج السحر بالفعل لكن استخراجه له لم يكن لعموم الناس خشية الفتنة التى يمكن بسببها أن يحدث شر مستطير ، وإنما استخرجه حتى رآه وعلمه ثم ألقاه ودفنه فهو في الرواية الأولى لم يجب عائشة صراحة ، وفي الرواية الثانية صرح باستخراجه وأجاب عائشة على سؤالها عن النشرة ، وفي الرواية الثالثة نفى أنه استخرجه ، والمراد والله

(١١٤) راجع فيما كتبناه : فتح البارى ج ١٠ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

أعلم أنه يقصد الاستخراج لجمهور الناس بدليل قول عائشة (وهلا استخرجته ؟ « أى هلا أخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه ؟ فأخبرها بالمانع له من ذلك وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك فيقع الإنكار ويغضب للساحر قومه فيحدث الشر المستطير ، وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافة فأمر بها فدفنت ولم يستخرجها للناس^(١١٥) .

وأمر آخر هو : أن الرواية التي رواها أبو أسامة وفيها نفى صراحة استخراج السحر جاء في آخر هذه الرواية عبارة (وأمر بها فدفنت) فإن كان لم يستخرج السحر فما الذى دفته وأمر بدفنه إذن ؟ إن هذا يؤكد أن الاستخراج الذى سألت عائشة عنه هو الاستخراج العام ليراه جمهور الناس ، أما الاستخراج الخاص فقد حدث بالفعل أى أنه ﷺ رآه ومن معه من النفر القليل من أصحابه .

هذا وقد وقع عند مسلم في صحيحه عن أبى كريب عن أبى أسامة في نفس الحديث عبارة « أفلا أحرقتة » والذى هنا فى رواية البخارى « أفأخرجته » وقد عقب النووى قائلا : كلا الروايتين صحيح كأنها طلبت أن يخرجته ثم يحرقه .

وقد عقب ابن حجر فقال : لكن لم يقعا معا فى رواية واحدة^(١١٦) .

وعلى كل : فإن هذا الحديث ثابت عند أهل العلم متلقى بالقبول بينهم وقصته مشهورة عند المفسرين والمحدثين والمؤرخين والفقهاء .



(١١٥) تفهيم المعونتين لابن القيم ص ٢٨ .

(١١٦) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٤ ص ١٧٧ ، فتح البارى ج ١٠ ص ٢٣٥ .

اعتراض وجوابه

« على صحة هذا الحديث المروى فى واقعة سحره ﷺ »

موضوع الاعتراض :

اعتراض عامة المعتزلة وأبو إسحق الاسترابادى من أصحاب الشافعى وأبو بكر الرازى الجصاص من علماء الحنفية وابن حزم الظاهرى وطائفة من أهل العلم وكذلك بعض العلماء المحدثين منهم الأستاذ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا وغيرهم على صحة هذا الحديث وأنكروه أشد الإنكار واستدلوا على ذلك بثلاثة أدلة :

الدليل الأول

وهو دليل عقلى حيث ذكروا : أن القول بثبوت واقعة سحر النبي ﷺ يحط من منصب النبوة ويشكك فيها ، وقالوا وهذا باطل وكل ما أدى إليه فهو باطل ، كما زعموا أن تجويز ذلك يعدم الثقة بالشرع الشريف ، إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو أو أنه يوحى إليه بشيء ولم يوح اليه شيء ، فلا يجوز أن يسحر النبي ﷺ بحال لأن ذلك ينافى حماية الله تعالى له وعصمته من الشياطين^(١١٧) .

(١١٧) فتح البارى ج ١٠ ص ٢٢٢ ، شرح النووى على صحيح مسلم ج ١٤ ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، نيل الأوطار للشوكانى ج ٧ ص ٣٦٥ ، المهذب ج ٢ ص ٢٢٥ ، فتح القدير ج ٦ ص ٩٩ ، أحكام القرآن للجصاص ج ١ ص ٤٢ ، ٤٥ ، تفسير القرآن الحكيم ج ٩ ص ٥١ والمحلّى ج ٣١ ص ٤٧٠ وما بعدها ، فى ظلال القرآن ج ٢٠ ص ٤٠٠٧ ، المغنى لابن قدامة ج ٨ ص ١٥٠ ، ١٥١ وفى رواية أسامة أثبت أنه ﷺ ذهب فى نفر قليل من أصحابه وعائين البئر فشاهدها ثم وصفها لعائشة ، ويمكن الجمع بين هذه الروايات جميعا : أن الرسول ﷺ ذهب فى نفر قليل من أصحابه وعائين البئر وأمرهم باستخراج السحر ولم يستخرجه بنفسه ثم أمر بإتلافه ودفنه فكان دور النبي ﷺ مقتصرًا على الإشراف وبهذا يتحد المعنى فى جميع الروايات ، ويعلم منه أن السحر لم يستخرج بصورة علنية وعامة حيث رآه نفر القليل وتم إتلافه ودفنه فى نفس المنطقة التى كان فيها . وفى استخراج السحر روى قتادة عن سعيد بن المسيب حينما سئل عن رجل به طب - أو يؤخذ عن امرأته - أيلح عنه أو ينشر قال لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم ينه عنه - أخرجه البخارى فى صحيحه ج ١٠ ص ٢٢٢ ثم روى الحديث عن أبى أسامة الذى تقدم . -

فمن كان به مرض من سحر فلا بأس أن يمشى إلى من يطلق عنه إنما ينهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع وفي المسألة بسط سنذكره في موضعه إن شاء الله .

الأمر الثامن : واجب المسلمين عند الفتن :

لقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلا في درء الفتن وسد أبوابها ، وهذا معلوم من واقعة سحره التي قام بها لبيد بن الأعصم أحد المنافقين وحليف اليهود وقد صرح الرسول ﷺ بذلك على ما جاء في الصحيحين وذكرناه آنفا . وقد رويت في ذلك أقوال :

منها ما ذكره النووي أنه ﷺ خشي من إخراجهم وإشاعته ضررا على المسلمين من تذكر السحر وتعلمه ونحو ذلك وهو من باب ترك المصلحة خوف المفسدة الأعظم منها ، وهو من أهم قواعد الاسلام (شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٤ ص ١٧٨) .

ومنها : أن المراد بالناس هنا هو لبيد بن الأعصم في قوله عليه السلام (فكرهت أن أثير على الناس شرا) لأن لبيدا كان منافقا فأراد الرسول ﷺ ألا يثير عليه شرا لأنه كان يؤثر الإغواء عن ظهر الاسلام ولو صدر منه ما صدر (فتح الباري ج ١٠ ص ٢٣١) .

ومنها : أنه وقع في حديث عمرة عن عائشة (فقيل يا رسول الله لو قتلتك ؟ قال : ما وراهم من عذاب الله أشد) وفي نفس الرواية (فأخذه النبي فاعترف فعفا عنه) (راجع المرجع السابق) .

على أنه لا يصلح هذا حجة على القائلين بقتل الساحر لأن ترك لبيد بن الأعصم كان لخشية أن يثير بسبب قتله فتنة أولئلا ينفجر الناس عن النحول في الاسلام وهو من جنس ما راعاه النبي ﷺ في منع قتل المنافقين وحتى لا يتحدث الناس إن محمدا ﷺ يقتل أصحابه (المرجع السابق) ويمكن أن يقال أنه كان ذا عهد فلم يقتله من أجله أو أنه لم يعترف بسحره ، وبالجمله فإن في عدم قتله كلام كثير لكن هذه القصة لا تصلح حجة تعارض القائلين بقتل الساحر حدا ، فالواجب على المسلمين أن يتجنبوا الفتن أيا كان نوعها خاصة في أزماننا هذه التي بلغ النفاق والمراء فيها مبلغا بعيدا وخطيرا في نفس الوقت وليزلم كل نفسه حتى لا يدخل إلى تلك الساحات الخبيثة وهو لا يدري ، فلقد أخرج الطبري من طريق الحسن البصري قال : قال ابن الزبير لقد خوفنا بهذه الآية ونحن مع رسول الله ﷺ ، وما ظننا أنا خصصنا بها ، وهي قوله تعالى : واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب (الآية ٢٥ من سورة الأنفال) .

هذا . وقد أخرج البخاري في صحيحه عن عروة عن زينب بنت أم سلمة عن أم حبيبة عن زينب ابنة جحش رضى الله عنهن أنها قالت : استيقظ النبي ﷺ من النوم محمرا وجهه وهو يقول : لا إله الا الله : ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه - وعقد سفیان تسعين أو مائة - قيل - أتهلك وفيها الصالحون ؟ قال نعم إذ كثر الخبث (صحيح البخاري ج ١٣ ص ١١) - .

وأضافوا إلى ذلك أن الحديث يكون حينئذ معارض للقرآن ، بل بعضهم حمل على هشام بن عروة ابن الزبير رضى الله عنه على ما ذكره ابن القيم ، وخلص بعضهم إلى القول : وقد أجازوا من فعل السحر ما هو أطم من هذا وأقطع وذلك أنهم زعموا أن النبي ﷺ قد سحر وأن السحر عمل فيه وأنه كان يخيل إليه إنه يفعل الشيء وما يفعله ... إلى أن انتهوا من كلامهم فقالوا : ومثل الأخبار من وضع الملحدين تلعبا بالحشو والطغام واستجارا لهم إلى القول بإبطال معجزات الأنبياء السلام والتدح فيها وأنه لا فرق إذن بين معجزات الأنبياء وفعل السحرة وأن جميعه يكون من نوع واحد^(١١٨) .

الدليل الثانى

ما جاء فى القرآن الكريم من قوله تعالى « وقال الظالمون إن تتبعون إلارجلا مسحورا »^(١١٩) .

ووجه الدلالة فيها : أن الله تعالى رد على مزاعم الكفار من أنه ﷺ مسحور فوصفهم بالظلم والحيدة عن طريق الحق وكذبهم فيما قالوا ، وقالوا أيضا أليس من العجب أن يجمع الإنسان بين تصديق الأنبياء عليهم السلام وإثبات معجزاتهم ، وبين التصديق بأنهم يسحرون ويجوز أن يؤثر فيهم السحر ؟ مع أن الله تعالى قال (ولا يفلح الساحر حيث أتى) .

وأخرج أيضا بسنده إلى أسامة بن يزيد رضى الله عنهما قال : أشرف النبي ﷺ على أطم من أطام المدينة فقال : هل ترون ما أرى ؟ قالوا لا : فأبى لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر - نفس المرجع .

والأطم : هو الحصن أى وقف الرسول على شيء مرتفع ، والقطر : المطر ، والمعنى : أن الرسول ﷺ يخبرنا بكيفية شيوع الفتن وأنها ستكون كالأمطار الغزيرة .

(١١٨) تفسير المعونتين لابن القيم ص ٢٨ ، أحكام القرآن للجصاص ح ١ ص ٥١ ، تفسير

القرآن الحكيم (المنار) ح ٩ ص ٥١ ، نيل الأوطار للشوكاني ح ٢ ص ٣٦٥ .

(١١٩) سورة الإسراء الآية (٤٧) .

وانتهوا في وجه دلالته إلى القول : بأنه لو جاز أن يسحر النبي ﷺ لكان ذلك تصديقا لقول الكفار (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) وكما قال فرعون لموسى (وأنى لأظنك يا موسى مسحورا) وكما قال قوم صالح له (إنما أنت من المسحرين) وكما قال قوم شعيب له (إنما أنت من المسحرين) فالأنبياء لا يجوز أن يسحروا لأن ذلك ينافى حماية الله لهم وعصمتهم من الشياطين^(١٢٠) .

الدليل الثالث

قوله تعالى : يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين^(١٢١) .

ووجه دلالة الآية الكريمة : أن أهل التفسير والمأثور رووا عن بضعة رجال من الصحابة أن النبي ﷺ كان له حراس في مكة وكان أبو طالب أول حارس له وحرسه العباس أيضا فلما نزلت الآية ترك الحرس ، فقد كان أبو طالب يرسل معه كل يوم رجالا من بنى هاشم يحرسونه حتى نزلت الآية فقال يا عم إن الله قد عصمنى لا حاجة لى إلى من تبعث ، ومعنى العصمة أن يمنعه الله من فتكهم ، والمراد بالناس هنا هم الكفار الذين يتضمن الوحي كفرهم وضلالهم .

وقالوا : فإذا كان النبي ﷺ معصوما بنص القرآن فكيف يقال بأنه مسحور وأن السحر أثر فيه ؟ أليس في ذلك شبهة على عصمته ؟ وبالتالي على تبليغه لرسالته ؟ فإذا حدث التأثير السحري المدعى به عليه فأين عصمته إذن ؟ وهل من يتولى الله حمايته وعصمته من الناس يملك له العباد المهازيل^(١٢٢) ؟

(١٢٠) تفسير المعوذتين لابن القيم ص ٢٨ ، تفسير القرآن الحكيم د ٩ ص ٥١ .

(١٢١) سورة المائدة الآية (٦٧) .

(١٢٢) تفسير القرآن الحكيم د ٦ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ، تفسير المعوذتين لابن القيم ص ٢٨ و ٣٠ ،

في ظلال القرآن د ٦ ص ٩٣٧ ، ٩٣٨ ط الشروق .

الجواب

هذا ، وقد أجاب جمهور العلماء على ما استدل به المنكرون لواقعة سحره ﷺ بحسب ترتيب الأدلة الثلاثة التي أوردوها .

الاجابة عن الدليل الأول

أولاً إن الدليل العقلي الذي استدلوا به على عدم جواز أن يسحر الرسول ﷺ مردود لأن الدليل قد قام على النبي عليه السلام فيما يبلغه عن الله تعالى وعلى عصمته في التبليغ والمعجزات شهادات بتصديقه ، فتجوز ما قام الدليل على خلافه باطل .

ثانياً : أما ما يتعلق بأمور الدنيا التي لم يبعث بسببها ولا كان مفضلاً من أجلها وهو ما يعرض للبشر كالأفراض فغير بعيد أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا مالا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين ، وقال بعض العلماء : إن المراد بالحديث أنه كان ﷺ يخيل إليه أنه وطئ زوجاته ولم يكن وطأهن وهذا كثير ، ما يقع تخيله للإنسان في المنام فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة ، وهذا ما ورد صريحاً في رواية سفيان بن عبيدة أنفاً ، ولفظه (حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن) وقال بعضهم يرى بضم الياء بمعنى أنه ظن ذلك ، قال القاضي عياض : فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه لا على تمييزه ومعتقده فالسحر الذي أصابه كان مرضاً من الأمراض عارضاً شفاه الله منه ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه ما فالمرض يجوز على الأنبياء وكذلك الإغماء فقد أغشى عليه ﷺ في مرضه ، وانفكت قدمه وانخدش شقه ، وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته ونيل كرامته ، وأشد الناس بلاء الأنبياء ، فقد ابتلوا من أمهم بما ابتلوا به من القتل والضرب والشتم والحبس فليس ببعد أن يبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر كما ابتلى بالذي رماه فشجه ،

وابتلى بالذى ألقى على ظهره السلا^(١٢٣) وهو ساجد وغير ذلك ولا نقص ولا عيب ولا عار عليهم ، بل هذا من كمالمهم وعلو درجتهم عند الله تعالى^(١٢٤) .

ثالثاً : ذكر الحافظ ابن حجر عن بعض العلماء : أنه لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فعله أن يجزم بفعله وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت فلا يبقى على هذا للملحد حجة ، وهناك احتمال آخر وهو أن يكون المراد بالتخييل المذكور في الحديث أنه يظهر له من نشاطه ما ألفه من سابق عاداته من الافتدار على الوطاء ، وكل ما جاء في الروايات من أنه يخيل إليه أنه فعل شيئاً ولم يفعله ونحوه محمول على التخييل بالبصر لا بخلل تطرق إلى العقل ، وليس في ذلك ما يدخل لبسا على الرسالة ولا طعنا لأهل الضلالة^(١٢٥) .

رابعاً : أنه ﷺ لم يتكلم بكلمة واحدة - في خلال مدة ابتلائه بتأثير السحر - تخرج عن حد الاعتدال ، فلم ينقل عنه في خبر من الأخبار أنه قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به ، وكانت كل أقواله وأفعاله على السداد في تلك المدة^(١٢٦) .

خامساً : إن هشام بن عروة بن الزبير من أوثق الناس وأعلمهم ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه ، فهو أحد تابعي المدينة المشهورين المكثرين في الحديث المعدودين من أكابر العلماء وجلة التابعين رأى جابر بن عبد الله بن مالك وغيرهما من صحابة رسول الله ﷺ ، ثم إن الحديث رواه غير هشام عن عائشة كما مر من قبل ، وقد اتفق أصحاب الصحيحين على

(١٢٣) السلا : هو ما يخرج من الناقة ونحوها مع الولد - وهو المعروف بالمشيمة الآن .

(١٢٤) راجع فتح الباري د ١٠ ص ٢٢٧ ، تفسير المعوذتين لابن القيم ص ٢٩ و ٣٠ .

(١٢٥) راجع فتح الباري د ١٠ ص ٢٢٧ ، نيل الأوطار د ٧ ص ٣٦٥ .

(١٢٦) المرجعان السابقان .

تصحح هذا الحديث ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة ،
والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء ،
وهؤلاء أعلم الناس بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين المنكرين
للحديث وغيرهم (١٢٧) .

الإجابة عن الدليل الثانى

والجواب عن الآية الكريمة يدور حول تفسير لفظ (مسحورا)
الذى ورد بها ، فله عند العلماء تفسيرات :

أولها : إن (مسحورا) على بابه أى مطبوبا قد خبله السحر فاختلف
عليه أمره . يقولون ذلك لينفروا عنه الناس وقال مجاهد :
مسحورا بمعنى مخدوعا ، وعلى هذا يكون اللفظ على ظاهره
فى جعل رسول الله ﷺ أنه مسحور (١٢٨) .

ثانيها : أن لفظ (مسحورا) بمعنى ساحر وأنه يأتى بأساطير الأولين
ذكره القرطبي عن قتادة . وعلى هذا يكون لفظ (مسحورا)
ليست على معنى اسم المفعول بل على معنى اسم
الفاعل (١٢٩) .

ويؤيد هذا الاتجاه ما أجاب به ابن جرير الطبرى والبيضاوى
بان المراد من اللفظ هنا هو معلم السحر الذى علمه إياه غيره ،
فالمسحور عندهم بمعنى ساحر أى عالم بالسحر ، قال
البيضاوى فى هذا المعنى : انظر كيف ضربوا لك الأمثال
فمثلك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون وقد ضلوا فى كل
ذلك عن الحق فلا يستطيعون سبيلا إلى طعن موجه فيتهافتون
ويتخبطون كالمتحير فى أمره لا يدري ما يصنع (١٣٠) .

قال الحافظ ابن كثير فى معنى الآية : ويكذبون به عليك من
قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر وكلها أقوال باطلة ،
يعرف كذبهم واقتراءهم من له أدنى فهم وعقل (١٣١) .

(١٢٧) تفسير المعزنيين لابن القيم ص ٢٩ .

(١٢٨) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٥ ص ٣٨٨٨ .

(١٢٩) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٥ ص ٣٨٨٨ .

(١٣٠) تفسير البيضاوى ص ٣٧٧ ، مختصر تفسير الطبرى ص ٣١٩ ط الشروق .

(١٣١) تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٣١٠ .

وقد عقب ابن القيم رحمه الله على هذا التفسير أى أن (مسحورا) بمعنى اسم الفاعل ساحر أى عالم بالسحر وقال هذا تفسير جيد إن ساعدت عليه اللغة وهو أن من علم السحر يقال له مسحور ولا يكاد هذا يعرف فى الاستعمال ولا فى اللغة (١٣٢) .

هذا ، وقد وجدنا فى كتاب الله تعالى ما يساعد من اللغة والاستعمال على اعتبار أن لفظ (مسحورا) بمعنى اسم الفاعل قوله تعالى (إنه كان وعده مأتيا) (١٣٣) .

فمأتيا بمعنى اسم فاعل أى : آت ، ويجوز فى اللغة استخدام اسم المفعول بمعنى اسم الفاعل بناء على هذا لأن كل ما أتاك فقد أتيته كما تقول العرب ، أتت على خمسون سنة ، وأتيت على خمسين سنة (١٣٤) .

وسياق الآية يتسق مع تفسير اللفظ فهم كانوا يستمعون إليه ثم يخلو بعضهم إلى بعض ويتناجون فيما بينهم ليدبروا الاتهامات المتعددة التى من شأنها أن تشكك فى النبى ﷺ وما يدعو إليه فلم يجدوا بدا لمواجهته فى حسن بيانه من اتهامه بأنه ساحر وهو هدف خبيث لأنه يتناول عقله ﷺ حتى لا يمكنه استمالة عقول الناس إلى سماع الحق المنزل بالوحى الكريم ، وهكذا كان دأب أعداء الرسل دائما فقد اتهموهم بالسحر والجنون والشاعرية إلى غير ذلك مما حكاه القرآن عن تلك الأحقاب البعيدة من تاريخ الدنيا .

ومن ثم فإن الآية تذكر على لسان الكفار أنه كان ساحرا ومعلما للسحر وهنا تسقط دعوى الخصم ويصبح النبى ﷺ

(١٣٢) تفسير المعونتين لابن القيم ص ٣١ .

(١٣٣) سورة مريم الآية ٦١ .

(١٣٤) راجع الجامع لأحكام القرآن مجلد ٥ ص ٤١٦٥ ، تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ١٢٩ .

غير مسحور بل هو ساحر - على حد زعمهم - فلا يتطابق دليلهم الذى نحن بصدد الرد عليه مع الواقع فليس القول بأنه ﷺ قد سحر يكون فيه تصديق للكفار على هذا التفسير .

ثالثها : ذكر القرطبي أن أبا عبيدة قال فى توجيه لفظ (مسحورا) معناه أن له أى رئة فهو لا يستغنى عن الطعام والشراب فهو بشر مثلكم وليس بملك ، كما ذكر البيضاوى وابن القيم نفس هذا الاتجاه عن بعض العلماء (١٣٥) .

ونرى أن هذا التفسير الأخير للفظ « مسحوراً » يتفق مع سياق الآية الكريمة وهى قوله تعالى فى سورة الفرقان (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبععون إلا رجلاً مسحوراً) (١٣٦) .

والمعنى : أنهم لما عرضوا على الرسول ﷺ الرياسة والمال ، فأبى عادوا الى توجيه مطاعنهم له ولدعوته فقالوا له ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام كما نأكل وتمشى فى الأسواق كما نمشى ، وهم بذلك يريدون معايرته وتنقيصه - قبحهم الله - فهم يراوغون معه ويظهرون له أن الرسول لا بد أن يكون ملكاً أى من غير البشر ، يضاف إلى ذلك أن ذوى الشأن والسلطان كانوا يترفعون عن المشى فى الأسواق فقد رأوا الأكاسرة والقياصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن ذلك ، فى الوقت الذى كان الرسول يخالطهم فى أسواقهم ويأمرهم وينهاهم فقالوا هذا يطلب الملك علينا فماله يخالف سيرة الملوك ؟ فأجابهم الله تعالى بقوله (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) (١٣٧) .

(١٣٥) راجع الجامع لأحكام القرآن مجلد ٥ ص ٣٨٨٩ ، تفسير البيضاوى ص ٣٧٧ ، تفسير المعونتين ص ٣٠ .

(١٣٦) سورة الفرقان الآية ٨ .

(١٣٧) سورة الفرقان الآية ٢٠ ، راجع الجامع لأحكام القرآن مجلد ٦ ص ٤٧٢٠ ، مختصر تفسير الطبرى ص ٤٠٣ و ٤٠٤ .

غير أن الإمام ابن القيم لم يرتض الإجابة الأخيرة وقال : إن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بالمسحور ولا يعرف هذا فى لغة من اللغات ، ولو كانوا يريدون هذا المعنى لأتوا بصريح لفظ البشر فقالوا (ما أنتم إلا بشر مثلنا) وقوله (أنؤمن لبشرين مثلنا) وقوله (أبعث الله بشرا رسولا) وأما المسحور فهم لم يريدوا به ذا السحر وهى الرئة ، وأى مناسبة لذكر الرئة فى هذا الموضع ؟ وانتهى ابن القيم إلى القول بأن هذا الجواب فى غاية الضعف (١٣٨) .

(إجابة ابن القيم)

قال رحمه الله : إنما المسحور هو من سحره غيره كالمطبوب والمضروب والمقتول وبابه . وهو من سحر حتى جن فقالوا مسحور مثل مجنون أى زائل العقل لا يعقل ما يقول ، فإن المسحور الذى لا يتبع هو الذى فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول فهو كالمجنون ، ولهذا حكى القرآن قول الكفار فيه فى قوله تعالى (ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) (١٣٩) .

وقد وجه ابن القيم هذه المسألة ردا على المنكرين لوقوع السحر به ﷺ فقال : فأما من أصيب فى بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس فإنه لا يمنع من اتباعه ، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفاههم من اتباعه . ولهذا قال تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وقد برأه الله من تلك الأمثال جميعا .

هذا ، وقد دافع ابن القيم - جزاه الله خيرا - عن راوى الحديث هشام بن عروة دفاعا قويا بما يوجب قبول حديثه حيث قال : فإن هشاما من أوثق الناس وأعلمهم ولم يتكلم فيه أحد بما يوجب رد حديثه وقصة لبيد مشهورة عند أهل العلم السابقين وهم أعلم الناس بأحوال الرسول ﷺ (١٤٠) .

(١٣٨) تفسير المعونتين ص ٣٠ .

(١٣٩) سورة الدخان الآية ١٤ .

(١٤٠) تفسير المعونتين لابن القيم ص ٢٩ .

(الإجابة عن الدليل الثالث)

لقد ادعى المنكرون لواقعة سحره ﷺ أنه لا يجوز أن يسحر بحال ،
واستدلوا بقول الله تعالى لنبيه (والله يعصمك من الناس) .

وإذا رجعنا قليلا إلى سبب نزول الآية - لتبين لنا المراد منها وليس
كما يدعى المنكرون ، فالمراد من العصمة هنا : هي عصمته ﷺ من
القتل ، وهذه خصوصية للنبي ﷺ . وسبق لنا أن القينا بعض الضوء على
تفسير الآية ونذكرك هنا بذلك جملة فنقول : إن سبب نزولها أنه كان هناك
حراس لرسول الله ﷺ يحرسونه ليلا ونهارا وكانوا من ذوى قرابته لئلا
تفتك به قريش فلما نزلت الآية قال لهم لا حاجة لى الآن الى الحراسة
فقد عصمنى الله تعالى وهذا دليل واضح على أن المراد بالعصمة هو
العصمة من القتل .

فالمرض يجوز على الأنبياء إذا كان غير منفر ، كما يجوز عليهم
الإغماء وقد ابتلى الأنبياء قبله بابتلاءات متنوعة ، وقد ابتلى هو صلوات
الله وسلامه عليه بأشياء كثيرة ذكرناها من قبل ، فهم بشر يجوز عليهم
من بلاء الدنيا ما يجوز على البشر إلا فيما استثنى من ذلك كالأمراض
المنفرة والله سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم ، يبتليهم
أيضا بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته وليتسلى بهم
من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوتوا من الناس فرأوا ما جرى على
الرسل والأنبياء كان ذلك حافزا لهم على الصبر والرضا والتأسي بهم ،
وهذا من بعض حكمته تعالى فى ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم لهم
وله سبحانه الحكمة البالغة .

وبهذا يتبين لك أيها القارئ أن السحر وقع برسول الله ﷺ وهو
ابتلاء الله له للتأسي به كسائر ما ابتلى به ، فمن ينكر ذلك على ما ثبت
فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ فهو على غير هدى وعلى غير
صواب - والله اعلم .



(تعقيب)

ونقول فى هذا المضمـار : إن القرآن الكريم قد أثبت أن التخييل وقع لرسول من رسل الله تعالى حتى توجس منه خيفة نتيجة هذا بالتخييل نلكم هو سيدنا موسى عليه السلام وحكى القرآن ذلك فى جلاء ووضوح فقال تعالى (يخيـل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى)^(١٤١) ومع أن التخييل حدث فعلا وخاف موسى مما رأى ، إلا أن ذلك لم يكن مانعا من تلقى الوحي وفهمه وتنفيذه فى نفس الوقت ، لأن الميدان كان لا يحتمل التأخير فلو كان السحر يؤثر على مناطق الوحي فى الرسل والأنبياء لما استطاع موسى أن يتلقاه ويفهمه فى الحال ، ذلك واضح من قوله تعالى فى نفس الآيات المتتابعة ساعـتئذ (وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى)^(١٤٢) ولم يذكر العصا بل قال (ما فى يمينك) ولعل ذلك تصغير لها أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم ، وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذى فى يمينك فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظـمها ، ويجوز أن يكون عدم ذكرها تعظيم لها أى ما فى يدك شىء أعظم مما فى أيدى السحرة وأن الذى صنعه السحرة هو كيد ساحر وأضاف الكيد للساحر لا للسحر .

وقد نفذ موسى الأمر الإلهى من فوره فانقلبت العصا حية وابتلعت كل ما كان فى أيديهم وما منعه التخييل من ذلك شيئا ، فلو كان للسحر أثر على عقله وقلبه ما فهم ولا نفذ فى الحال ما أمر به .

(١٤١) سورة طه الآيات ٦٦ و٦٧ والمراد من الخوف قيل فيه أقوال : منها أنه خاف من الحيات ونلك علي ما يعرض من طبايع البشر ، ومنها : أنه خاف أن يفتتر الناس قبل أن يلقى عصاه ومنها : أنه خاف حين أبطل الوحي عليه بالقاء العصا أن يفتروا الناس قبل ذلك . قال بعض أهل الحقائق : لما التقت ساعتها فاذا جبريل على يمينه فقال له يا موسى ترفق بأولياء الله ؟ فقال مستغربا هؤلاء سحرة ! جاءوا ليبتلوا المعجزة وينصروا دين فرعون فقال جبريل هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك وبعد صلاة العصر فى الجنة . فلما قال له نلك أوجس فى نفس موسى خيفة وخطرا أن ما يدرينى ما علم الله فى قلـعلى أكون الآن فى حالة وعلم الله فى على خلافا كما كان هؤلاء فلما علم الله ما فى قلبه أوحى الله إليه (لا تخف إنك أنت الأعلى) .

(١٤٢) سورة طه الآيات ٦٩ . ٧٠

وموسى عليه السلام نبى مرسل ومن أولى العزم ، وما ورد فى الحديث المعترض عليه من أنه عليه الصلاة والسلام خيل إليه هو تخييل من جنس تخييل موسى ثم إن تخييله ﷺ فى أمر من أمور الدنيا التى لم لم يبعث لأجلها ثم هو عرضة كغيره من البشر للأمراض غير المنفرة ونحوها وهذا كثيرا ما يقع (١٤٣) .

فهل هناك بعد هذا لدى المنكرين لواقعة سحره ﷺ فرق بين رسول ورسول آخر ؟ لا نعتقد أن أحداً أيا كان يقول هذا .

ومنه يتضح أن ما أصيب به من السحر لم يكن مما فيه تخليط أو عدم اتزان وكل ما فى الأمر أنه ﷺ أحس بصداق كمرض من الأمراض غير المنفرة التى من شأنها ذلك وعلى هذا العلماء المحققون للسيرة ، والطعن فى الحديث بدعة من بدع المعتزلة وبعض الطوائف ، وما سقناه يقطع الخلاف ويتفق مع الشرع والعقل والله اعلم (١٤٤) .

رأى الأستاذ الامام محمد عبده والرد عليه

يقول الأستاذ الامام رحمه الله : إن تأثير السحر فيه ﷺ - كما يقول - إلى الحدّ أنه يفعل الشيء وما يفعله ليس من الأمراض البدنية ولا من السهو والنسيان ، بل هو ماس بالعقل ، أخذ بالروح ، وهذا مما يصدق قول المشركين فيه (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) والقائلون بهذا لا يعقلون ما هى النبوة مبتدعون !! وعلى هذا فالنبي ليس بمسحور قطعاً (١٤٥) .

ونستطيع هنا أن نستنبط من كلام الإمام دعاوى ثلاث :

الدعوى الأولى : إن واقعة السحر المدعاة - إذا ثبتت - فإنه يمس العقل والروح .

(١٤٣) فتح البارى ج ١٠ ص ٢٢٧ .

(١٤٤) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١٦٢ ، زاد المعاد لابن القيم ج ٣ ص ١٠٤ و ١٠٥ .

(١٤٥) تفسير جزء عم للأستاذ الامام ص ١٨٣ وما بعدها .

الدعوى الثانية : إذا كان الرسول ﷺ قد سحر حقيقة فإن ذلك يكون تصديقا لما ادعاه المشركون عليه بقولهم الذى حكاه القرآن عنهم (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) .

الدعوى الثالثة : إن القول بصحة واقعة السحر هذه يتنافى مع منصب النبوة وما يجب لها من العصمة ولا يقول بهذا إلا مبتدع لا يعقل ماهية النبوة وردنا على الدعاوى الثلاث هو ما يلى :

الاجابة عن الدعوى الأولى

إنه لو كان السحر الذى وقع لرسول الله ﷺ ماسا بالعقل والروح منه لما استطاع موسى عليه السلام - وهو نبي مرسل - عندما خيل اليه أن حبال السحرة تسعى وهى لا تسعى حقيقة ، أقول لما استطاع والحالة هذه أن يتلقى الوحي من الله تعالى وينفذ ما أمره به كما أسلفنا القول عنه فيما مر انفا ، وما وقع للنبي ﷺ تخيل مثل التخيل الذى وقع لموسى عليه السلام على ما أورده القرآن الكريم ، فقد وقع فى الحديث أن النبي محمدا ﷺ قد خيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، كما وقع فى القرآن أن موسى خيل إليه أن الحبال تسعى وهى ليست كذلك ، فما الفرق بين التخيلين إذن ؟ ثم ما الفرق بين رسول ورسول آخر من رسل الله الكرام ؟

ونستطيع أن نقول - كما سبق أن أشرنا - إن كل هذا الذى حدث لكل منهما وغيرهما من الأنبياء والمرسلين عبارة عن البلاء الذى يزيدهم الله سبحانه به رفعة فى درجاتهم ، وتلك عادة الدنيا للصلحاء والمجددين من عباد الله ، فالرسل جميعا قد ابتلوا بكثير من الابتلاءات على اختلاف أنواعها ، ثم من بعدهم من الصلحاء والمدافعين عن الحق والفضيلة فى كل عصر وزمان إلى أن تقوم الساعة فذلك الذى ترفع به درجاتهم ، والجنة حفت بالمكاره وثمرها غال ونفيس لمن عمل لها وسعى إليها .

الاجابة عن الدعوى الثانية

إن القول بأنه إذا حدثت واقعة السحر المدعاه يكون فى ذلك تصديق لما ادعاه المشركون بقولهم (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا)^(١٤٦) هو

(١٤٦) سورة الإسراء الآية : ٤٨ ، سورة الفرقان الآية ٨ .

قول بعيد عن الصواب ، فقد سبق أن بينا أن لفظ (مسحورا) يمكن حمله على اسم الفاعل بمعنى ساحر أو معلم السحر وهو جائز لغة فهم وصفوه بأنه ساحر وكاهن وشاعر ومجنون إلى غير ذلك من الصفات التي تظهره بمظهر الذى يفعل أفعالا تستميل عقولهم وأرواحهم . لا بمظهر المسحور الذى تخبل عقله ، وقد قال بهذا التوجيه للفظ كثير من المفسرين .

ثم إنه يمكن حمل لفظ (مسحورا) على أنه له سحر أى رئة بمعنى أنه بشر يأكل الطعام ويشرب الشراب مثلهم وليس فيه ما يميزه عنهم ، وهذا الاتجاه يتسق مع قوله تعالى فى سورة الفرقان (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق)^(١٤٧) وكأنهم بهذا يتصورون أن يكون الرسول ملكا لا يأكل طعاما ولا يمشى فى الأسواق وأنه لو كان رسولا حقا لترفع عن هذا ، ونهج المنهج الذى كان عليه ملوك الأكاسرة والقيصرية والجبابرة الذين كانوا يترفعون عن الأسواق ، بل إنهم قد تركوا لعقولهم العنان فشطوا حتى تصوروا أنه لابد له - لو كان رسولا حقا - أن تكون له جنة يأكل منها أو تلقى السماء عليه كنزا ، فإذا هو يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق وليس له جنة يأكل منها ، فهو يأكل كما يأكلون ويشرب مما يشربون ، وهذا - فى نظرهم - يخل بالرسالة وينفى عنه النبوة والتبليغ فاتهموه بأنه ساحر وليس رسولا^(١٤٨) .

ومن هنا يتضح أن اسم المفعول فى الآية بمعنى اسم الفاعل ، وهذا ما يستفاد من السياق القرآنى فى آيات السورة الكريمة^(١٤٩) .

الإجابة عن الدعوى الثالثة

سبق لنا أن أوضحنا معنى أن الله قد عصم نبيه ﷺ وفيما ذا عصمه أن المراد بالعصمة فى الآية (والله يعصمك من الناس) هى العصمة من القتل وتلك خصوصية له ، أما فى الابتداء فهو معصوم كغيره من الأنبياء فى عقولهم وأرواحهم^(١٥٠) فما وقع له ﷺ من السحر لا يتنافى إطلاقا مع

(١٤٧) سورة الفرقان الآية ٧ .

(١٤٨) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٦ ص ٤٧٢٠ ، ٤٧٢١ ، ٤٧٢٢ ط الشعب .

(١٤٩) سورة الفرقان الآيات : ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ .

(١٥٠) راجع الإجابة عن الدليل الثالث فيما سبق .

كونه نبيا ورسولا لأن ما حدث له - كما ذكرنا - لم يتعد التخيل البصرى كما حدث نفس التخيل لموسى عليه السلام ، فعصمة الرسل هي فى عقولهم وأرواحهم التى هى مناط التكليف والتبليغ ، وإمامنا الشيخ محمد عبده لم ينكر حديث سحر الرسول عليه السلام بل قال إنه من أحاديث الأحاد ، والأحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد .

ولكننا نقول : إنه حديث ثابت فى أقوى مراجع الحديث ، فهو فى كل من صحيحى البخارى ومسلم وغيرهما وهما مرجعان أساسيان للسنة المطهرة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الحديث ليس من باب العقائد وإلا فهل يمكن الحكم بالكفر مثلا على من قال بثبوت واقعة سحره ﷺ ؟ أو يمكن الحكم كذلك على من أنكرها ؟ وكلاهما غير كافر ، فصح أنه ليس من باب العقائد بحال ، ومن جهة ثالثة أن الحديث مروى عن هشام فى أكثر من طريق فرواه عيسى بن يونس وسفيان بن عيينة وأبو أسامة وكلهم عن هشام الذى وثقه علماء الحديث ولم يتكلم فيه أحد منهم وقصته مشهورة معروفة على النحو الذى أوضحناه من قبل .

هذا ، وقد قام بعض العلماء بالرد على الإمام محمد عبده وهاجموه فى أفكاره خاصة عندما تعرض لقضية خطيرة بقوله (وعلينا أن نفوض الأمر فى الحديث ولا نحكمه فى عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب وبديل العقل) لأنهم رأوا أن ذلك سيفتح ثغرة ضد الثابت من السنة ، ويفتح كذلك بابا لقاله السوء فى الصدام بين الكتاب والسنة .

وفى هذا المقام أخرج البخارى فى صحيحه بسنده إلى الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : دعونى ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم^(١٥١) وهو حديث متفق عليه .

وروى أبو داود والترمذى بسندهما عن أبى نجيح العرياض بن سارية رضى الله عنه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون قلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع

(١٥١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج ١٣ ص ٢٥١ - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .

فأوصنا قال : (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وضلالة) حديث حسن صحيح^(١٥٢) .

وقد كان لما قاله الإمام محمد عبده بشأن الحديث الذي نحن بصدد الكلام عليه أثر كما يقول بعض العلماء حيث قالوا : إن ذلك كان سببا دافعا لتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا إلى القول بأن الأستاذ الإمام كان ضعيفا في الحديث^(١٥٣) .

وقد أجاب ابن قتيبة رحمه الله تعالى أيضا على من نفى وقوع السحر برسول الله ﷺ بعدة إجابات نعرضها فيما يلي :

إجابة ابن قتيبة على المنكرين

لواقعة سحره صلى الله عليه وسلم

الإجابة الأولى

يقول : إن الذين ذهبوا إلى إنكار وقوع السحر بالنبى ﷺ بحجة عدم موافقة الحديث المروى فى ذلك للعقل والنظر ، إن هؤلاء مخالفون للمسلمين وللإهود والنصارى وجميع أهل الكتب ومخالف للأمم كلها . فالهند مثلا وهى أشدها إيمانا بالرقى ، والروم والعرب فى الجاهلية وفى الإسلام ومخالف للقرآن ومعاند له بغير تأويل .

واستدل ابن قتيبة على قوله هذا ، بقول الله تعالى (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد) فأعلمنا أن السواحر ينفثن فى عقد يعقدونها كما يتفل الراقى والمعوذ^(١٥٤) .

(١٥٢) رياض الصالحين للنووى ص ٨٧ ط دار المأمون للتراث / دمشق ، والنواجذ : الأنبياء .

(١٥٣) الإمام محمد عبده ومنهجه فى التفسير للدكتور عبد الغفار عبد الرحيم ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ط .

(١٥٤) تأويل مختلف الحديث للإمام قتيبة ص ١٧٧ و ١٧٨ و ١٧٩ .

ولكننا لا نرى فى هذه الإجابة كفاية فى الرد على من أنكر تأثير السحر فى رسول الله ﷺ وهى تصلح أن تكون ردا على المعتزلة ومن الأهم فى إنكار السحر مطلقا ، وهى أقرب ما تكون إلى ذلك . لأن بعض العلماء استدل بتلك السورة الكريمة على إثبات حقيقة السحر مطلقا ولم يستدل بها على واقعة سحره ﷺ بالذات .

الإجابة الثانية

إن القائلين بإثبات وقوع السحر بالرسول ﷺ ليس لهم غرض فى ذلك إلا وجه الحقيقة ، فليس هذا مما يجر لهم نفعاً أو يصرف عنهم ضراً ، كما أنهم ليسوا كذابين ولا متهمين ولا معادين لرسول الله ، فما ينكر أن يكون لبيد بن الأعصم هذا اليهودى قد سحر رسول الله ﷺ ، وقد فعلت اليهود بالأنبياء ما هو أشنع من السحر ، وضرب ابن قتيبة لذلك أمثلة ومنها قوله : قتلت اليهود قبله زكريا بن أذن فى جوف شجرة قطعتة قطعاً بالمنشير ، وقتلت بعده ابنه بقول بغى واحتيالها فى ذلك ، وقد فعلت اليهود شنائع أخرى بالأنبياء ولو شاء الله عز وجل لعصمهم منهم ، وقد سم رسول الله فى ذراع شاة مسمومة مشوية وسمته يهودية فما زال يعاده حتى مات ، وكان ﷺ يقول : ما زالت أكلة خيبر تعادنى (١٥٥) فجعل لليهودية عليه السبيل لأن هذا من قبيل الابتلاء (١٥٦)

هذا ، وقد وجدنا واقعة السم هذه فى صحيح البخارى وفيه (ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخير) والحديث رواه عروة عن عائشة رضى الله عنها (١٥٧) .

الإجابة الثالثة

يستدل ابن قتيبة على جواز وقوع السحر بالأنبياء بقول الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته أى يبطل ما يلقي

(١٥٥) وفى رواية تعاوننى . أى بين الحين والآخر كعلة مرضية .

(١٥٦) تأويل مختلف الحديث للإمام ابن قتيبة ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(١٥٧) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج ٨ ص ١٣١ ، ١٠ ص ٢٤٥ .

الشيطان ، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض (١٥٨) ويضيف قائلا : فإن كانوا إنما أنكروا سحره عليه السلام لأن الله تعالى لا يجعل للشيطان على النبی سبيلا فليقرأوا هذه الآية ، وفى الايتين تعزية له عما ألقاه الشيطان على لسانه وفيهما أيضا أن الله يبطل ما ألقاه ذلك الشيطان (١٥٩) .

وهنا يتبادر إلى ذهن الإنسان سؤال : وهو : كيف يقتل الأنبياء مع القول بعصمتهم فضلا عن إيدائهم بالسحر أو غيره ؟

والجواب : أن الأنبياء بالنسبة لسنن الكون ونواميسه هم كغيرهم من سائر البشر ، ولو كان المراد من العصمة عدم قتلهم لما استطاع الكفار من اليهود وغيرهم قتلهم وإيداءهم ، وفى رأينا أن العصمة تكون فى القلب والعقل دون الجسد فيجرى عليه سائر الأعراض الدنيوية .

وقد أجاب الإمام القرطبي عن هذا بقوله : لقد خلق الله بين الأنبياء وبين القتل تحقيق كرامة الأنبياء وزيادة لهم فى منازلهم كمن يقتل فى سبيل الله من المؤمنين وليس ذلك بخذلان لهم . قال ابن عباس والحسن : لم يقتل نبى قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال وكل من أمر بقتال نصر (١٦٠) .

وأحب قبل أن أنتقل إلى الإجابة التالية أن أضيف إلى ما ذكر أ ما يبدو من كلام المفسرين كالقرطبي وابن كثير وغيرهم عند تفسيرهم لمعنى قول الله تعالى (والله يعصمك من الناس) (١٦١) أن العصمة من القتل بالذات كانت خصوصية ، من خصوصيات رسول الله ﷺ (١٦٢) .

هذا ، وقد أسهب المفسرون فى تفسير الآية وذكروا واقعة الأعرابي الذى كان يريد قتله وعصمه الله منه ، وأن الآية عندما نزلت أمر رسول الله ﷺ حراسه بالإنصراف من حراسته على ما سبق بيانه فيما مضى .

(١٥٨) سورة الحج الأيتان : ٥٢ و ٥٣ .

(١٥٩) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ١٨١ .

(١٦٠) الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٣٦٨ .

(١٦١) سورة المائدة الآية ٦٧ .

(١٦٢) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٣ ص ٢٢٤٠ ، ٢٢٤١ ، تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٧٨ ،

الاجابة الرابعة

يقول ابن قتيبة : إن إمكانية تعرض الشيطان للأنبياء وكيدهم لهم جائزة ويستدل على هذا بحديث رواه عن أبي الخطاب عن بشر بن المفضل عن يونس عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ (إن جبريل أتاني فقال إن عفريتاً من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فقل الله لا إله إلا هو الحي القيوم » حتى تختتم آية الكرسي » (١٦٣) .

ونلاحظ أن هذا الحديث الذي ذكره ابن قتيبة عن الحسن البصري حديث مرسل (١٦٤) لأن الحسن تابعي ، وقد اختلف العلماء فيه فمنهم من قال بحجيته ومنهم من لم يقل بذلك ومنهم من فصل في المراسيل بين كبار التابعين وعامتهم .

واستطرد ابن قتيبة في استدلاله على إثبات واقعة السحر بما حدث كذلك لنبي الله أيوب عليه السلام وحكاية القرآن الكريم في قوله تعالى (أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) (١٦٥) .

وبهذا يثبت جواز تعرض الشياطين للأنبياء وليس في ذلك ما يمنع منه . وإلى هنا انتهت إجابة ابن قتيبة في هذا المقام .

(١٦٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ١٨٢ .

(١٦٤) الحديث المرسل : هو ما سقط منه الصحابي وصورته أن يقول غير الصحابي : قال رسول الله ﷺ كذا أما حججه في الدين : فإن أكثر المحدثين على أنه ضعيف وهو مذهب الشافعي لجهالة حال من سقط منه ، ولذلك يقلل مرسل الصحابي لأنه لا يروى إلا عن صحابي مثله وجهالة الصحابي لا تضر لعموم عد التهم ، أما الائمة الثلاثة أبو حنيفة ومالك وأحمد في رواية عنه فإنهم يحتجون بالحديث المرسل بناء على ما ورد في خيرية التابعين فلا يمكن أن تقع الرواية مرفوعة منهم من غير سماعها عن الصحابي . ثم إن أكثر الفقهاء يقبلون المرسل إن اعتضد بوجه آخر مسندا أو بموافقة قول صحابي أو بفعل الصحابة أو بافتاء أكثر العلماء بمقتضاه أو بموافقة القياس . راجع الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير - تحقيق أحمد شاكر ص ٤٨ و ٤٩ ط دار الكتب العلمية بيروت ، والمقتصر من مصطلحات أهل الأثر لعبد الوهاب عبد اللطيف ص ٣٢ و ٣٣ - دار الكتب الحديثة .

(٦٥) سورة ص الآية ٤١ .

اعتراض آخر وجوابه بشأن واقعة سحره صلى الله عليه وسلم

هذا ، وأحب ألا أترك هذه المسألة قبل أن أرد على رأى لبعض المعاصرين^(١٦٦) فى نفيه وقوع السحر برسول الله ﷺ ، فقد نفى هذه الواقعة بعض المعاصرين واعتمد على هذا النفى بالأمور التالية :

الأمر الأول : إن سورة الفلق كما هو مقرر فى المصاحف التى بين أيدينا سورة مكية وواقعة سحر النبي ﷺ المدعى بها حدثت - كما يزعمون - فى المدينة فبطلت العلاقة بينهما .

الأمر الثانى : إن ابن جرير الطبرى وهو - كما يقول الكاتب - شيخ المفسرين بالإجماع لم يرو فى تفسير المعوذتين هذه القصة المنكرة ، مع أن منهاجه فى التفسير هو جمع كل ما روى منقولاً عن الصحابة والتابعين ، وعدم روايته لهذه القصة يدل على أن القول بها لم يكن معروفاً فى عصره أو أنه استهجن ذكره .

الأمر الثالث : إن قصة وقوع السحر هذه برسول الله ﷺ تعارض نص القرآن الكريم الذى ينفى وقوع مثل ذلك به عليه السلام حيث ندد القرآن بالكافرين القائلين فى قوله تعالى (إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً)^(١٦٧) .

الأمر الرابع : إن هذه القصة تنافى العصمة الواجبة للأنبياء لإبلاغ رسالتهم ، ولو صحت لكانت مدخلاً للشك فى صحة الوحي وتبليغه .

الأمر الخامس : إن القصة المزعومة تؤكد أن الساحر رجل وهو لبيد ابن الأعصم ، مع أن قوله تعالى (ومن شر النفاثات فى العقد) المراد الساحرات من النساء فما هى العلاقة بين لبيد بن الأعصم وبين الاستعاذة من النساء ؟

(١٦٦) هو السيد / احمد حسين فى مجلة مير الاسلام القاهرية العدد ١٢ لسنة ١٩٦٩ من ص ٢٠ - ٢٧ تحت عنوان (المعوذتان : السحر والحسد والجن ودفع فرية إسرائيلية)
(١٦٧) سورة الاسراء الآية ٤٧ .

الأمر السادس: إن البخارى الذى يتمسكون بروايته لم يربط بين هذه الواقعة وبين نزول المعونتين ولم يرد فى الحديث الذى رواه أية إشارة لسورتى الفلق والناس ، ثم إن هذا الحديث أحاد وهو يفيد الظن ، والظن لا يصلح أساسا لقيام العقيدة ، كما أن البخارى راوى الحديث رواه بصورة تضعفه وتوهن منه ، فنراه يزداد عليه ويحشى بما ليس منه ويبالغ فيه ، وبذلك روى بعدة روايات متناقضة ، وقد انتهى الكاتب بعد ما نكر ما تقدم إلى القول بأن الحديث مهدر ويجب إسقاطه^(١٦٨) وهو بهذا كالزيدية الذين ضعفوا الحديث^(١٦٩) .

ثم نكر نفس الكاتب رواية أخرى للحديث الذى يدعى إهداره وإسقاطه - وهذه الرواية عن الثعلبى وعلق عليها بقول ابن كثير فيه غرابة - ولم يقف الكاتب عند هذا الحد من ادعاءاته ومفترياته بل إنه طعن فقيها جليلا من فقهاء المسلمين له قدم راسخة فى خدمة قضايا الإسلام هو الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله ، طعنه طعنا وصل إلى حد نزاهته حيث اتهمه بالتعصب واستدل فى كلامه بأقوال للأستاذ الإمام محمد عبده فى هذا الموضوع .

هذه هى خلاصة ما اعتمد عليه الكاتب فى نفيه السحر برسول الله ﷺ ولنا ملاحظات وإجابات على جميع الأمور التى اعتمد عليها الكاتب ننكرها على التوالى لنرى كيف تسقط جميعها واحدا بعد الآخر ، وترى أيضا أن الكاتب كان جريئا بغير تمحيص ومعترضا بغير دليل ، ثم هو أخيرا أساء بالتورية للإمام البخارى وصراحة لابن القيم وهذه الأمور تتضح من إجاباتنا عليه على النحو الآتى :

(١٦٨) انظر ذلك فى مجلة منير الاسلام القاهرية العدد ١٢ لسنة ١٩٦٩ من ص ٢٤ : ٢٧ مقال لأحمد حسين .

(١٦٩) البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار للإمام المرتضى ج ٦ ص ٢٠٤ ، ومعروف أن الشيعة عموما لا يأخذون الحديث إلا إذا كان مرويا على لسان أئمتهم .

إجابتنا على ما تقدم

فعن الأمر الاول : تأتي هذه الإجابة عنه من وجهين :

الوجه الأول : إنه لا يلزم من كون السورة مكية أن تنتفي العلاقة

بينها وبين واقعة السحر، فما الذي يمنع أن تكون السورة مكية ثم كانت بعد ذلك علاجاً للسحر عامة ولسحر رسول الله ﷺ خاصة ، فالقرآن كله وحدة واحدة ، وقد قال الله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً)^(١٧٠) ولم يفرق بين المدني منه والمكي ، ثم إن القرآن الكريم منذ نزوله إلى أن أكمله الله تعالى كان ولا يزال وسيظل إلى أبد الأبدین شاملاً جامعاً يتناول جميع المصالح الإنسانية سواء كان مكيًا أو مدنيًا .

الوجه الثاني : إن قول الكاتب إن السورة مكية قول غير مسلم له ،

فسورة الفلق وأيضاً سورة الناس من السور المختلف فيها بين المكي والمدني بل إن عامة العلماء على أنهما من المدنيات كما روى عن ابن عباس ومجاهد^(١٧١) .

وحتى لو سلمنا أن السورتين مكيتان فيحتمل أنهما نزلتا بمكة بعد الهجرة فيكون وصفهما بأنهما مكيتان بناء على الرأي القائل بأن المكي من القرآن هو ما نزل بمكة ولو كان بعد الهجرة وهو رأي غير مشهور^(١٧٢) .

(١٧٠) سورة الإسراء الآية ٨٢ .

(١٧١) راجع الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٩ وما بعدها .

(١٧٢) جاء في الإتيان ما يشيع الرغبة في هذا المقام من حيث المكي والمدني في القرآن الكريم

وقد بين السيوطي أمرين هما :-

وعن الأمر الثاني :

وهو احتجاج الكاتب بأن الإمام الطبرى لم يذكر واقعة سحر النبي ﷺ فى معرض تفسير المعوذتين مع أنه شيخ المفسرين بالإجماع ، وأن منهجه هو كل ما روى عن الصحابة والتابعين وعدم روايته لها دليل على أنها لم تكن معروفة أو أنه استهجن ذكرها .

وفى رأينا أن هذا الذى ذكره الكاتب لا يصلح فى عرف الشرع حجة ولا دليلا على نفى وقوع السحر برسول الله ﷺ ، لأن الطبرى مجتهد من المجتهدين عاش فى القرن الثالث الهجرى وكان يعيش قبله ومعه وبعده علماء لهم وزنهم وثقلهم فسروا المعوذتين على أنهما كانتا علاجاً لرسول الله ﷺ مما وقع به من السحر ، وتواترت بذلك الأخبار فكون الإمام الطبرى لم يذكرها ليس دليلا على نفيها ولا يلزم منه عدم حدوثها وحتى لو كان فى نفسه شىء منها من حيث استهجان ذكرها لأشار

- الأمر الأول : من المتفق عليه أن السور المدنية عشرون سورة ، والمختلف فيه أننا عشرة سورة وما عدا ذلك مكى باتفاق ، وقد عقد السيوطى فصلا للمختلف فيه ، بين فيه إن المعوذتين من المختلف فيهما ، إلا أنه ذكر عن مجاهد - وهو من المبرزين فى التفسير - وعن ابن عباس - وهو ترجمان القرآن - أنهما قالا بمدينتهما ومن قال بمكيتهما قليل كالبيهقى فى دلائل النبوة بسنده عن عكرمة ، مع أن عكرمة يأتى فى الدرجة بعد مجاهد لأنه لم يلق ابن عباس . .

الأمر الثانى : إن اصطلاحات المكى والمدنى ثلاثة :

الاصطلاح الأول : أن المكى ما نزل بمكة قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أو بسفر من الأسفار وهذا هو أشهر الاصطلاحات الثلاثة .

الاصطلاح الثانى : أن المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدنى ما نزل بالمدينة أما ما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكى ولا مدنى .

الاصطلاح الثالث : أن المكى ما وقع خطابا لأهل مكة والمدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة والواقع أن هذه الاصطلاحات الثلاثة لم يرد فيها قول عن رسول الله ﷺ فيما اطلعنا عليه من المراجع - لأنه ليس من التكاليف الشرعية ، وإن كان يلزم العلماء خاصة معرفته ما أمكن ليعرفوا تاريخ النسخ والمنسوخ (راجع ما ذكرناه فى الإتيان للسيوطى ج ١ ص ٩ وما بعدها - والجامع لأحكام القرآن للقرطبى مجلد ١ ص ٣١ ط الشعب) .

إليها منوها بذلك كما فعل غيره من العلماء والإمام الطبري مجتهد من المجتهدين وليس معصوما ومن ثم يجوز عليه الصواب والخطأ وهذا هو الكلام المستقيم المبني على اليقين .

وعن الأمر الثالث :

وهو ما يذكره الكاتب من أن القول بوقوع السحر برسول الله ﷺ يعارض نص القرآن في قول الله تعالى (إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) (١٧٣) .

فقد سبق لنا أن بينا ذلك مفصلا في كتابنا هذا (١٧٤) فارجع إليه إن شئت .

وعن الأمر الرابع :

وهو احتجاج الكاتب بأن القول بثبوت هذه الواقعة يتنافى مع العصمة الواجبة للأنبياء فقد سبق أيضا أن قلنا إن ما وقع له ﷺ لم يتعد التخيل كما حدث ذلك لموسى وكل منهما لم يتصرف تصرفا واحدا يتسم بعدم الاعتدال كما لم يتكلم بكلمة من هذا النوع ، ومن ثم فإن التخيل لا يتعارض مع عصمة الرسل ، فهي متحققه لهم في كل حال بدليل أن التخيل الذي حدث لموسى لم يمنع من تلقيه الوحي وتنفيذه ما أمره الله به في الحال من إلقاء العصا ساعتئذ على بيناه من قبل وعلى هذا فإن العصمة بالنسبة لهم في قلوبهم وعقولهم وأرواحهم دون أبدانهم فتلك تخضع لسنن الكون .

أما عصمته ﷺ فهي كذلك ، ويضاف إليها أيضا عصمته من القتل وهي خصوصية للنبي ﷺ بالذات وذلك ما ذكره المفسرون في سبب نزول الآية (والله يعصمك من الناس) (١٧٥) .

(١٧٣) سورة الاسراء الآية ٤٧ .

(١٧٤) راجع فيما ذكرناه من أجوبة عن اعتراض المنكرين لواقعة سحره صلى الله عليه وسلم .

(١٧٥) راجع الجامع لأحكام القرآن مجلد ٣ ص - ٢٢٤٠ ، ٢٢٤١ ، تفسير القرآن العظيم لابن

كثير ٢ ص ٧٨ - ٧٩ .

وعن الأمر الخامس :

وهو قول الكاتب إن لبيد بن الأعصم هو الذى نسب إليه عمل ذلك السحر وهو رجل مع أن قوله تعالى (ومن النفاثات فى العقد) يبين أن القائم بالسحر نسوة ، وبناء على هذا لا علاقة بين لبيد وبين الآية .

ونرى أن الكاتب قد وضع نفسه فى دائرة ضيقة ، فقد فسر البيضاوى (النفاثات) فقال المراد بها النفوس لا النساء أى النفوس السواحر وهى تشمل الرجال والنساء^(١٧٦) .

وحتى لو سلمنا للكاتب بأن المراد بها النساء السواحر فهناك رواية لأبى عبيدة تقول : إن الذى قام بواقعة السحر تلك هن بنات لبيد بن الأعصم ونسب إليه السحر فى الحديث مباشرة باعتباره الرأس المدبرة والتي أشرفت على هذا العمل الخبيث ، وكثيرا ما ينادى الإنسان باسم أبيه أو قبيلته وليس فى ذلك تعسف كما يدعى الكاتب ، ولو سلمنا أيضا أن سورة الفلق لم تنزل بسبب واقعة السحر هذه فلا يلزم من ذلك نفى المقصود منها من علاج من كان به مسأ من جن أو سحر^(١٧٧) .

وعن الأمر السادس :

وهو اعتراض الكاتب بأن الامام البخارى لم يربط بين ما رواه فى ذلك وبين نزول المعوذتين ونحن نقول له : وهل كل ما جاء فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية من أحكام فيه الربط الذى يريده الكاتب ، ؟ إن الاسلام بأحكامه رسالة عامة تتناول نصوصه المصالح العامة بقواعد عامة فهو أوسع بكثير من أن يرتبط بواقعة بعينها ، فمثلا : يقول الله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)^(١٧٨) ونزلت

(١٧٦) تفسير البيضاوى ص ٨١٥ .

(١٧٧) تفسير المعوذتين لابن القيم ص ٢٦ ، فتح البارى ج ١٠ ص ٢٢٥

(١٧٨) سورة الإسراء الآية ٨٢ .

المعوزتان للاستعاذة بهما من شر كل مخيف فهل هناك ربط ظاهر بين الآية وبين المعوذتين ؟ ومن ثم فلا يلزم من عدم ربط واقعة السحر بالمعوذتين في الحديث المروى فيها نفى وقوع السحر برسول الله ﷺ .

ثم يستطرد الكاتب قائلا : إن الحديث آحاد وهو لا يفيد إلا الظن ، والظن لا يصلح لقيام العقيدة !! وكما ترى أن الكاتب يرتب مقدمات حسبما يرى ، لاستخلاص نتيجة مسلم بها ولكن لا حاجة لنا بها في هذا المضمار ، فكون الرسول ﷺ معصوما قضية مسلم بها شرعا ، أما أن يدخل ما وقوع به من سحر في باب العقائد - كما يقول الكاتب - فهذا غير صواب بدليل أن من قال بثبوت سحره لا يكفر ، ومن أنكّر ذلك لا يكفر أيضا ، فأين وجه دخول هذا في باب العقائد ، ثم إن ما وقع له من باب الأمراض ، ومن السحر ما يمرض ، والتخييل الذي حدث لم يؤثر إطلاقا على مناطق الوحي فيه (العقل والروح والقلب) كما وقع لموسى عليه السلام ولم يكن كل منهما مؤثرا ، ولم يقل واحد من العلماء جميعا أن السحر تطرق إلى عقله ﷺ .

ومن الغريب أن يحاول الكاتب أن يسبغ على الحديث الذي أورده البخارى والذي نحن بصدد وصف الاضطراب ، وإن كان لم يصرح بهذا حيث قال (إن البخارى قد رواه بصورة تضعفه وتوهن منه ، فقد روى بعدة روايات متناقضة) وذكر الكاتب ثلاث روايات للبخارى في الحديث المذكور ، كما ذكر روايتين لكل من الإمام أحمد والثعلبى لنفس الحديث وانتهى في نهاية الأمر الى إهدار الحديث واسقاطه .

وأود ألا أسعى الى ما سعى اليه الكاتب من قبل فى كون اعتبار الطبرى شيخ المفسرين دليلا شرعيا أن أقول مثلا عن مكانة الامام البخارى فى عالم العلماء الخ ذلك فليس هذا أسلوبا علميا ، وإنما أسعى فى مناقشته الى الأسلوب العلمى فى قضية خطيرة كنتك التى نتكلم عنها : إن رواية الحديث بعدة روايات لا يمكن أن تكون أساسا لإهداره طالما أنه يمكن الجمع بين الروايات جميعها ، وكان على الكاتب أن يتحرى الدقة فى حكمه على حديث كهذا مروى فى أصح كتب الحديث ، أو إذا لم يمكنه ذلك لا عيب إطلاقا فى أن يسأل أهل الذكر من علماء الحديث

حتى يأتي عمله خاليا مما أوقع فيه نفسه ، وهذا يجرنا إلى أن نوضح الحديث المضطرب حتى لاندع المجال لمن يقول بالتشهي والهوى :

الحديث المضطرب : هو الحديث الذي رواه الثقة أو الثقات على أوجه مختلفة في متنه أو في سنده متساوية في الصحة وله صورتان :
أ - الصورة الأولى : أن يروى الحديث راو ثقة على أوجه مختلفة من جهة لفظه أو معناه أو سنده بمعنى إثبات راو أو حذفه

ب - الصورة الثانية : أن يروى الحديث رواة ثقة على أوجه مختلفة من جهة لفظه أو معناه أو سنده بحيث يرويه كل واحد على وجه يخالف الوجه الذي رواه الآخر . ويشترط لوصف الحديث بالاضطراب شرطان :

الشرط الأول : أن تكون الأوجه متساوية .

الشرط الثاني : ألا يمكن الجمع بين الأوجه المختلفة ، فإن أمكن زال وصف الاضطراب^(١٧٩) والحديث المروى عن هشام بن عروة في وقوع السحر برسول الله ﷺ ليس من هذا الوادى بل هو حديث صحيح سندا ومتنا ، ولم يقدح أهل الحديث في هشام ثم إن إمكانية الجمع بين روايات الحديث واردة ، وقد سبق لنا بيانها تفصيلا فيما مر أنفا .

ومما ذكرناه يتضح أنه لا وجه للكاتب في جميع ما اعتمد عليه من أمور في نفى واقعة السحر بالنبي ﷺ ، وكان على الكاتب ألا ينساق في الطعن على العلماء الأجلاء الذين وقفوا حياتهم لخدمة العلم وبيان ما جاء في الاسلام من أحكام لجميع البشرية تقربا الى الله تعالى لا سعيًا وراء سمعة أو شهرة أو منصب أو سلطان ، بل كانت حياتهم لله خالصة ، فهم الذين جابوا الصحارى والوديان ولقوا من المشقات ما تنوّ به جعبة الأبطال ، هذا فضلا عما لقوه من إغاثات الحكام الذين لم يتقوا الله فيهم فصبروا وصابروا واحتسبوا الى أن استأثرت بهم رحمة الله تعالى راضيين مرضيين بما قدموا من أعمال جليلة يصعب وصفها وحصرها .

(١٧٩) راجع مصطلح الحديث للمرحوم الدكتور إبراهيم الشهawy ص ٣٤ - الطباعة المحمدية ،
الباعث الحثيث لأبر كنيز ص ٧٢

والامام البخارى وابن القيم وغيرهما من جملة هؤلاء العلماء الأبطال ، فغير مقبول من الكتاب على الإطلاق أن يحمل هذه الحملة المسفة التى يصف فيها ابن القيم بالتورط والانزلاق والتعصب ، إن الكاتب قد أساء إلى نفسه إساءة سوف يحاسبه الله عليها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، فابن القيم من أئمة المسلمين العظام ، وليعلم الكاتب وغيره من المسلمين أن جميع العلماء المثبتين لواقعة سحر الرسول ﷺ وكذلك المنكرين لها ، جميعهم ينزه رسول الله ﷺ عن كل ما من شأنه أن ينقص من قدره العالى عليه الصلاة والسلام .

أدلة أصحاب الرأى الثانى (القائلون بإنكار السحر)

استدل المنكرون لحقيقة وجود السحر وثبوته بدليلين أحدهما نقلى والآخر عقلى وهما :

الدليل الأول

وهو عبارة عن نخبه من الآيات القرآنية منها : قول الله تعالى :
فلما ألقوا سحرروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم (١٨٠) .
ومنها قوله تعالى عن موسى (يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى) (١٨١) .

ومنها قوله تعالى أيضا (إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) (١٨٢) .

ووجه الاستدلال بهذه الآيات الكريمة أن السحر عبارة عن تمويه وحيل وتلبيس لا حقيقة له - فى رأيهم - فالسحرة فى الآية الأولى حاولوا إرهاب الناس وتخويفهم بغير حقيقة وبرهان فعلى ، وفى الآية الثانية

(١٨٠) سورة الأعراف الآية ١١٦ .

(١٨١) سورة طه الآية ٦٦ .

(١٨٢) سورة طه الآية ٦٩ .

يحكى القرآن أنه يخيل الى موسى أن الحبال تسعى وهى لا تسعى على سبيل الحقيقة ، وفى الآية الثالثة : يكشف القرآن عما قاموا به من عمل ، فالذى قاموا به هو عبارة عن مكاييد لا سبيل لها الى الحقيقة ، ولذلك لا فلاح للسحرة حينئذ .

يقول ابن كثير : فكان أول ما اختطف سحرة فرعون بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس حيث ألقى كل رجل منهم ما فى يده من الحبال والعصى فإذا هى حيات كأمثال الحبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا حتى جعل يخيل الى الناس من سحرهم أنها تتحرك وتسعى فى كل اتجاه ، ولهذا قال سبحانه يصف الموقف يومها (وجاءوا بسحر عظيم) (١٨٣) .

مناقشة هذا الدليل

نقول للمنكرين لحقيقة السحر إن الآيات الكريمة التى استدللتم بها فى الدليل لا حجة لكم فيها لأننا لا ننكر أن يكون التخيل وغيره من جملة السحر ، لكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع ، ولو لم يكن للسحر حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر الله تعالى أنهم يعلمونه الناس فدل على أن له حقيقة فى عالم الحس والذوق . فالسحر سحران : سحر حقيقى وسحر مجازى .

(١٨٣) تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٢٣٧ ، وقال صاحب المنار : واسترهبوا أى أوقعوا فى قلوبهم الرعب والخوف وأصل الاسترهاب : محاولة الإرهاب ، وطلب وقوعه بأسبابه ، وقد قصصوا ذلك فحصل ، والسحر العظيم هنا : المراد به السحر والمظهر الكبير وتأثيره فى أعين الناس كان عظيما ، وقال القرطبي : إنه كان كثيرا وليس بعظيم على الحقيقة وفسر ابن عباس كيفية ذلك فقال ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طولا ، وقد اختلف العلماء اختلافات كثيرة فى عدد السحرة حينئذ فمنهم من قال كانوا خمسة عشر ألفا ، ومنهم من قال أقل من ذلك ومنهم من قال أكثر .

والحق أن القرآن الكريم لم يفصح عن عددهم والمفهوم من السياق القرآنى أنهم كانوا كثيرين وعلم عددهم مرده الى الله تعالى حيث لا دليل على هذه التقديرات ، ولا حاجة لنا الى معرفة العدد ، ولو كان فى ذكره فائدة لبينها القرآن ، وقال أبو بكر الرازى : إن اسم السحر متى اطلق فهو اسم لكل أمر موهوم باطل لا حقيقة له ولا ثبات ، واستدل بقوله تعالى (سحروا أعين الناس) يعنى موهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى ، وسنذكر فيما بعد كيف تم ذلك للسحرة إن شاء الله فى موضعه .

راجع فيما ذكرناه : تفسير القرآن الحكيم ج ٩ ص ٦٦ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ٣ ص ٢٦٩٥ أحكام القرآن للجصاص ج ١ ص ٤٢ و ٤٣ ، تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٢٣٧

ثم إن الآيات التي وردت في قصة موسى وفرعون كلها تشير إلى أن السحر لم يكن على سبيل الحقيقة الثابتة بل إنه من قبيل التخيل والتخويف والتلبيس على موسى خاصة وعلى الناس عامة وكان منه نوعان من الإرهاب المخيف لموسى حتى ينثنى عن دعوته ، ومن ثم فنحن نوافق المنكرين لحقيقة السحر على هذه الآيات القرآنية وأن السحر من هذا النوع لا حقيقة له ولا وجود بل هو ضرب من الحيل والخداع ، أما أن تصلح أدلتهم لإنكار جميع أنواع السحر بالكلية فهذا غير مسلم لهم ، والا فماذا يقولون في سورتي الفلق والناس ؟ وماذا يقولون في آية سورة البقرة (واتبعوا ما تتلوا الشياطين ... الخ) وكذلك الحديث المروى عن هشام بن عروة في أصح كتب الحديث ؟ وغير ذلك مما ذكرناه ونذكره فيما بعد .

ثم إنه من الملاحظ على المنكرين أنهم لم يتعرضوا في استدلالهم لما ذكرناه من المعوذتين وآية البقرة والحديث المروى عن هشام ولم يقولوا رأيهم في ذلك فما قولهم في هذه الملاحظة ؟
وأخيرا نقول : لو لم يكن للسحر حقيقة لا مرية فيها ما أمرنا الله أن نستعيز من شره لاسيما وأن القرآن أثبت صراحة أن السحر ضار وذكر بعض ضرره وهو التفريق بين الرجل وحريره .

الدليل الثاني

وهو دليل عقلي : قالوا فيه : إنه لو أمكن للإنسان بمعاونة الشياطين إظهار الخوارق^(١٨٤) لاشتبه هذا بطريق المعجزة ، وأضافوا : إن من صدق بهذا فليس يعرف النبوة ولا يأمن أن تكون معجزات الأنبياء من هذا النوع وأنهم كانوا سحرة وإلا فماذا يتميز النبي عن الساحر^(١٨٥) .
هذا ، وقد أجاب بعض العلماء على هذا الدليل بأن العادة تنخرق على يد النبي والولي والساحر ولكن النبي يتحدى بها الخلق ويستعجزهم عن مثلها ويخبر عن الله تعالى بخرق العادة له لتصديقه فلو كان كاذبا

(١٨٤) بناء على قول أكثر العلماء بأن السحر خارق للعادة خلافا لبعضهم الذين قالوا : إنه يشبه الخارق وليس به .

(١٨٥) أحكام القرآن للجصاص ج ١ ص ٤٩ ، تفسير القرآن الحكيم ج ٩ ص ٥٨ ، نيل الأوطار ج ٧ ص ٣٦٦

لم تنخرق العادة على يديه ، أما الوالى والساحر فلا يتحديان الخلق ولا يستدلان على نبوة ولو ادعيا شيئا من ذلك لم تنخرق العادة لهما . أما الولى فهو العبد الظاهر الصلاح تنخرق له العادة تكريما له . وأما الساحر فهو شخص خبيث النفس ظاهر الفسق^(١٨٦) وسنوضح كل ذلك بجلاء عند الكلام عن الفروق فى موضعه ، إن شاء الله .



(الفصل الثالث)

أنواع السحر وتأثيره والأمور التي تتخرق لها العادة :
وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : السحر الحقيقي وأنواعه وتأثيره

الواقع أن السحر قد ورد الكتاب الكريم بذمه بقوله تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى)^(١) وورد كذلك في السنة ، وقد عده رسول الله ﷺ من الكبائر في قوله (اجتنبوا الموبقات الشرك بالله والسحر)^(٢) .

غير أن الكتب الموضوعة في السحر ، وضع فيها هذا الاسم (السحر) على ما هو كذلك كفر وكبيرة ، وأيضاً على ما ليس كذلك ، والسحرة أنفسهم يطلقون لفظ السحر على القسمين الحقيقي منه وما ليس بحقيقي ، وهنا لابد من التعرض للقسمين وما يشتمل عليه كل منهما من أنواع ، فإطلاق الكفر على السحر ، وأن الساحر كافر هو إطلاق قريب من حيث الجملة . لكنه إطلاق غير دقيق لأنه عند الفتيا في جزئيات الوقائع يقع فيه الغلط العظيم الذي يؤدي إلى هلاك المفتي ، ولعل السبب في ذلك هي الصعوبة التي تعتري المفتي حينئذ وهي تحديد ماهو السحر وما هي حقيقته حتى يقضى بوجوده على كفر فاعليه .

ولنضرب لذلك مثلاً : إذا قلت لمن تستفتيه من العلماء : السحر والرقى والخواص والسيمايا والهيمايا وقوى النفس شيء واحد وكلها سحر أو بعضها سحر والبعض الآخر ليس كذلك ، فإن قال لك الكل سحر ، يلزمه أن سورة الفاتحة تكون سحراً لأنها رقية ، وإن قال بل لكل واحدة من هذه خاصية تختص بها فيقال له بين لنا خصوص كل واحد منها وما به يمتاز ، وهذا لا يكاد يعرفه أحد من المتعرضين للفتيا ، فكيف يسوغ إذن لأحد أن يحكم على أحد بالكفر بمجرد مباشرة شيء معين بناء على أن ذلك سحر ، وهو لا يعرف السحر ما هو ، فإن فعل فقد أقدم وتجراً على شريعة الله بجهل وعلى عباده بالفساد من غير علم ، صحيح أن من

(١) سورة طه الآية ٦٩

(٢) صحيح البخارى ج ١٠ ص ٢٣٢ كتاب الطب باب السحر

يرتكب شيئاً من هذا الباب لا يفلت من شرعية العقوبة لكنها لا بد أن تكون متميزة محددة ، هل ما ارتكبه من السحر بواسطة أعمال الكفر ؟ أم أنه ارتكب كبيرة محرمة بعيداً عن الكفر ؟ أم أقل من ذلك ؟^(٣) .

ومن ثم فقد بات الأمر ذا خطورة ولا بد من بيان ما هو كفر من غيره وسنقف بك إن شاء الله تعالى على الحقيقة ، وقد تتبعت أقوال العلماء فى السحر فوجدتهم يقسمونه الى تقسيمات تبلغ الثمانية ووجدت أن من بين التقسيمات ما هو سحر حقيقة وما أطلقنا عليه هنا (السحر المجازى) ومن ثم جعلت السحر قسمين رئيسين وسنتكلم عن كل منهما بما فيه الكفاية :

(السحر الحقيقى)

وهذا القسم من قسمي السحر هو الذى يترتب عليه كفر الساحر أو عدمه - وهو ينقسم الى أنواع ثلاثة هى :

النوع الأول : السحر الذى يستعان فيه بالكواكب والأجرام السماوية .

ومنه سحر الكلدانيين وأهل بابل وغيرهم ، وهؤلاء كانوا قوما صابئين فى قديم الدهر يعبدون الكواكب السبعة ويسمونهم آلهة ، ويعتقدون أنها المدبرة للعالم وأن حوادث العالم كلها من أفعالها ، ومنها يصدر كل مظهر خير وشر ، وهم معطلة لا يعترفون بالصانع الواحد المبدع للكواكب ، وجميع الأجرام السماوية ، وقد بعث الله تعالى إليهم إبراهيم عليه السلام فدعاهم الى الله وحاجهم وأبطل مقالتهم ، وقد قسمهم بعض العلماء الى أقسام ثلاثة :

الأول : وهم الطائفة الذين يزعمون أن الأفلاك والكواكب واجبة الوجود لذواتها غنية عن موجد ومدبر وخالق وهؤلاء هم الصابئة الدهرية .

الثانى : وهم الطائفة القائلة بالهية الأفلاك الذين زعموا أنها هى المؤثرة للحوادث باستدارتها وتحركها فعبدها وعظموها ، واتخذوا لكل

(٣) راجع فيما كتبناه الفروق للقرافى ج ٤ ص ١٣٥ و ١٣٦ .

واحد منها هيكلًا مخصوصًا وصنما معينًا واشتغلوا بخدمتها ، فهذا دين عبدة الأصنام والأوثان .

الثالث : وهي الفرقة التي تدعى أن لهذه النجوم والأفلاك مختارا أوجدها بعد العدم إلا أنه تعالى أعطاها قوة غالبية نافذة في هذا العالم وفوض تدبيره إليها^(٤) .

ويلحق بهذا النوع من السحر ما يسمى بالطلسمات^(٥) حيث تتعلق هذه الطلسمات بنفس أسماء خاصة وهذه الأسماء لها تعلق بالأجرام السماوى من جهة ، ومن جهة أخرى بأجسام من المعادن أو غيرها ، تحدث لها آثار خاصة - على حد قولهم - ربطت بها في مجارى العادات ومن ثم فلا بد لانعقاد الطلسم من ثلاثة أمور :

الأمر الأول : الأسماء المخصوصة ولا بد أن تكون منقوشة على جسم من الأجسام .

الأمر الثانى : أن تكون هذه الأسماء متعلقة ببعض أجزاء الفلك .

الأمر الثالث : أن تكون فى جسم من الاجسام .

هذا وقد ذكر صاحب فتح البارى أنه قد وجد تمثالاً من الشمع لرسول الله ﷺ كما جاء فى رواية عمرة عن عائشة وكان نوعا من الطلسم^(٦) .

ويلحق به أيضا الأوقاف العددية وهي ترجع إلى المناسبة بعد الأعداد ، وهذه تكون على شكل مخصوص على صورة مربع متساوى الأضلاع ويكون هذا المربع مقسما الى بيوت ويوضع فى كل بيت منها عدد معين حتى تكتمل البيوت بحيث إذا جمع ذلك المربع من أضلاعه المختلفة يكون مساويا فى العدد لما فى بقية الأضلاع^(٧) .

(٤) مفاتيح الغيب للرازى د ١ ص ٤٤٣ ، فتح البارى د ١٠ ص ٢٢٢ ، الزواجر لابن حجر الهيثمى د ٢ ص ١٠١ ، حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٠ .

(٥) الطلسمات : هي أسماء خاصة لها تعلق بالأفلاك والكواكب على زعم أهل هذا العلم . راجع الفروق د ٤ ص ١٤٢ .

(٦) فتح البارى د ١٠ ص ٢٣٠ .

(٧) الفروق للقرافى د ٤ ص ١٤٣ و ١٤٤ .

والسبب فى استخدام السحرة للكواكب أنهم زعموا أن للكواكب إدراكات روحانية قوبلت الكواكب ببخور خاص ولباس خاص من السحر المستخدم لها مع إقدامه على أفعال خاصة منها ما هو محرم شرعا كاللواط ، ومنها ما هو كفر صريح ونفس الحال بالنسبة للألفاظ التى يخاطب بها الكواكب منها ما هو كفر صريح كان يناديها بلفظ الإلهية والتعظيم ونحو ذلك ، ومنها ما هو غير محرم على قدر تلك الكلمات الموضوعية فى كتبهم ، فإذا حصلت تلك الكلمات مع البخور مع الهيئات المشتركة كانت روحانية ذلك الكوكب مطيعة له متى أراد شيئا فعلته له - على حد زعمهم - وشروط هذه الأمور مستوعبة فى كتبهم لكن الغالب عليهم الكفر ، ولا يمكن أن يشتغل بهذه الأمور من كان عنده ذرة من دين أو ضمير^(٨) .

ويدخل أيضا فى هذا النوع ما يسمى بالهيمياء^(٩) لتعلقها أيضا بالأجرام السماوية وطريقة سحرهم بالنسبة للكواكب - مع ما ذكرناه من قبل - أنهم يرصدون الكواكب فى منازلها ولها طبائع نحس وسعود فإذا اقترن زحل بالقمر مثلا فى وقت كذا يعمل كذا ولهم عزائم يتلونها ولهم فيها الرياضات الخاصة التى أوضحناها على قدر الاستطاعة ، فهم يمارسونها بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانياتها كأن يخضع للكواكب ويناديها متقربا إليها يا سيدها وياعظيماه أنت الذى تدين إليك الملوك والجبابرة ... الخ والعياذ بالله تعالى .

وبالجملة : فإن السحر الذى تستخدم فيه الكواكب وسائر الأجرام السماوية هو سحر يستعان فيه بقوة الحروف الهجائية والأعداد وخواصها فضلا عن تلك الأجرام السماوية وذبذبتها وهذا النوع هو أصعب أنواع السحر ، ونحمد الله تعالى أن ذلك النوع لا يقدم عليه الآن ساحر لأنه يتطلب منه معرفة كبيرة صحيحة بكل ما يتصل بالكواكب واقتنائها وصعودها وهبوطها وأمزجتها وطبائعها ومقارنة كل هذا

(٨) راجع الفروق ح ٤ ص ١٤٨ .

(٩) الهيمياء : وهى تلك التى تعمل بالآثار السماوية من الاتصالات الفلكية وغيرها وسبق شرحها .

بالحروف والأعداد التي يستعملها وقيمة كل منها وغير ذلك مما يحتاج الى معادلات جبرية ، ومعرفة المجاميع والتوفيق وحسابات هندسية وفلكية يستحيل أن يلم بها أى ساحر ، لأن كل السحرة الآن جهلاء ليس فى وسعهم ذلك غالبا^(١٠) يضاف الى ما تقدم أن هذا النوع من السحر وبهذا النمط الخطر يستلزم من فاعله غاية الحيلة والحذر خاصة عند استخدام الحروف والأرقام المعينة والتي أدت الى ظهور الاختراعات المفيدة لأنه بدون الأرقام وما فيها من سر خاص لا يمكن لعالم الطبيعة أو الكيمياء التوصل الى أى من الاختراعات التي نراها ونشاهدها وإلا أنت وبلا شك بضرر كبير يعود على مستخدمها .

النوع الثانى : سحر تسلط الروح ويكون من أهل النفوس القوية ، ذلك لأن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب الى عالم السموات كانت كأنها روح من أرواح السموات فتكون لها القوة المؤثرة فى المواد المادية لهذا العالم ، وهو ما يسميه بعض العلماء^(١١) بخواص النفوس وهو نوع خاص من الخواص المودعة فى العالم ، فالحيوانات طبائع مختلفة حتى لا تكاد تتفق بل تقطع أنه لا يستوى اثنان من الأناسى فى مزاج واحد ويبدل على ذلك أنك لاتجد أحدا يشبه أحدا من جميع الوجوه ، ولو عظم الشبه لا بد من فرق بينهما ، ومعلوم أن صفات الصور فى الوجوه وغيرها تابعة للأمزجة ، فلما حصل التباين فى الصفات على الاطلاق وجب التباين فى الأمزجة على الاطلاق ، فهناك النفوس التي طبعت على الخير ، والأخرى التي طبعت على الشر ومن ذلك الأذى بالعين ، ولذلك تجد من لا يخطيء فى الرمل وآخر لا يخطيء فى أحكام النجوم وآخر لا يخطيء فى علم الكف وهكذا ، لأن نفس كل واحد منهم طبعت على ذلك ولم يطبع على غيره لا لشيء فى الرمل أو النجوم أو الكف أو غيره بل هى خواص نفوس ، بل إن بعض هؤلاء يجد صحة أعماله فى ذلك وهو شاب ، فإذا صار كبيرا فقدھا ، لأن القوة نقصت عن تلك الحدة التي كانت عليها فى الشبوبة^(١٢) .

(١٠) السحر لابراهيم الجمل ص ٥١ و ٥٢ مكتبة القرآن ١٩٨٢ .

(١١) الفروق ح ٤ ص ١٤٥ .

(١٢) نفس المصدر ١٤٥ ، ١٤٦ .

ومن خواص النفوس ما يقتل ، ففي الهند جماعة إذا وجهوا أنفسهم لقتل شخص مات ويشق صدره فلا يوجد فيه قلبه ، بل انتزعوه من صدره بالهمة والعزم وقوة النفس ، وخواص النفوس كثيرة لا تعد ولا تحصى واليه الإشارة بقوله عليه السلام : (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة)^(١٣) إشارة إلى تباين الأخلاق والخلق والسجايا والقوى كما أن المعادن كذلك .

قال ابن خلدون في هذا المعنى : النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الصنف الآخر ، وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها ، فنفوس الأنبياء عليهم السلام لها خاصية تستعد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة ، وبناء على ذلك فتأثير الأنبياء هو مدد إلهي وخاصية ربانية .

أما نفوس الكهنة فلها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر ، وهذا ما يسميه الفلاسفة السحر^(١٤) .

ومن قبيل التأثيرات النفسية الإصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعيان عندما يستحسن بعينه مدركا من الذوات أو الأحوال ويفرط في استحسانه وينشأ عن هذا الاستحسان حينئذ أنه يروم معه سلب ذلك الشيء عن اتصف به فيؤثر فسادا وصاحب تلك العين مجبول ومفطور على هذا . لكن الاسلام عالج تلك النفس حتى إذا ما وقعت عينه على شيء استحسنته عليه أن يذكر الله سبحانه وينطق بالبسملة حتى لا يصيب الشخص بسهم عينه .

وهذا النوع من السحر يعتقد مستخدمه أن روحه تبلغ بالتصفية في القوة والتأثير الى حيث يقدر على الإيجاد والإعدام وتغيير البنية والشكل وهذا ما يسمى بتصرف الحال وهي قسمان :

(١٣) نفس المرجع .

(١٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٢ .

القسم الأول : حال صحيحة شرعية وهى كرامات الأولياء الثابتة لهم بنص القرآن^(١٥) .

القسم الثانى : حال فاسدة لايمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله فهذه حال الأشقياء المخالفين للشرعية وهم أصحاب الأوهام المقصودون هنا^(١٦) .

النوع الثالث : السحر الذى يستعان فيه بالأرواح الأرضية ، والمقصود من الأرواح الأرضية هنا هم الأرواح الشريرة^(١٧) وهؤلاء بمجرد أول اتصال بهم يحضون الساحر على فعل الشر باستمرار الى أن ينقلب من إنسان الى شيطان محترف ، ولذلك سمي الله تعالى هذا النوع من البشر بالشياطين فى قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحى الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون)^(١٨) ويؤكد هذا المعنى فى موضع آخر فى قول الحق سبحانه (ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض ...) الخ الآية^(١٩) .

والجدير بالذكر أن الأرواح الأرضية بطبيعة خلقهم قادرة على سرعة الحركة عالمة مدركة للجزئيات والاتصال بها أسهل من الاتصال بالأرواح العلوية ، ويحصل ذلك الاتصال باستخدام الرقى غير المشروعة كرقى الجاهلية كما كان فى الهند وغيرها ، وربما كانت تلك الرقى كفرا .

(١٥) هذه حال الأولياء المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله المتجنبون للكبائر وليس لهم صلة بالسحر .

(١٦) هذه هى حال النفوس الخبيثة الشريرة وهى المعنية هنا فى هذا الكتاب .

(١٧) الجن قسمان : أرواح خيرية وأرواح شريرة ، فالأرواح الخيرية لايعينون على الحرام وليس لهم بالسحر صلة اللهم إلا إذا كان حلالا ويعين عليه فى حله عن المسحور ، أما الأرواح الشريرة فهؤلاء هم المردة والشياطين من الجن ، يعينون على أعمال الكفر بكل أنواعها والحرام بكل أساليبه . .

(١٨) سورة الأنعام الآية ١١٢ .

(١٩) نفس السورة الآية ١٢٨ .

ولذلك نهى العلماء عن الرقى بغير العربية لاحتمال أن يكون فيها محرم كما يحصل بالعزائم وهى كلمات يزعم بعض الناس أن سليمان عليه السلام تمكن من الجان بها ، وكذلك الدخن^(٢٠) ثم يعقب ذلك عملية تسخير الجان الشرير .

لكن من المهم أن يعرف القارئ كيف يصل حال الإنسان الذى يتعلم السحر ويتصل بالجن أنه إنسان تخلى عن إنسانيته ودينه بالكلية ، حيث إنه لابد أن يفعل كل ما يقربه من الشيطان حتى يأمر له بمن يستعين به فى سحره فمثلا يستمر جنبا ويذهب إلى الأماكن الموحشة كالصحارى والقفار والقبور وشواطئ الأنهار ليلا ويجلس ينادى الشيطان بقوله (ياسيده يا عظيماه) الخ ويتلو تعاويذ كفرية ويمسك بصنم فى يده ليعظم الشيطان فى صورة ذلك الصنم ويستخدم بعض الحيوانات ليزبحها تقربا إلى الشياطين ، وأخيرا يمتن الشيطان كرامته فى عرضه كاللواطه الى غير ذلك مما لا نذكره معنى بعد هذا^(٢١) .

(السحر المجازى)

إن هذا النوع فى واقع أمره ليس سحرا ، وإنما أطلقنا عليه كلمة السحر مجازا لا حقيقة لكونه نوعا من التضريب والتخييل والتمويه سواء بالكلمة أو باستخدام مواد هندسية أو كيميائية أو غيرها ولهذا وافقنا من ينكر حقيقة هذا القسم من السحر ، أما ما ينكرونه من السحر كلية فلا حق معهم فى هذا الإنكار بعد ثبوت الأدلة والبراهين القاطعة على أن هناك سحرا حقيقة لا مرية فيه وهذا القسم تحته عدة أنواع نذكرها على النحو التالى :

النوع الأول : وهو ما تستخدم فيه الآلات الهندسية والمواد الكيميائية فالأولى كالصور التى يصورها أهل الروم والهند ويركبوها تركيبا هندسيا على شكل مخصوص يتحير الناظر فيها ولا يستطيع أن يفرق بينها وبين الإنسان وكانوا يصورونها ضاحكة وباكية وما إلى ذلك ،

(٢٠) الدخن بضم الدال : أنواع المحروقات التى يصير لونها أكثر فى سوار . راجع دخن فى المعاجم .

(٢١) كتاب السحر لابراهيم الجمل ص ٥٩ - ٧٢ .

أما الثانية فكاستعمال الزئبق^(٢٢) كحيلة للتمويه والتخيل، كما حدث من سحرة فرعون حين وضعوا هذه المادة على الحبال فلما حميت تحركت - على رأى بعض المفسرين - وهذا شأنها ولذلك أكدها القرآن في قول الله تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى)^(٢٣) وسماها الله سحرا لأنها بيان عمل جيد يخفى على كثير من الناس ، ومما يزيد تأكيد ذلك قوله تعالى (إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى)^(٢٤) .

النوع الثانى : التخيلات والأخذ بالعيون بما يذهل أذهان الناظرين
إليه ويدهشهم ويأخذ عيونهم ، ذلك أن أخلاط البصر كثيرة ولا بد لكل علم أن يشتمل على ظاهر وخفى فالجلى منه يعرفه كل من راه وسمعه من العقلاء ، والغامض الخفى لا يعرفه إلا أهله ومن تعاطى معرفته وتكلف فعله والبحث عنه وذلك نحو ما يتخيل راكب السفينة إذا سارت فى النهر فيرى الشط بما عليه من النخيل والبنيان سائرا معه ، وكما يرى القمر فى مهب الشمال يسير مع الغيم فى مهب الجنوب وكدوران الدوامة فيها الشامة فيراها كالطوق المستدير فى أرجائها ونظائر ذلك كثيرة ، ومن لطيف ذلك ودقيقه ما يفعله المشعوذون من جهة الحركات وإظهار التخيلات على غير حقائقها ونحو ذلك^(٢٥) .

النوع الثالث : الاستعانة بخواص الأدوية سواء كانت فى الأطعمة والمشروبات أو دهانات مركبة من خواص معينة ، وهذا ضرب من الاحتيال يقوم به من يدعى السحر فيعطيه للشخص المراد كأن يطعمه بعض الأدوية المبلدة المؤثرة فى العقل أو يدخل مسكرا فى المأكول أو المشروب حتى إذا ما تعاطى الضحية هذه الأشياء قلت فطنته وخرج عن حد الاعتدال فى عادته فيقول الناس إنه مسحور ، والواقع أنه عقار معين هو الذى سبب له تلك الحال^(٢٦) .

(٢٢) الزئبق : مادة فسفورية كيميائية تتأثر بالحرارة فتتحرك إذا حميت .

(٢٣) سورة طه الآية ٦٦ .

(٢٤) نفس السورة الآية ٦٩ .

(٢٥) الزواجر لابن حجر الهيتمي د ٢ ص ١٠١ ، أحكام القرآن للجصاص د ١ ص ٤٥ .

(٢٦) أحكام القرآن للجصاص د ١ ص ٤٨ ، الزواجر لابن حجر د ٢ ص ١٠١ .

النوع الرابع : السعى بالنميمة والوشاية بين الناس الذى ينجم عنه بلبلة فى الفكر بحيث يستطيع بعد ذلك أن يؤثر على الشخص المراد إيقاعه ، فيكثر الفاعل من البلاغات الكاذبة والإفساد وذلك عام شائع فى كثير من الناس ، ومن لطيف ما يحكى فى هذا الصدد أن امرأة أرادت الإيقاع بين زوجين فقالت للزوجة : إن زوجك معرض عنك وأنه مسحور وأنا أستطيع أن أقربه منك وأفك السحر ، وعليك أن تأتيني بشعيرات من لحيتته بالموسى عندما ينام وقالت للرجل إن إمرأتك أحبت رجلا غيرك وتريد أن تقتلك وقد علمت ذلك منها، وجعلت من نفسها ناصحة له فلما جاء وقت النوم ظنت الزوجة أنه نام فجاءت بالموسى لتأخذ الشعيرات فظن أنها ستقتله فقام وأنقض عليها وقتلها . كل ذلك سببه التضريب والإفساد بين الناس .

ولكون هذا التضريب سراً لا يطلع عليه أحد وليس كل واحد يستطيع أن يكون بهذه الأخلاق سمي سحرا مجازا .

النوع الخامس : تعليق القلوب : وذلك بأن يدعى شخص بأنه يعرف اسم الله الأعظم وأنه يسخر الجن فيخشاه ضعاف النفوس ، ويعتقدون أنه حق فيحصل لهم نوع من الرعب وينقادون له لما استقرت عليه نفوسهم بأن الجن يطيعه فى كل ما يأمرهم به وهنا يتمكن الساحر فى لحظات الضعف تلك أن يفعل فيهم ما يشاء ، ولا يكون هكذا إلا قليلا التمييز والعقل فضلا عن عدم تأثير الإسلام وتغلغله فى نفوسهم^(٢٧) .



(٢٧) الزواجر لابن حجر ج ٢ ص ١٠١ .

هل السحر يؤثر فى المسحور ؟

لقد أثبتنا بما لا يدع مجالا للشك أن للسحر حقيقة لا ينكرها الا زائع وما دام الأمر كذلك فلا بد لهذه الحقيقة من وجود فعلى ، وكما ذكرنا أن السحر سحران : سحر حقيقى وسحر مجازى ، فالأول له تأثيره ، والغالب فيه أن يكون تأثيرا ضارا بل إنه قد ثبت ضرره وفساده حتى فى عصر النبوة وفى حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ومن بعدهم إلى يومنا هذا ، وسنذكر فيما بعد الآثار الواردة فى ذلك . أما الثانى فتأثيره فى الغالب غير ضار لاستخدامه بمواد والآت يبغي فاعله أن يبهز الناس بفعله وبعض هؤلاء اتخذها حرفة للكسب كالمشعوذ والحاوى ومن إليهما من أصحاب الحيل والخيالات البصرية إلا أنه عمل دنىء لا يقدم عليه مسلم يتقى الله فى تصرفاته لأنه كسب غير مشروع وتعطيل للوقت دون فائدة ترتجى تعود عليه وعلى إخوانه المسلمين ، فضلا عن أنه عمل مسقط للمروءة وبالتالي مسقط للشهادة ولسائر الحقوق السياسية فى الدولة الاسلامية . وغنى عن البيان أن لكل من المستخدم للسحر الحقيقى ، والسحر المجازى عقوبات شرعية تأتى إن شاء الله فى موضعها .

ومن المعلوم أن المخلوقات العاقلة ثلاثة : الملائكة ، الجن ، والإنس ، فالملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولا يفهم الأمر إلا عاقل ، أما الجن فأنواع كثيرة منها : إبليس والشياطين والمردة والعفاريت والأعوان والغواصين والطياريين والتوابع والقرناء والعمار ، وهؤلاء شأنهم كشأن بنى آدم مختلفوا العقائد ، لكن الغالب فيهم الكفر والجحود والكبرياء ، لأنهم يرون أنهم أقوى من الإنس الذى يعيش معهم على الأرض وأفضل منهم ولذلك تبدو دائما عداوتهم للإنس ، ولولا أن حفظ الله الإنس منهم بقدرته لتخطفوه من على وجه الأرض ، ولا عجب فكبيرهم إبليس الذى كفر بالله تعالى وعصاه عندما استخدم القياس المنطقى فى مواجهة الأمر الإلهى الصادر إليه من الله تعالى بالسجود لآدم وهو سجود تحية بمعنى الانحناء لا سجود تعظيم فلا سجود مطلقا لغير الله تبارك وتعالى .

وليس من شك في أن الجن والإنس على السواء مكلفون ومخاطبون بأحكام الشريعة الغراء لأنهم عقلاء ، والتكاليف الشرعية إنما ترد على نوى العقول ، فمنهم من يستمع وينفذ ، ومنهم من يأبى ويرفض قال تعالى (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟) . وإلقاء الآيات لكل من النوعين العاقلين دليل على تكليفهم .

وأسفل أنواع الجن هم الشياطين والعفاريت والمردة لأنهم لا هم لهم . إلا السعى في الأرض بالفساد ولا عمل لهم إلا أن يعيشوا عالة على مخلوقات الله ، والجن كله من أصل واحد فهم جبابرة بحسب خلقتهم ، قويو التسلط على الإنسان - كما أشرنا - يرون أنهم أفضل من بني آدم بل ويحتقرونهم ويرون الإنسان شيئا تافها لا قيمة له ، ولذلك فهم أسرع المخلوقات لإيقاع الإذاية بالإنسان - اللهم إلا إذا كان الإنسان مسلطا عليهم بقوته الروحانية التي أودعها الله فيه وهؤلاء قلة من البشر كالأنبياء والرسل ، وكذلك الأولياء ، وأقوى المخلوقات الثلاثة هذه هم الملائكة ثم الجن ثم الإنسان وهو أضعفها .

وقد يكون للإنسان نوع من التسلط على الجن بل إن الجن يخاف من الإنس أيضا كما يخاف الإنس من الجن ، فقد روى أبو بكر بن أبي الدنيا قال : حدثنا داود بن عمرو الضبي قال : حدثنا عياد بن العوام أنبأنا حصين عن مجاهد قال : بينا أنا ذات ليلة أصلى إذ قام مثل الغلام بين يدي قال : فشددت عليه لآخذه قال فوثب فوقع خلف الحائط ، حتى سمعت وقعته ، فما عاد إلّى بعد ذلك ، قال مجاهد : إنهم يهابونكم كما تهابونهم (٢٩) .

وقد حدث إسحق بن إبراهيم عن محمد بن جابر عن حماد عن مجاهد قال : الشيطان أشد فرقا من أحدكم منه فإن تعرض فلا تفرقوا منه فيركبكم ولكن شدوا عليه فإنه يذهب والله اعلم (٣٠) .

(٢٨) سورة الانعام الآية ١٣٠ .

(٢٩) غرائب وعجائب الجن للقاضي الشبلي - تحقيق إبراهيم الجمل ص ١٣٧ مكتبة القرآن .

(٣٠) نفس المصدر .

واعلم أخى القارىء : أن الجن تحكمه الصورة التى يظهر بها فإن ظهر على شكل قط مثلا استطاع الإنسان أن يوقع به الضرر ، ومن ثم يمكن قتله عند تلك الصورة ، ولذلك جاء ضعف الجن من هنا فهو يخاف أيضا من الإنسان .

اعلم كذلك أن الإمام أحمد رحمه الله قال حد ثنا محمد بن جعفر عن شعبه عن الأعمش عن إبراهيم عن أبى معمر قال : قال عبد الله بن مسعود : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم نفر من الجن واستمسك هؤلاء بعبادتهم فأنزل الله تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) الخ الآية (٣١) .

وليعلم أنه لا يجوز أكل ما ذبح لغير الله تعالى لأنه أهل لغيره به فعن يحيى بن يحيى قال : قال لى وهب استنبط بعض الخلفاء عينا وأراد إجراءها وذبح للجن عليها لئلا يغوروا ماءها فأطعم ذلك أناسا فبلغ ذلك ابن شهاب فقال : أما أنه قد ذبح ما لم يحل له وأطعم الناس ما لا يحل لهم ، فقد نهى رسول الله ﷺ عن أكل ما ذبح للجن (٣٢) .

تلك مقدمة يسيرة لنعطى بها فكرة عن المخلوقات الثلاثة العاقلة ولا سيما الجن فهو أغلب الأنواع المستخدمة فى السحر الآن . وقد قرأنا وسمعنا ما يثبت لنا أن الإنسان قد استخدم الجن فى أعمال كثيرة وشاقة يعجز عنها الإنسان بطبيعة خلقه سواء بطريق التسخير الإلهى كما جاء فى قصة سليمان عليه السلام وسواء بطريق الاتصال الكفرى والعياذ بالله وذلك باستخدام الدعوات الكفرية حتى يقوم الجن بما يأمره به الإنسان فى خفاء لا يمكن معه رؤيته وهذا معلوم من نص الآية بالنسبة للجن يقول تعالى (إنه يراكم هو وقيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) (٣٣) .

(٣١) سورة الإسراء الآية ٥٧ وراجع غرائب الجن ص ١٧٥ .

(٣٢) غرائب وعجائب الجن ص ١٢٤ .

(٣٣) سورة الأعراف الآية ٢٧ .

ومن كل ما تقدم تعلم أن للسحر تأثيراً خفياً يمكن أن يقع للإنسان في أى وقت كما يمكن أن يقع فى أى من أعضائه بلا مقدمة يحسها ولا رؤيا يدركها ، فإن كان فى الروح فهى سيالٌ أثيرى لا يقاوم ، وإن كان فى الجسد المادى فالشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، ولا فرق بين جسم وجسم سواء كان إنساناً عادياً أو رسولاً فقد أثر السحر فى جسد رسول الله لا فى قلبه وروحه ، وبالتالي فهو لم يؤثر فى شريعته التى كلف بتبليغها للناس لأن الله سبحانه قد عصم روحه وقلبه وعقله - وهى مواطن التكليف والتبليغ - وتلك العصمة هى من خصوصيات النبوة ، أما جسده الشريف ﷺ فهو لا شك يخضع للعوارض الطبيعية كالمرض والسقم والإحساس بالحرارة والبرودة وما إليه غير أنه معصوم من القتل وتلك خصوصية له كما أشرنا من قبل .

هذا وقد أثبت القرآن الكريم أن للسحر تأثيراً وأنه ضار وأن طريقه مؤد إلى الهلاك قال تعالى : (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) (٣٤) .

كذلك أثبتت السنة الصحيحة وقوع السحر وتأثيره وهذا واضح من الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنهم ، وفيه أن السحر قد أثر فى جسد النبي ﷺ ، الأمر الذى جعله يجتهد فى علاج نفسه فاستخدم الحجامه فى مبدأ الأمر ، ثم أرشده الله الى العلاج الحقيقى بعد أن أخبره أن ما به هو سحر ، فأمره بقراءة المعوذتين ، وقد تقدم لنا بيان ذلك بالتفصيل كذلك وقع السحر فى حياة الصحابة رضوان الله عليهم حيث ابتلى به بعضهم على النحو الذى سنوضحه فى موضعه إن شاء الله .



(٣٤) سورة البقرة الآية ١٠٢ وراجع الشفاء للقاضى عياض د ٢ ص ٨٥٥ : ٨٦٢ .

آراء العلماء فى مدى تأثير السحر الحقيقى

بعد أن أثبتنا أن للسحر حقيقة وأن له تأثيراً فى عالم الحس ، بقى أن نبين إلى أى مدى يكون هذا التأثير ولعلمائنا فى ذلك آراء ثلاثة :

الراى الأول

يرى بعضهم أن السحر الحقيقى يؤثر فى الإنسان إلى حد تغيير الأحوال والصفات كتغيير حال الشخص من الصحة إلى المرض ، كما يقع به قلب الحقائق كقلب الإنسان حماراً أو تمساحاً ويقع به أيضاً ضرر النفس كتسليط حمى أو رمد أو ضارب أو ضرر فى مال كتسليط الجن برجم البيت وكسر أوانيهِ ، ويضاف إلى ذلك ربط الزوج عن زوجه وما يفرق بينهما وما يبغض أحدهما إلى الآخر ونحو ذلك من أعمال الضرر بالإنسان ، وقالوا : لا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات بما ليس فى مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضو إلى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدرات البشر ، ولا يبعد فى السحر أن يستدق جسم الساحر حتى يستطيع أن يدخل فى الكوات الضيقة جداً ، وكذلك الانتصاب على رأس قسبة والجرى على خيط مستدق والطيران فى الهواء والمشى على الماء وركوب الكلاب وغير ذلك ، وأضافوا : أن السحر ليس موجبا لذلك ولا علة لوقوعه ولا يكون الساحر مستقلا به وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويحدثها عند وجود السحر كما يخلق الشبع عند الأكل والرى عند شرب الماء وممن قال بهذا علماء المالكية ، وأشار إليه بعض علماء الحنابلة والشافعية ، وذكره الألوسى وابن كثير فى تفسيرهما منسوبا إلى الجمهور، ومع أن المعتزلة والزيدية ينكرون حقيقة السحر إلا أن البعض من كل منهم قال بتأثيره الى حد قلب الأعيان (٣٥) .

(٣٥) حاشية السوقى ح ٤ ص ٣٠٢ ، كشاف القناع ح ٦ ص ١٨٦ ، الزواجر لابن حجر ح ٢ ص ١٠١ فتح البارى ح ١٠ ص ٢٢٢ ، روح المعانى للالوسى مجلد ١ ح ١ ص ٣٣٩ ، تفسير القرآن العظيم ح ١ ص ١٤٢ ، شرح الأزهار ح ٤ ص ٣٨٠ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى مجلد ١ ص ٤٣٧ تفسير الرازى ح ١ ص ٤٤٣ - ٤٤٥ ، مغنى المحتاج ح ٤ ص ١٢٠ ، نيل الأوطار ح ٧ ص ٣٦٣ .

الرأى الثانى

يرى عامة العلماء أن السحر يجوز أن يقع به أكثر مما نصت عليه الآية الكريمة من التفريق بين الزوجين ، فقد أجازوا أن يقع به تأثير فى إيلام الأجسام كالمرض والقتل وما يعقد الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها بالإضافة إلى التفريق بينهما ، فالسحر يؤثر مرضا وثقلا وحبا وبغضا ونزيفا وغير ذلك من الآثار التى يعرفها عامة الناس بل إن كثيرا منهم علمه ذوقا بما أصيب به ، قالوا وهذا هو الصحيح عقلا لأنه لا فاعل إلا الله تبارك وتعالى وما يقع من ذلك فهو عادة أجراها الله سبحانه ولا تفرق الأفعال فى ذلك وليس بعضها بأولى من بعض ولو ورد الشرع بقصره على مرتبة لوجب المصير إليه فذكر التفرقة بين الزوجين فى الآية ليست بنص فى منع الزيادة وهو مذهب الأشاعرة أيضا - قال القاضى : ولا يقع فيه إلا ما هو مقدور للبشر ، هكذا ذكره الشوكانى وابن حجر العسقلانى والنوى والقرطبى وغيرهم (٣٦) .

الرأى الثالث

يرى البعض أن السحر لا يزيد تأثيره أكثر مما نصت عليه الآية الكريمة فى قوله تعالى (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) حيث ضرب الله المثل بالتفريق بين الرجل وزوجه وهو لا يكون كذلك إلا بأعلى الأحوال ، وإنما نكر ذلك تعظيما لما يكون عنده وتهويلا له فلو وقع به أعظم من ذلك وأكثر لذكره .

ومع اختلاف العلماء فى مدى تأثير السحر - كما رأيت - وفى حقيقته وعدمها إلا أنهم جميعا سلفا وخلفا مقررون بوجود حقيقة السحر ومُنكرونها ، مجمعون على أنه ليس فى السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد والقمل والضفادع وقلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق

(٣٦) نيل الأوطار د ٧ ص ٣٦٥ و ٣٦٦ ، مغنى المحتاج د ٤ ص ١٢٠ ، فتح البارى د ١٠ ص ٢٢٣ ، صحيح مسلم بشرح النووى د ١٤ ص ١٧٥ ، حاشية الشرفاوى د ٢ ص ٣٨٥ ، تكملة المجموع لنجيب المطيعى د ١٨ ص ٢٧ ، تفسير المعوذتين لابن القيم ص ٣٢ ، المغنى لابن قدامة د ٨ ص ١٥٠ و ١٥١ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبى مجلد ١ ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، الزواجر د ٢ ص ١٠١ ، فتح القدير د ٦ ص ٩٩ ، حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، شرح النووى على صحيح مسلم د ١٤ ص ١٧٥ والفروق لشهاب الدين القرافى د ٤ ص ١٣٩ .

العجماء وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام ، فهذا كله ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله إلا الله عند إرادة الساحر ، فذلك من معجزات الرسل ، والمعجزة لا يمكن الله أحداً أن يأتي بمثلها أو بما يعارضها ، فهذا أصل في الدين عظيم وعقيدة مجزوم بها حتى لا تنزل قدم بعد ثبوتها .

هذا وقد استدال كل من أصحاب الآراء الثلاثة على ما ذهب إليه بأدلة عقلية وهى عبارة عن تعليقات أشرنا إليها مع كل رأى منها فيما تقدم ، وامزيد من الإيضاح نبينها لمناقشة ما ينبغي مناقشته منها .

دليل الرأى الأول

قال أصحاب الرأى الأول : إن الساحر قد يصل بسحره الى حد التأثير فى قلب الأعيان كقلب الحمار إنسانا أو قلبه تمساحا ونحو ذلك .

ودليلهم فى هذا : أن الله تعالى هو الخالق لجميع الأفعال ، والساحر غير مستقل فى هذا العمل بل إن الله يخلق هذه الأفعال يحدثها عند الرقى والكلمات المعينة التى يستخدمها الساحر ، وقالوا : فليس صحيحا أن يكون المؤثر فى ذلك هو الفلك والنجوم خلافا للفلاسفة والمنجمين والصابئة .

وأضافوا أيضا الى ما ذكر : أن تلك الأفعال التى تحدث فى المسحور تتم بالتخلية بين ضرر السحر وبين المسحور لأن الله تعالى جعل الأسباب ورتب عليها مسبباتها لحكم يعلمها سبحانه ، وليس للساحر سوى ممارسة الأسباب ، وقد قصت حكمة الله تعالى أن لا قدرة للبشر على شىء إلا إذا أذن الله ومكن منه قال تعالى (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) فهؤلاء قد اعتبروا السحر من جملة خوارق العادات يخرق الله تلك العادة على يد الساحر متى استخدم السحر^(٣٧) .

(٣٧) روح المعانى للألوسى مجلد ١ د ١ ص ٣٣٩ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٧ ،

تفسير الرازى د ١ ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ .

(مناقشة هذا الدليل)

ونستطيع مناقشة دليل الرأى الأول من الوجوه التالية :

الوجه الأول : إن ما استدل به أصحاب الرأى الأول هو دليل عقلى غير مطابق للواقع فهم أولا لم يأتوا بحادثة واحدة من قلب الأعيان - المزعوم - تؤيد ما ذهبوا إليه ، وثانيا : إن القول بخرق العادة للسحرة قول مختلف فيه بين العلماء ، والراجح والأقرب الى الأصول الشرعية أن السحر ليس خارقا للعادة لكونه يكتسب بالتعلم والتعليم وسيأتى تفصيل ذلك .

ومن ثم فإن بعض العلماء منهم الدميرى من علماء الشافعية يقول فى هذا الادعاء إنه قول واضح البطلان ، لأنه لو قدر على هذا لقدر أن يرد بنفسه الى الشباب بعد الهرم وأن يمنع نفسه من الموت^(٣٨) .

الوجه الثانى : إنه لو حدث هذا الزعم من قلب الأعيان للساحر لكان ذلك خرقا لنواميس الكون ، وخرق نواميس الكون لا يكون إلا لأشياء بعينها والسحر ليس من جملة ما جملتها ، قال بعض المعتزلة : لو كان قلب الأعيان^(٣٩) صحيحاً لاختلط ذلك بطريق المعجزات وإن فلا يكون هناك فرق بين النبى والساحر لكن ذلك باطل فبطل ما أدى اليه من القول بقلب الأعيان^(٤٠) على ما لا يخفى ونقول أيضا : إن هناك فرقا كبيرا بين المعجزة والسحر وأظهرها أن المعجزة مقرونة بالتحدى بخلاف السحر فلا يكون ظهورها على يد كاذب صونا لهذا المنصب الجليل عن أن يتصور حماه الكذابين .

(٣٨) مغنى المحتاج ج ٤ ص ١٢٠ .

(٣٩) روح المعانى للالوسى ج ١ ص ٣٣٩ .

(٤٠) نعى بقلب الأعيان هنا : الأمور التى ليست فى مقدور البشر ، أما قلب المواد كما هو معلوم لدى المشتغلين بصناعة الكيمياء ونحوها فنلك أمر وارد لأن الله تعالى سخر كل ما فى الكون لخدمة الانسان وهدها إليه وأمره بالتفاعل معه ، فاذا جاء الكيميائى مثلا وأراد أن يحول أو يقلب مادة بعينها الى مادة أخرى جازله ذلك وهو فى حدود استطاعته ولا محذور فيه لأنه خدمة للانسان ، أما إذا استخدم الكيمياء لتكون وسيلة إلى الغش والخداع والاضرار بالناس فذلك هو الحرام الذى لا يجوز شرعا . لأن الحكم يدور وجود وعدمه مع وجود العلة .

الوجه الثالث : لو كان فى استطاعة السحرة أن يقلبوا الأعيان على النمط المذكور لاستطاعوا الاستيلاء على عروش الممالك والأمصار فى يسر وسهولة ونكلوا بأعدائهم وقلبوهـم الى ما يريدون خاصة الحكام المسلمين الذين كانوا يتعقبونهم انذاك فى كل مكان ليقضوا عليهم ، بل كان السحرة يهربون إلى الغابات ليعيشوا فيها خوفاً على أنفسهم من مطاردة هؤلاء الحكام ، وبذلك يكون القول بإمكان قلب الأعيان قولاً ظاهر الزيف والبطلان .

الوجه الرابع : لو حدث من السحرة قلب للأعيان لاضطربت حياة البشرية اضطراباً عرقل مسيرتها وافقدها توازنها وترجع السحرة على الملك فى كل الأمصار والأقطار ، وفقدت الحياة الحكمة من وجودها ، لكن ذلك لم يحدث وبالتالي فهو باطل .

ثم إن السحرة - كما نعلم ودلت التجارب - دائماً فى ضيق من العيش حفاة عراة يحاولون بشتى الوسائل أن يبتزوا أموال الناس بالباطل ليسدوا رمق أنفسهم ، فلو كان فى استطاعتهم ما ذكر لكان الأولى بهم من غير شك أن يستخرجوا الكنوز من باطن أو يحصلوا على الأموال الباهظة من خزائن الملوك والرؤساء .

دليل الرأى الثانى

استدل القائلون بهذا الرأى : أن الله تعالى وإن كان قد ذكر بعض تأثير السحر فى الآية الكريمة وهو التفريق بين الزوجين إلا أن العقل لا يحيل الزيادة عما نصت عليه الآية لأنه لا فاعل إلا الله تعالى ولا تفرق الأفعال فى ذلك إلا ما نص على إحالته مما ليس فى مقدور البشر لاسيما وأن الشرع لم يمنع أن يكون هناك أكثر من نوع تأثير ، وقد ثبت من السنة - على ما تقدم - تأثير آخر من غير التفريق بين الزوجين حيث أصيب الرسول ﷺ بصداق فى رأسه من عمل السحر وكان صداعاً شديداً^(٤١) .

(٤١) راجع فتح البارى ج ١٠ ص ٢٢٣ ، الجامع لأحكام القرآن للجصاص ج ١ ص ٤٤ ، ٤٨ .

فالحق أن لبعض أصناف السحر تأثيراً في القلوب كالحب والبغض واللقاء الخير والشر وكذلك في الأبدان بالألم والسقم ، لكن الذي يجب أن ننكره هو ما يخرج بالأمور عن حد الاعتدال كالقول بجواز قلب الأعيان يد الساحر .

قال ابن القيم رحمه الله : لقد تواترت الأخبار عن الصحابة والسلف أن السحر يؤثر مرضاً وثقلاً وعقداً وحبا وبغضا ونزيفاً وغير ذلك من الآثار ولا سبيل لإنكاره^(٤٢) .

ولفت ابن القيم الأنظار الى أمور ثلاثة :

الأمر الأول : أنه لا يشترط المباشرة من الساحر للمسحور حتى يتم التأثير خلافا لما عليه علماء الحنفية الذين يشترطون ذلك^(٤٣) واستدل ابن القيم بقول الله تعالى (ومن شر النفاثات في العقد) على أن النفث يضر بالمسحور في حال غيبته عن الساحر إذ لو كان لا بد من المباشرة ما كان للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه .

الأمر الثاني : إن الساحر قد يسحر جمعا من الناس مهما كانت كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به وهذا ما نشاهده أحيانا من بعض السحرة في بعض وسائل الاعلام كما في التلفاز مثلا .

الأمر الثالث : إن الساحر قد يستطيع أن يغير صفة من صفات النفس عن طريق السحر كما يغير من إحساس المسحورين بحيث يروا الساكن متحركاً والمتصل منفصلاً فلا يستحيل عليه أن يغير من صفات النفس حتى يجعل المحبوب إليه بغیضاً والبغیض محبوباً وغير ذلك من التأثيرات^(٤٤) .

(٤٢) تفسير المعوذتين لابن القيم ص ٣١ : ٣٣ .

(٤٣) فتح القدير ج ٦ ص ٩٩ ، المغنى لابن قدامة ج ٨ ص ١٥١ .

(٤٤) تفسير المعوذتين لابن القيم ص ٣٢ .

دليل الرأى الثالث

استدلوا بأن الله تعالى أورد فى الآية الكريمة تأثير السحر وهو التفريق بين الزوجين ، فلو جاز أن يقع بالسحر تأثير أكثر من هذا لذكره الله تعالى فى كتابه ولاسيما وأن المقام هنا مقام تهويل فالآية نص فى منع الزيادة .

مناقشة هذا الدليل

نقول : إن الآية ليست نصاً فى منع الزيادة ، إذ لو كانت كذلك فلم وردت السنة الصحيحة بوقوع السحر بالرسول ﷺ وهو نوع آخر غير التفريق بين الزوجين ؟ فدللت السنة أن السحر قد يؤثر مرضاً وثقلاً وهذا قطعاً غير ما تقدم من التفريق بين الزوجين الذى نصت عليه الآية .

ومن ثم فإن ما ورد فى الآية الكريمة إنما هو لأحاد أنواع التأثير وليس لكل الأنواع ، ثم إنه من جهة العقل يجوز أن يؤثر استخدام السحر بأكثر مما نصت عليه الآية ، وقد قدمنا أن الاشاعرة قد تمسكوا بوجهة النظر هذه وصححها المازرى من علماء الشافعية كذلك فعلة النووى والشوكانى . يضاف إلى ذلك أن ما وقع لبعض صحابة رسول الله ﷺ من سحر كانت تأثيرات متعددة فكيف يمكن أن نقول باقتصار السحر على نوع تأثير معين ؟ فوجب أن تكون الآية ليست نصاً فى منع زيادة التأثير على ما جاء فيها (★) .

الترجيح

وبعد استعراض ما احتج به كل من أصحاب الآراء الثلاثة يتضح لنا أن الرأى الثانى هو أولى بالقبول والرجحان ، فهو رأى معتدل توسط الرأيين لا إفراط ولا تفريط فضلاً عن قوة حججه مما جاء فى السنة وفى حياة الصحابة رضى الله عنهم والله أعلم .

(★) فتح البارى شرح صحيح البخارى ج ١٠ ص ٢٢٣ ، نيل الأوطار للشوكانى ج ٧ ص

(المبحث الثانى) (السحر المجازى وتأثيره) (الشعوذة)

من المعلوم فى التاريخ القديم والحديث أن السحر له المكانة المهيبة عند كثير من المجتمعات والسحر الذى نعنيه هنا هو ما يسمى بالشعوذة ، ذلك الفن القديم الذى ورثه الناس عن الرومان والعرب وقدماء المصريين ، وقد كان الشغل الشاغل ومحط الأنظار خاصة عند أولئك المشتغلين بالمسائل الروحية وما وراء المادة .

ولعل هذا النوع من السحر هو المنكور من جانب المعتزلة وبعض أهل السنة الذين قالوا بعدم وجود حقيقة للسحر ، ونحن نتفق معهم هنا أى فى حقيقة السحر المجازى (الشعوذة) حيث يعتمد على خفة اليد بمساعدة المواد المعملية والكيميائية وغيرها ، وكل ما يقع منه إنما هو تخيل فقط ، كما قيل فى شأن سحرة فرعون^(٤٥) ، ولذلك كان النص القرآنى واضحا منه ذلك فقال تعالى (يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى)^(٤٦) ، ويؤكد هذا التخيل قوله سبحانه أيضا (إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى)^(٤٧) .

فلو شاء علماء الكيمياء والطبيعة أن يجعلوا من أنفسهم سحرة على هذا النمط لفعلوا وكان ذلك ميسورا عليهم .

والواقع : أن لهذا النوع تأثيرا بصرى فى غاية الدهشة والغرابة مما حير كثيرا من أولى الألباب ، كيف يحدث ما يرونه ويشاهدونه ؟ وما هى الحقيقة فيه وما سره ؟ وأين مصادره ؟ الخ ذلك من الأسئلة التى تطرح نفسها ، وفى غالب الأحيان لا تجد لها مجيبا أو إجابة .

(٤٥) على رأى القائل بأن الحبال قد مزجت بمادة الزئبق مع وجود الحرارة فتحركت الحبال والعصى كأنها حيات تسعى ، والحقيقة أنها لاتسعى إنما هى المادة الكيميائية التى تسببت فى هذا التحرك ، والكيمياء مادة خطيرة تلعب أدوارا هامة فى حياة الناس .

(٤٦) سورة طه الآية (٦٦) .

(٤٧) سورة طه الآية (٦٩) .

ومن أجل ذلك سوف نصرب بعض الأمثلة على أعمال الشعوذ ونكشف عن السر فيها عسى أن يكون ذلك عوناً للقارئ. على معرفة الحقيقة في كل هذه الأمور التي تخفى على كثير من الناس ويتصورها البعض أنها قدرة الساحر والمشعوذ وأنه يفعل ما يريد ، إلا أن واقع الأمور خلاف ذلك واليك طائفة من الأمثلة بعضها من استخدام المواد الكيماوية ، وبعضها الآخر باستخدام المهارة والتمويه :

الشعوذة باستخدام المواد الكيماوية

لقد وصلت البراعة في فن الشعوذة مدى بعيداً من العجب حتى نجح المشتغلون بها في التخيل إلى الناس أنهم يستطيعون إماتة طائر وإحيائه في نفس الوقت ، وهناك بعض ضعاف العقول من يصدق ذلك وإن كان يشك فيه بعض الشك لأنه يعلم أن الله تعالى هو المحيي والمميت ، أما كيف يتم ذلك ، فنذكر لك الحيلة ثم نتبعها ببيان السر فيها :

الحيلة الأولى :

يأخذ المشعوذ أو الحاوي حمامة مثلاً ويلوى رقبتها بيده حتى يبدو أنها ماتت ثم يرميها على الناس ، فينألم المشاهدون من هذه القسوة ، ثم يطلبها منهم مرة أخرى ليحييها - بزعمه - فيضعها في ورق ، ثم يضرب فوق الورق فتقوم الحمامة من الموت وتطير إلى جهة المشاهدين الذين يقفون على شكل حلقة مستديرة .

السر فيها :

أن المشعوذ قبل أن يمسك بالحمامة كانت يده فيها سائل من مادة البنج ، فيمسك بالحمامة ويوهم الناس أنه يلوى رقبتها ، وهو في الحقيقة مشغول بتشميم الحمامة التي في يده ، فتفقد الحمامة شعورها فيظن الناس أنها قد ماتت خنقا ، ويضربها بعد ذلك فتفريق من البنج فتطير، وإذا عرف السبب بطل العجب كما يقولون .

وليس هذا غريباً ، فإن الطبيب يجري الكبرى من عمليات الجراحة والمريض يرقد أمامه كال ميت من تأثير البنج ، ومن رآه قبل إجراء العملية يظنه ميتاً ، وهكذا فإن مادة الكيمياء تلعب دوراً كبيراً في هذا المجال .

ومثل هذا الاحتيال يحدث عند إطعام الانسان الأدوية المبلدة المؤثرة
فى العقل بحيث يتبلد عقله وتقل فطنته ، وقد كثرت العقاقير المفسدة للعقل
فى زماننا هذا ، كالحشيشة المشهورة وما يتخذ منها ومن غيرها من
المعاجين والكوكابين ، إلا أنها لاشتهارها لم تعد من الحيل العجيبة^(٤٨) .

الحيلة الثانية :

إشعال السكر من غير نار : يأتى المشعوذ بطبق فيه سكر يريه
للمشاهدين ويطلب منهم أن يذوقوا منه حتى يتأكدوا أنه سكر ، ثم يشير
إلى الطبق بعصا فى يده فيشتعل السكر ناراً ويتصاعد منه اللهب^(٤٩) .

السر فيها :

الواقع أن الطبق جزءان متساويان من السكر ومن مادة (كلورات
البوتاسيوم) (وهى مادة كيميائية بيضاء تشبه السكر) وأما العصا التى
استخدمها المشعوذ فمغموس طرفها فى حمض الكبريتيك فعندما يشير
بهذه العصا وتلمس المخلوط من هذه المادة الكيميائية يَنقُذُ الطبق ناراً أما
عن إذاقته السكر للمشاهدين فيكون من الجانب الذى فيه السكر من الطبق
وذلك بخفة اليد والسرعة والتعمية على المشاهدين .

الحيلة الثالثة :

يقوم المشعوذ بنفخ الدخان الى داخل كوب مغطاه دُونَ أن يصل إليها
المشعوذ .

السر فيها :

غسل داخل الكوب الزجاج بمادة (روح الملح) ثم يأتى بطبق يدهن
قاعه بوسائل النواشدر ، ويوضع الطبق بوضعه العادى على كوب الزجاج
وتغطى بمنديل ، ثم يقف المشعوذ من بعيد ، ويشغل سيجارة وينفخ دخانا
نحو الكوب المغطاه ليوهم المشاهدين أنه سيملاء الكوب بالدخان .

(٤٨) فن الشعوذة الحديثة من مذكرات شارلوك هولمز - تعريب فؤاد واصف ص ٩ - ١٢ طبعة
دار الهلال سنة ١٩٢٣ م .
(٤٩) المصدر السابق .

والواقع أنه حدث تفاعل كيمائى بين مادتى روح الملح وسائل
النوشادر فامتلا الكوب بالدخان وهذا أيضا من لطيف ما يفعله المشعرون .

الحيلة الرابعة :

تغيير المشعوز وجه أى إنسان من البياض إلى السواد :

السر فيها :

يقوم المشعوز قبل أن يخرج الى المشاهدين بدهان وجهه بمادة
(اكسيد البرموت) فتعطى هذه المادة للوجه رونقا جميلا - وهى مادة
تستخدمها بعض السيدات فى الزينة ثم يضع المشعوز أمام المشاهدين إناء
ملئنا بالماء الممزوج بمادة (الهيدروجين) ثم يدعى أنه يشم ذلك الماء
فيتحول وجهه فجأة من البياض الى السواد وذلك نتيجة التفاعل الكيمائى
بين المادتين فى الوجه وماء الإناء .

الحيلة الخامسة :

الوسائل الذى يحول نفسه الى ألوان مختلفة :-

السر فيها :

يقوم المشعوز بطبخ أوراق من الكرب ثم يأخذ ماء الذى يكون لونه
أصبح أحمر فى هذه الحالة ، وبعد أن تذهب حرارة الماء تماما يجيىء
بثلاثة أوان يضع فى أحدها بعض النقط من مادة (الأمونيا) وفى الثانية
نقطة من حمض الكبريتيك ، ويترك الإناء الثالث فلا يضع فيه شيئا من
المواد ثم يصب قليلا من الماء من سائل الكرب فلا يتغير اللون ثم يصب
فى الثانى فيصير لونه أخضر - وهو فى هذا متأثر بمادة الأمونيا ، ثم
يصب فى الثالث فيصير لونه أحمر وكل ذلك نتيجة التفاعل الكيمائى^(٥٠)
إلى غير ذلك مما تلعب الكيمياء دورا هاما فى تأثيره ولا حقيقة لهذه الحيل بوجه
ما، التى يراها المشاهد ويختار فى تفسيرها .

(٥٠) فن الشعوزة ص ١٣ و ١٤ .

الشعوذة باستخدام المهارة والتمويه

ومن فنون الشعوذة أيضا المهارة وألعاب الصالة أى التمويهات التى تدرب عليها هؤلاء المشعوذون ومن ذلك أن يظهر أحدهم أنه ذبح إنسانا أو طعنه بسيف ، والعجب أن يرى المشاهدون إسالة الدماء ثم بعد ذلك يرفسه فيقوم حيا كما كان .

وعند النظر الحقيقى فى هذا نجد أنه ليس لهذا حقيقة إذ لو كان كذلك لما استطاع المذبوح والمطعون أن يحيا لأن الإحياء والإماتة هى لله تعالى وحده ، وعلى وفق إرادته وعلمه .

وعلى الرغم من أن هذه هى عقيدة كل مسلم إلا أن هناك نفوسا ضعيفة من الناس أغلبهم مصاب بالعصبية المزاجية ، وتلك قابلة لأدنى الأوهام والانفعالات فيصدقون أن هذا المشعوذ يفعل هذه الأفعال حقيقة ، وسنضرب لذلك عدة أمثلة أيضا للاحاطة بها .

الحيلة الأولى :

يأتى المشعوذ بسكين حامية جدا أو أية آلة حادة يعطيها له أحد المشاهدين ويمررها على رقبة مساعده ويذبحه ويسيل دمه ويموت ، وبعد عشرة دقائق يرفسه برجله فيقوم من الموت - حسب زعم المشعوذ وفعله .

والواقع أن هذا إيهام وليس حقيقة لأنه بمعرفة الحقيقة فى ذلك يذهب هذا الإيهام .

السر فى الحيلة :

أن المشعوذ وضع فقاعة جلدية لونها لو جلد الانسان الطبيعى وهى مملوءة بسائل يشبه الدم على رقبة مساعده ، ثم يأتى بالسكين ويمررها على هذه الفقاعة فتفجر ويسيل منها اللون الأحمر الذى يشبه الدم ويتوهم المشاهدون عند ذلك أنه ذبح مساعده .

الحيلة الثانية :

نظرية اختراق السيف لجسم الانسان حتى ينفذ الى ظهره ، يمسك المشعوذ سيفا طويلا من الصلب ويعرضه على المشاهدين حتى يتأكدوا

من أنه سلاح ماض يقتل الشخص ، ثم يطعن به أحد مساعديه فى بطنه فيخرج من ظهره ملوثا بالدماء ، ومع ذلك تجد المطعون حياً لم يمت^(٥١) .

سر الحيلة :

أن المشعوذ يقوم باللباس مساعده حزاما ملفوفا الى نصفه فقط بماسورة معدنية على شكل نصف دائرة مفتوحة وهذا يكون تحت ملابس المساعد ، ثم يأتي المشعوذ ويضع سن السيف متجها نحو بطن المساعد فيخترق الحزام مارا بالماسورة ويخرج من نهايتها عند ظهره مع مراعاة أن سبب نزول الدم وجود فقاعة مملوءة بالسائل الذى يشبه الدم، فيمرور السيف يخترقها فتنفجر ويخرج السيف ملوثا بالدماء .

الحيلة الثالثة :

إيقاف الساعة عن الدوران متى أمرها المشعوذ وأشار اليها : حيث يأمر المشعوذ جميع المشاهدين بإخراج ساعاتهم ثم يمد يده الى أية ساعة منها دون أن يلمسها ويأمرها بالوقوف عن الدوران فتتوقف وهكذا يعمل مع بقية الساعات .

سر الحيلة :

أن المشعوذ قد اشتمل على نوع قوى من أنواع المغناطيس الصغير ووضعه على ذراعه تحت جلبابه أو قميصه بحيث لا يراه المشاهدون فعندما يقترب من أى الساعات توقفت عن الدوران فى الحال والواقع أنه تمويه سببه الجاذبية المغناطيسية وليس المشعوذ ، وهناك أفعال يقوم بها المشعوذون يوهمون بها الناس كاستخدام بعض المواد كمادة الفوسفور وهى مادة صلبة شمعية اللون تلتهب بمجرد ملامستها الهواء ، وكمادة زيت الزيتون فيخلطون بعض أجزاء المادتين على بعض ثم يدهنون بها جلابيب بيضاء ويضعونها فى غرفة مظلمة فترى أوجها منيرة تخرج أشعة وكأنها

(٥١) فن الشعوذة ص ٢٧ و ٢٨ .

طائرة فى فضاء الغرفة^(٥٣) وبهذا ونظيره يتمكن المشعورون ومن سار على دريهم من الاحتيال على الناس .

بل إنه من المؤسف أن بعضا من الناس المتعلمين فضلا عن الجهال يذهبون الى هؤلاء الدجالين ظنا منهم أنهم يحلون المشاكل المستعصية كمشكلة العقم ، فكم طالعنا الصحف اليومية على ضبط دجالين ومعهم بعض النساء المتعلمات اللاتي وقعن فريسة جهلهن بدين الله تعالى وقد ابتزهن الدجال وسيطر عليهن إلى أبعد من ذلك وهو لاشك جريمة تعاقب عليها الشريعة الاسلامية .

وأعود لأكرر أنه لا حقيقة إطلاقا لعمل الشعوذة والدجالة ، وأن الانجاب أو عدمه هو أمر لا يملكه أحد إلا الله الحق صاحب الملك والملكوت ولو أنهم استمعن وعقلن قوله تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون)^(٥٣) وقوله تعالى (قل إن الأمر كله لله)^(٥٤) وقوله جل شأنه (إن ربك فعال لما يريد)^(٥٥) وقوله (يدبر الأمر يفصل الآيات لعلم بلقاء ربكم توقنون)^(٥٦) وقوله تعالى (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير)^(٥٧) ، أقول لو استمعن الى هذه النصوص الكريمة ما كان هذا مسلكن ولما وقعن فريسة للجريمة والمجرمين ، ولكن هكذا أرادوا لأنفسهم ، فالأمر كله لله تدبيرا وتنفيذا وعلى المؤمن أن يكون صحيح العقيدة قوى الإيمان ، ثابت العزيمة ولا يعبأ بمثل هذه الخرافات وتلك الأراجيف التى لا أساس لها ولا وجود ، وبذلك يسلم له الاعتقاد الايمانى الصحيح .

(٥٢) فن الشعوذة ص ٢٩ .

(٥٣) سورة القصص الآية ٦٨ .

(٥٤) سورة ال عمران الآية ١٥٤ .

(٥٥) سورة هود الآية (١٠٧) .

(٥٦) سورة الرعد الآية (٢) .

(٥٧) سورة الشورى الآيتان (٤٩ ، ٥٠) .

ولعل فيما ذكرته من أمثلة لما يفعله المشعوذون من أعمال ويوهمون الناس بها وبيان السر فيها أكبر دليل على كذبهم وضلالهم في أن لهم قدرات فوق قدرات البشر من غيرهم (ألا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم) .

(المبحث الثالث)

(في الأمور التي تنخرق لها العادة)

وحيث كان السحر عند بعض العلماء من جملة من خوارق العادات وعند البعض ليس منها ، ولما كان بعض العلماء قد تناول السحر تفصيلاً وأورد بعض العبارات التي اقترن فيها بالمعجزة من حيث الفرق بينهما ليجلي الحقيقة بين هذه الأمور لتسلم عقيدة المسلم من البلبلة في خضم الكلام الكثير الذي قيل في هذا المضمار .

رأيت أنه من الواجب أن أعقد مبحثاً لذكر الأمور التي تنخرق لها العادة وأتناولها بالتفصيل أيضاً للأمور ووضعاً للحق في نصابه - لاسيما إذا علمنا أن تأثير السحر يخرج عن مألوف البشر ويخشى على كثير من الناس أن يقع في محذور الإشراك بالله تعالى دون أن يدري بسبب عمل كفري من ساحر لعين أو مشعوذ حاذق محترف^(٥٨) .

(٥٨) اختلف بعض العلماء في كيفية التأثير على عين موسى عليه السلام فتخيل أن الحبال تسعى وهي ليست كذلك وذلك على قولين :

الأول : إن وقوع التخيل كان باستخدام مادة الزئبق في العصي المجوفة وفي الحبال مما جعلها تتحرك نتيجة إضرام النار في الخنادق التي كانت تحتها ، كما قيل . أو كان ذلك من حرارة الشمس وهذا شأن مادة الزئبق إذا أصابته الحرارة تحرك ، وهذا قول بغض المؤرخين والجصاص .

الثاني : إن التأثير لم يكن في مادة من المواد بل إن السحر أثر في عين موسى نفسه بعمل السحرة وهو منطوق القرآن الكريم (فلما ألغوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجأوا بسحر عظيم) الآية ١١٦ سورة الأعراف .

وعلى هذا ، فإن كان القول الأول هو الصحيح كان السحر سحراً مجازياً وهو ضرب من الخداع والتمويه، وإن ثبت صحة القول الثاني فإنه حينئذ يكون من قبيل السحر الحقيقي الذي أثر في ذات عين موسى وجعله يرى خلاف الواقع ، وهنا يتفق هذا مع ما وقع للنبي ﷺ أنه خيل إليه أنه يأتي نساء وهو يأتيهن . وهذا النوع من قبيل التأثير على قوة التمييز البصري والله اعلم -

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن الأمر وصل عند المنكرين لواقعة سحر الرسول ﷺ إلى القول : بأنه لو جاز ذلك لكان مطعنا على الرسالة والرسول ، وهذا الأمر خطير يلزمنا بجلاء الحقيقة لتحديد ما هية كل أمر على حدة حتى لا يلتبس مفهوم بعضها ببعض الآخر .

وخرق العادة عند علماء اللغة : معناه تجاوزها ونقضها ، والجمع خوارق وهو ما يخرق العادة ويخالف مقتضاها .

وعند علماء الشريعة : هو فعل الله تبارك وتعالى غير المعتاد الذي يأتي على خلاف السنن المعروفة للبشر ولا يخضع لسبب عام أو خاص (٥٩) .

أما عن الأمور التي تنخرق تلك العادة من أجلها فهي :

الأمر الأول : المعجزة

وهي في عرف علماء اللغة : فتح الجيم وكسرها مفعلة من العجز وهو عدم القدرة ، والتعجيز التثبيط ومنه قوله تعالى (والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) (٦٠) أى يعاجزون الأنبياء وأولياء الله بمعنى يقاتلونهم ويمانعونهم ليصيروهم إلى العجز عن أمر الله ، وليس يعجز الله جل ثناؤه خلق في السماء ولا في الأرض ولا ملجأ منه إلا إليه (٦١) .

وعند علماء الشريعة : هي الأمر الخارق للعادة الذي يفوق طاقة البشر جميعا يظهره الله على يد بعض عباده من ذوى الأخلاق الفاضلة

= راجع : تفسير القرآن الحكيم (المنار) ج ٢ ص ٤٠٠ ، ج ٩ ص ٦٦ ، أحكام القرآن

ج ١ ص ٥٠ : ٥٥ تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٢٣٧ ، تفسير المعونتين لابن القيم ص

٣٢

(٥٩) راجع مادة خرق في المعاجم ، هداية المريد لعقيدة أهل التوحيد للشيخ محمد عlish ص ١٧٤

و ١٧٥ .

(٦٠) سورة سبا الآية (٥) .

(٦١) راجع مادة عجز في المعاجم وخاصة في لسان العرب لابن منظور .

والعقول الكاملة تأييدا لهم فى دعوى الرسالة مقرونا بالتحدى للبشر أن يأتوا بمثله^(٦٢) .

وهنا نلاحظ من هذا التعريف أنه لاسبيل الى تشبيه السحر بالمعجزة بوجه ما فليس فى هذا التعريف ما يتناول السحر للأسباب التالية :

١ - إن خرق العادة فى المعجزة يفوق طاقة البشر جميعا ، والسحر ليس كذلك .

٢ - أن المعجزة جاءت للرسول أو النبي بقصد التأييد له فى دعوى رسالته ولا تأتى إلا لمن بلغوا فى الأخلاق الفاضلة والعقول الكاملة مبلغا بعيدا والسحرة ليسوا كذلك .

٣ - خرق العادة هنا يأتى مقرونا بالتحدى للبشر أن يأتوا بمثله ، والسحر ليس كذلك فإن فى إمكان أى إنسان أن يكون ساحرا ويأتى بمثل ما يأتى به السحرة .

٤ - إن خرق العادة أصلا لا يكون إلا لسبب عام ومصلحة شاملة .

وبناء على ما تقدم تعلم أن المعجزة تفارق السحر من كل الوجوه ، ومن ثم فلا معنى للدعوى القائلة بأن السحر من خوارق العادات ، والدعوى القائلة بأن السحر لو جاز أن يؤثر فى الرسول ﷺ لكان ذلك مدخلا للطعن على الرسالة ، فقد بينا أن ذلك كان من جنس الأمراض الجسدية التى تعثر به ﷺ وبذلك يتضح سقوط هاتين الدعويتين^(٦٣) .

أما كون السحر يتميز بالخفاء الدقيق ، وكونه مجهولا لأكثر الناس فلا يدفعنا هذا الى القول بأنه من جملة خوارق العادات لأنه خاضع لقاعدة التعلم والتعليم وتلك من نواميس الكون المعتادة وبالتالي فى إمكان البشر من غير السحرة أن يأتوا بمثله على هذا المقتضى .

(٦٢) راجع جوهرة التوحيد للقانى ص ١٣٣ ، هادى الارواح للشيخ مصطفى الطير ص ٤٠ وهداية

المريد لعقيدة أهل التوحيد للشيخ محمد عlish ص ١٧٠ .

(٦٣) هداية المريد لعقيدة أهل التوحيد للشيخ محمد عlish ص ١٧٠ .

ثم إن المعجزة لا تستند لقاعدة التعلم والتعليم ، كما لا تستند لسبب خاص بل تستند فحسب الى قدرة الله تعالى الفاعل المختار ، ومن شروطها أن يعرى وقوعها عن جميع الحيل المعتادة في الكثرة أو الندرة فليس لها سبب في العادة أصلاً^(٦٤) .

ومع ما للمعجزة من معان وضوابط نجد بعض الفلاسفة ينحون منحى عجيباً فهم يقولون إن النبوة مكتسبة للعبد بمباشرة أسباب خاصة ، فهي عندهم صفاء وتجل للنفس يحدث لها من الرياضات وذلك بالتخلي عن الدُميم من الأمور .

لكن هذا القول غير معقول وغير مقبول ، فضلاً عن أنه قول لم يقل به أحد من علماء المسلمين بالنسبة للأنبياء والمرسلين ، وهذا لا شك خلط بين المعجزة وبين أحوال الكرامة ، وفيه من المغالطة ما لا يخفى على ذوى البصائر وهذا القول منهم من أقوى المسائل التي كفروا بسببها^(٦٥) .

خصائص المعجزة

وتختص المعجزة بعدة خصائص تبلغ ستاً ، بها تتميز عن غيرها من خوارق العادات :

الخصيصة الأولى :

أن تكون قولية كالقرآن الكريم ، أو فعلية كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ ، وكذلك إلقاء موسى عصاه حين أمره الله بذلك وإبراء الأكمه والأبرص على يد عيسى عليه السلام بإذن الله ، وقد تكون المعجزة تركاً : كعدم إحراق النار لأبراهيم عليه السلام فقد سلب الله تعالى منها قوة الإحراق ، فنفذت الأمر الصادر إليها من الله « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم »^(٦٦) حتى ظننت كل نار في الدنيا أن الأمر موجه إليها حينئذ فامتنعت عن التأثير في الأشياء جميعاً استجابة لأمر الله تعالى فما من شيء في الكون الا وهو مطيع لخالقه .

(٦٤) تحفة المريد على الجوهرة ص ١٢٧ ، تفسير القرآن الحكيم (المنار) ح ١١ ص ١٨٤ .

(٦٥) هداية المريد للشيخ محمد عليش ص ١٧٥ ، الفروقى للقرافي ح ٤ ص ١٦٨ .

(٦٦) سورة الأنبياء الآية ٦٩ .

الخصيصة الثانية :

أن تكون المعجزة غير مكتسبة بمعنى أنه لا يسبقها عمل كسبي للرسول أو النبي يترتب حصولها عليه وهى بهذا تكون خارقة للعادة ، كما أوضحناه آنفاً وأشرنا إلى إبطال دعوى الفلاسفة التى يرفضها العقل والشرع معا .

الخصيصة الثالثة :

أن تكون المعجزة خاصة بمن يدعى النبوة أو الرسالة وأن تكون مصدقة فى دعواه فلا تأتى بخلاف ما يدعو اليه ، وما يقوله عن نفسه وأن تكون مقرونة بالدعوى حقيقة أى فى الحال أو حكماً بأن تأخرت عنها بزمن يسير^(٦٧) .

الخصيصة الرابعة :

أن تتعذر معارضة المعجزة بحال من الأحوال لأنها إنما كانت للأنبياء ومن ثم يستحيل على البشر أن يأتوا بمثلها أو بمعارضها من جنسها حتى لو اجتمعوا مع الجن وجها لوجه وكان بعضهم لبعض ظهيراً لأنها من قدرة الله تعالى اتفاقاً .

الخصيصة الخامسة :

يشترط أيضاً لتحقيقها ألا تكون فى زمن نقض العوائد كطلوع الشمس من مغربها وهذا قيد لإخراج فتنة النجال عندما يأمر السماء أن تمطر ونحو ذلك من أشراط الساعة الكبرى .

الخصيصة السادسة :

يشترط كذلك فى صاحب المعجزة أن يكون ذكراً فلم يثبت أن حدثت لأنثى ولا يمكن أن يكون ، لأن منصب النبوة والرسالة يحتاج بطبيعته الى القوة والفطنة والادراك العالى ، بل إنها لم تكن لأى بشر لكنها للمعد لها إعداداً جيداً - بخلاف غيرها من الخوارق ، فقد تأتى للأنوثة والذكورة

(٦٧) جوهرة التوحيد للإمام اللقانى ص ١٢٣ و ١٢٤ .

معا ، فقد تتحقق الولاية لا مرة صالحة كما حدث لمريم بنت عمران عليها السلام على ما ذكره القرآن الكريم في سورة آل عمران ، فقد وجد كفيها زكريا عندها من الفاكهة المختلفة في غير أوانها حتى كاد يعجب لهذا فكان ردها عليه (هو من عند الله) الآية (٦٨) .

ونستطيع أن نضع بين يدي القارئ أمثلة من أنواع المعجزات التي وقعت لبعض الأنبياء المرسلين تأكيدا لما ذكرناه ولتكون الصورة واضحة في ذهنة حتى لا يضل ولا تزال قدم بعد ثبوتها والله المستعان .

أمثلة لأنواع من المعجزات

هنا سنضرب عدة أمثلة لبعض أنواع المعجزات وليس هذا على سبيل الحصر للذين وقعت لهم من الأنبياء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

المثال الأول :

لقد حدث أنه قد زج بسيدنا إبراهيم عليه السلام في النار التي أعدها قومه لإحراقه لأنه سفه أحلامهم وكسر أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، فأمر النار أن تمتنع عن المساس به عليه السلام وسلب منها قوة الإحراق بقدرته بل إنه سبحانه هيا له الجو الصافي - وهو في وسط النار - الذي يمكن معه أن يمكث فيه مكثا طبيعيا وذلك بتهيئة البرد والسلام معا في نفس الوقت ليكون الجو ملائما له .

وتلك معجزة خارقة للعادة بالفعل فهل يقدر على ذلك ساحر ؟

وتكون الاجابة بالنفي ولا بد فهي لاشك فوق مستوى البشر تماما ، كما سبق أن قررناه من قبل .

المثال الثاني :

كان عصر موسى عليه السلام يمتاز بالسحر ، فلما بعث جاءت معجزته العصا التي انقلبت حية حقيقية بقدرة الله تعالى وابتلعت كل ما

(٦٨) راجع الآية ٣٧ من سورة آل عمران .

فعله السحرة الذين أتى بهم فرعون من كل واد لهذه المناظرة التي التفت فيها المعجزة بالسحر فذهمته وقضت عليه ، وهذه المعجزة هي أعلى معجزاته عليه السلام وهي تسع وكلها فوق طاقة البشر ، فهي يستطيع ساحر - كما يدعى القائلون بقلب الأعيان - أن يقلب العصا حية حقيقية ؟ لتبتلع كل ما صنعه سحرة فرعون ، لكنه إنصافاً للحقيقة أن هؤلاء السحرة كانوا غير مماطلين في قبول الحق ولذلك أسرعوا إلى الإيمان بالله تعالى وقالوا لفرعون (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ... الخ الآية) (٦٩) .

فهذا المثال يوضح لنا الفرق جلياً بين السحر وبين المعجزة حيث وقعت المناظرة العملية بينهما على مرأى ومسمع من آلاف البشر وسجلها القرآن الكريم قرآناً يتلى إلى يوم القيامة وليس أوضح من هذا البيان العملي في الفرق بين المعجزة والسحر .

المثال الثالث :

اشتهر قوم عيسى عليه السلام بالطب - والطب علم من العلوم وليس سحراً (٧٠) ولكنهم برعوا فيه ، فلما بعث عيسى عليه السلام جاءت معجزته طبية من جنس ما برعوا ، وهي قطعاً فوق طاقتهم جميعاً حيث قام عيسى بإبراء الأكمه والأبرص (٧١) ، وأحيا الموتى بإذن الله تعالى كما أخبرهم عليه السلام بما كانوا يأكلونه وما يدخرونه في بيوتهم ، وكل ذلك كان يتم بمجرد اللمس من سيدنا عيسى عليه السلام أو دعائه وتضرعه إلى الله ، وفي هذا يقول تعالى حكاية عن لسان عيسى عليه السلام (أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) (٧٢) .

(٦٩) سورة الآيات ٦٩ : ٧٣ ، ٧٤ .

(٧٠) نقل بعض القدامى في قصة الحضارة أن منشأ علم الطب كان أصلاً من السحر على ما بيناه في تاريخ السحر .

(٧١) الأكمة : هو من ولد أعمى ، والأبرص : من به بياض ينتهي إلى الجذام ، والجذام مرض خطير ، وقد حذرنا رسول الله ﷺ من مخالطة المجنوم ولكن ليس بمعنى القطيعة له بل

المراد بذلك الوقاية لأنه لا عدوى إلا بأذن الله تعالى كما جاء في الحديث .

(٧٢) مودة آل عمران الآية (٤٩) .

المثال الرابع :

لقد بعث سيدنا محمد ﷺ في قوم اشتهروا بالفصاحة والبلاغة وعلو البيان ، بل كانوا أساطين البلاغة وفرسانها والى يومنا هذا يستشهد النحاة والأدباء بشعرهم ونثرهم ، ولذلك جاءت كبرى معجزاته ﷺ عملية بالدرجة الأولى حيث تَحَدَّث هؤلاء الأساطين وارتقت في مجال العلم بالفصاحة وعلو البيان والآداب والسلوكيات الرفيعة بما يعجز هؤلاء العرب ومن يأتي بعدهم الى قيام الساعة ، بل إن هذه المعجزة الكبرى وقفت منهم موقف المتحدى أن يأتوا بمثلها أو بعشر سورٍ بل تحدثهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثل القرآن لكنهم لم يستطيعوا ولن يكون .

وفي ذلك يقول الله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (٧٣) وهذا تحد عام .

ويقول تعالى أيضا (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) (٧٤) ، وهذا تحد أقصر من الأول لكنهم لم يستطيعوه ، وأخيرا قال تعالى (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) (٧٥) ومع ذلك لم يأتوا بشيء من مثل القرآن وثبت عجزهم أمام معجزات الأنبياء ولا غرو فهذه الأمور لا يقدر عليها ولا يستطيعها إلا من يملك الخلق والإعجاز ذلكم الله أحسن الخالقين ومن غير المعقول أن يناوىء المخلوق العاجز الخالق القادر سبحانه .

والواقع : أن القرآن بما اشتمل عليه من نظام رائع وأسلوب جذاب ، وضروب من الهداية وتشريعات أرست قواعد العدل بين البشر ، وقد ثبت بالتجربة أنها تشريعات عملية لا يمكن معارضتها بتشريعات أخرى مهما كانت ودليلنا أنها تشريعات مر عليها أربعة عشر قرنا من الزمان وبدأنا في القرن الخامس عشر الهجري ، ومع ذلك تتناول كل

(٧٣) سورة الاسراء الآية (٨٨) .

(٧٤) سورة هود الآية (١٣) .

(٧٥) سورة البقرة الآية (٢٣) .

المصالح التي يحتاج إليها الانسان ولم تظهر في ثوب البلى كما هي عادة النظم البشرية ولا عجب فإن واضعها هو الله الذي يعلم الأشياء علم اليقين ، وقد اشتمل القرآن كذلك على أنباء الأمم الماضية والأخبار عن المغيبات وغير ذلك مما يعجز البشر عن الإتيان به ، وليست هذه المعجزة العلمية هي الفريدة لرسولنا ﷺ بل له معجزات أخرى كثيرة .

ومما تقدم من الأمثلة القليلة تعلم أن قوة تأثير المعجزة هي قوة غير مستطاعة لا للإنس ولا للجن ولا للملائكة ولا لأي من المخلوقات على الإطلاق لأنها جاءت بهذا التحدي لتأييد المرسلين في دعوى رسالاتهم التي أمرهم الله بتبليغها للبشر في الأحقاب المختلفة من عمر الزمن .

الأمر الثاني : الإرهاص

الارهاص في اللغة : الإثبات ويكون مقدمة للأمر المحمود وإيدان به^(٧٦) وهو عند علماء الشريعة : العلامات الدالة على قرب بعث نبي من الأنبياء وإيدان بظهوره قبل بعثه ويكون تأسيساً لنبوته ورسالته ، وذلك كالنور الذي ظهر في جبين عبد المطلب جد رسول الله ﷺ ومنه الى جبين عبد الله بن عبد المطلب ، فقد كان علامة وإرهاصاً وإيداناً على قرب مولد نبي الله محمد ﷺ ومبعثه في أرض الجزيرة العربية .

ومما تذكره أيضاً كتب السيرة من جملة الإرهاصات إظلال الغمام له عليه الصلاة والسلام قبل البعثة ، وهو دليل آخر على قرب بعثته صلى الله عليه وسلم على ما قرره علماؤنا^(٧٧) .

الأمر الثالث : الكرامة

والكرامة لغة : اسم وضع للإكرام والعزة تقول العرب : له على كرامة أى عزازة ، وهى فى اصطلاح علماء الشريعة على معان : المعنى الأول :

هى الأمر الخارق للعادة الذى يظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح .

(٧٦) راجع رهص فى لسان العرب لابن منظور - ط دار المعارف .

(٧٧) تحفة المريد ص ١٣٣ ، هداية المريد ص ١٧٧ .

المعنى الثانى :

هى الأمر الخارق للعادة يظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح ليس بنبي فى الحال أو المال^(٧٨) وزاد بعض العلماء المحدثين على هذا قائلا (ولا يقترن بدعوى ولا هو مقدمة لها)^(٧٩) .

المعنى الثالث :

إنها أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح سواء علم بها أو لم يعلم^(٨٠) .

وهذا التعريف الأخير بضيف قيذا مهما ينبغى أن يعرفه أذعياء التصوف فى عصرنا الحاضر :

- أن يكون الصلاح أساسه الالتزام بالإسلام نصا وروحا ، وأن يكون متبعا لسنة نبيه ﷺ وليس مبتدعا فلا يمكن أن يقبل تصوف من المبتدعين الذين لا يتمسكون بسنة رسول الله ﷺ لأن الاتباع للرسول مأمور به شرعا ، والشريعة كل لا يتجزأ ، وبناء رسالة الاسلام على القرآن والسنة وكلاهما معضد للآخر وموضح له . قال تعالى مخاطبا رسوله (ثم جعلناك على شريعة^(٨١) من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين)^(٨٢) .

ومن ذلك يتضح أن الله تعالى قد أبان لنا عن المنهاج الواضح لهذا الدين القيم فمن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، ومن ثم فإن على المتصوفة فى هذا الزمان أن يعلموا هذا المبدأ . لأن بعضهم يتباهى بأفعال هى لاتبعد كثيرا عن أفعال الشعوذة بل لا تغالى إذا قلنا إنها شعوذة كمن يسير فى الموالد وبيده شعلة من النار ويضعها فى فمه ليطفئها فيه .

(٧٨) هداية المرید ص ١٧٧ ، الرسالة القشيرية للامام القشيري ح ٢ ص ٦٦٠ .

(٧٩) هادى الأرواح للشيخ مصطفى الطير ص ٦٣ سلسلة البحوث الاسلامية رقم ٣٣ .

(٨٠) جوهرة التوحيد للقانى ص ١٥٤ ط الاستقامة .

(٨١) الشريعة فى اللغة : المذهب والملة وهى ما شرعه الله لعباده من الدين والجمع شرائع .

(٨٢) سورة الجاثية الآيتان : ١٨ ، ١٩ .

ونحو ذلك فهذا ليس متبعا لدين ، ولا عقلانية فيه ، بل ذلك خرافة وشعوذة ، ومن يجادل في هذا فلا كلام لنا معه طالما بعد عن الإتيان والعقلانية الرشيدة التي تحفظ على الإنسان المسلم كرامته ودينه .

هذا ، وقد انكر الكرامة جمهور المعتزلة وبعض أهل السنة كابى عبد الله الحليمى من فقهاء الشافعية ، وقال بعدم جواز وقوعها للأولياء ، ولو جاز ذلك لا التبس الأنبياء بغيرهم ، والمعروف أن المعتزلة يقصرون خرق العادة على المعجزات فحسب^(٨٣) .

أمثلة من وقوع الكرامة

وقعت الكرامة لكثير من الناس الذين التزموا بمنهج الله تعالى وأخلصوا دينهم له سبحانه وسنذكر بعض الأمثلة على ذلك إتماما للفائدة :

المثال الأول :

ما حدث للسيدة مريم العذراء عليها السلام ، حينما كانت فى مصلاها وكانت تأتيتها فاكهة الصيف فى زمن الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى زمن الصيف ، كما حكاه القرآن الكريم فى قوله تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)^(٨٤) .

المثال الثانى :

كانت مريم عليها السلام بعد ولادتها لسيدنا عيسى عليه السلام تهزى النخلة فتسقط عليها رطبا جنيا ولم يكن عليها تمر قبل ذلك ، وقد أكد القرآن الكريم هذه الكرامة فى قوله تعالى (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا فلما ترى من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا)^(٨٥) .

فى الوقت الذى كانت مريم لا تجد ما تتغذى به لتعود إليها قوتها بعد إرهاق الولادة ، فأكرمها الله فأوجد لها الرزق إلا أنه تعالى جعل لكل

(٨٣) حاشية الأمير ص ٢٩ ، تحفة المريد ص ١٥٤ ، زبدة العقائد النفسية ص ٩٨ .

(٨٤) سورة آل عمران الآية ٣٧ .

(٨٥) سورة مريم الأتيان : ٢٥ ، ٢٦ .

شيء سببا فأمرها بالعمل وهو هز النخلة فأطاعت رغم عدم القوة حينئذ فخلق الله المسبب مرتبا على السبب ، والأمر الذى يدعو إلى الإيمان بحكمة الله فى كل شيء ما هو مشهور فى عالم الطب والأطباء أن الرطب يقوى جدار الرحم بعد الولادة ، وهذه فائدة طبية عظيمة ثبتت بالوحى القرآنى الكريم .

المثال الثالث :

إحضار عرش بلقيس ملكة سبأ - فى بلاد اليمن - على يد واحد من أتباع سليمان عليه السلام فى لحظة يسيرة وكان من أهل العلم ، وقد سجل القرآن الكريم هذه الواقعة فى قول الله تعالى (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيتك قبل أن یرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ...) الآية^(٨٦) .

هذا ، وقد أشار كثير من المفسرين الى ذلك وقالوا أن الذى نقل العرش هو آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام وكان عنده علم وكان رجلا صالحا^(٨٧) .

ونلاحظ فى هذه القصة ملحظا لطيفا وهو : أن الرجل العالم الصالح الذى يعمل بمقتضى علمه هو أقدر تفوقا من عفاريت الجن ، فإحضار آصف لعرش بلقيس من بلاد اليمن الى بلاد الشام حيث سليمان عليه السلام ، بهذه السرعة الخارقة ، وبدون تعاطى الأسباب اللهم إلا الهَمُّ بالفعل فحسب هو لاشك أمر خارق للعادة أجراه الله على يد عبد صالح فكان كرامة بالنسبة له ، ومعجزة بالنسبة لسليمان عليه السلام ، وهذا نادر فى عالم المعجزات أن يتم الفعل ويجتمع فيه المعجزة مع الكرامة فى نفس الوقت ، لكن ذلك لا يتم إلا إذا كان هناك طرفان صالحان أحدهما اصطفاه الله للنبوة والآخر أكرمه الله بالصلاح كما هو الحال هنا .

(٨٦) سورة النمل الآية ٤٠ والمعنى : أنا آتيتك به قبل أن تطبق أحفان عينيك .

(٨٧) تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٣٦٣ ، تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي مجلد ٦ ص

٤٩٢٠ هادى الأرواح للشيخ مصطفى الطير ص ٦٦ .

ولسنا فى حاجة الى أن نذكر أنه قد وقع كثير من الكرامات لكثير من الصلحاء فى عصور الأنبياء وفى غيرها ، وهو أمر غير منكور وسبحان القائل (ألا أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) (٨٨) .

وقد ذكر بعض العلماء كرامات وقعت فى الأمة المحمدية لكثير من الناس منذ العصر النبوى الى عصرنا الحاضر فالكرامة ثابتة بالشرع ولا مجال لإنكارها (٨٩) .

الأمر الرابع : المعونة

المعونة من الإعانة ومنها التعاون على الخير ، وهى من الخوارق للعادات أيضا ، كأن يظهر الله على يد بعض العوام من الناس أمرا لتخليصهم من شدة أو إعانة لهم فى أمر من الأمور (٩٠) .

الأمر الخامس : الاستدراج

وهو كذلك من الخوارق للعادات لكن الله تعالى يظهره على يد فاسق خديعة له ومكرأ به ويأتى الاستدراج مطابقا لدعوى ذلك الفاجر كالديجال وفرعون والجهلة الضالين المضلين (٩١) .

الأمر السادس : الإهانة

وهى ما يخرقه الله كذلك على يد فاجر أيضا تكذيبا له وتكون غير مطابقة لما يدعيه ، كما وقع لمسيلمة الكذاب صاحب موقعة اليمامة ، فإنه تفل فى عين أعور لتبرأ فعميت الصحيحة ، وكما لو ادعى أن معجزته فلق البحر فينفلق الجبل ، وهذا علامة واضحة على الإهانة (٩٢) .

(٨٨) سورة يونس الآيتان ٦٢ : ٦٤

(٨٩) هادى الارواح ص ٦٣ : ٦٩ .

(٩٠) حاشية الأمير ص ١١٦ ، ١٢٨ ، تحفة المريد ص ١٣٣ ، هداية المريد ص ١٧٥ : ١٧٧ .

(٩١) نفس المصدر .

(٩٢) المصادر السابقة .

هذه الأمور الستة هي التي تنخرق لها العادة ، وكما رأيت لكل منها مقصداً وهدفاً وتستطيع دون أدنى عناء أن تفرق بين كل منها . وهي محل اتفاق بين جمهور العلماء في خرقها للعادة ولم يعدوا السحر من جملتها ، وكل ما وجدناه في هذا السبيل أن بعضهم أشار إليه إشارة خفيفة تشتم منها رائحة ضعف القول بأن السحر من الخوارق ، فقد قال بعضهم : وقيل إن السحر من الخوارق ، وقال آخر : وزاد بعضهم السحر^(٩٣) .

قال العلامة الشيخ محمد عlish وغيره من العلماء : أن وضع السحر من جملة الأسباب التي تنخرق لها العادة خطأ بَيِّن لأنه بذلك يخفى الحق عن أعين الناس لعدم إمكانية التفريق بينه وبين المعجزة حينئذ وكأنها تتلقى بالتعليم والتعلم كالسحر ولا يقول أحد بذلك إطلاقاً^(٩٤) .

وقال القرافي من علماء المالكية : السحر والطلسمات والسيماء هذه الأمور الثلاثة ليس فيها شيء خارق للعادة ، بل هي عادة جرت من الله بترتيب مسبباتها على أسبابها غير أن تلك الأسباب لم تحصل لكثير من الناس بل للقليل منهم فإذا وجدت أسبابها وجدت على العادة .

ولكى نضع الأمور في نصابها سوف نعرض للكلام عن الفروق بين كل من المعجزة والكرامة والسحر وهي التي كثر الكلام عليها في باب السحر في كتب العلماء وفرقوا بين كل منها تمييزاً بينها وتحديداً لماهية كل أمر منها حتى يكون القارئ المسلم على بينة من أمره والله المستعان .

الفرق بين المعجزة والكرامة

ذكرنا فيما تقدم أن الذي دعانا الى عقد هذا المبحث والقول فيه هو ما استدل به المنكرون لواقعة سحره ﷺ بقولهم من إنه لو جاز ذلك لا التبس السحر بطريق المعجزة ، وكان من أبرز الخوارق التي تكلموا عنها

(٩٣) هداية المريد ص ١٧٥ ، ١٧٧ تفسير القرآن الحكيم (المنار) د ٩ ص ٤٢ .

(٩٤) سبق شرح الطلسمات والسيماء وراجع الفروق للقرافي د ٤ ص ١٦٨ .

هذه الثلاثة : المعجزة والكرامة والسحر على اعتبار أن السحر من جملتها (٩٥) .

ولايضاح وجه الحق في هذه المسألة كان لابد من التفريق بين هذه الثلاثة ليتم تحديد ما هية كل منها ، ويبقى السحر في النهاية مجرداً عن كل غموض .

والفرق بين المعجزة والكرامة يتضح لنا من الأمور التالية :

الأمر الأول

إن المعجزة تأييد من الله تعالى للرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم ، ولا تتوقف على سبب كسبي .

أما الكرامة فهيمنة من الله تعالى على عباده ظاهري الصلاح ، ولكنها ليست مقرونة بدعوى ، وقد تتوقف على سبب كسبي في بعض الأحيان كمجاهدة النفس وتصفيتها ودوام الصلة بالله تعالى ، وقد تأتي الكرامة هبة من الله للصالحين من عباده دون عمل منهم .

الأمر الثاني

إن صاحب المعجزة رسول أو نبي وكلاهما معصوم من الدناءات وغيرها مما لا يليق بمكانتهم العلية فهؤلاء قد اصطفاهم الله تعالى من سائر الناس لتبليغ شرائعه .

أما صاحب الكرامة وهو الولي فغير معصوم على الإطلاق لأن العصمة لا تكون إلا لمن يوحى اليه وهؤلاء هم الأنبياء والمرسلون بخلاف غيرهم من الناس فلا عصمة لهم مهما بلغوا من الصلاح والقرب من الله تعالى لأن العصمة للمكلفين بتبليغ الدعوة من الله تعالى خاصة . لأنهم في مكانات عليا لها صدارتها وخطورتها أيضا فضلا عن أنهم القدوة الحقة للبشرية .

(٩٥) قد أشرنا من قبل في غير موضع الى أن السحر ليس من خوارق العادات بل هو شبيه بها وهذا ما اختاره الأتوسي والقراقي من المالكية وغيرهما من العلماء وهو الذي نرجحه عقلا حيث لا دليل عليه بالنفي ولا بالإثبات أنه من الخوارق .

الأمر الثالث

أنه يشترط لأصحاب المعجزات وهم الأنبياء والمرسلون أن يكونوا من الذكور ، إذ يوحى إليهم ويتعرضون لمواجهة أقوامهم لتبليغ ما أمرهم الله به من الوحي الكريم ، ولا يقوى على ذلك ولا يستطيعه إلا نكر ، بخلاف الأنثى فإنها بحكم تكوينها لا تستطيع ذلك ، أما الأولياء فلا يشترط الذكورة فيهم بل يجوز أن تأتي الولاية للنساء الصالحات .

الأمر الرابع

أن المعجزة لا بد أن تكون متحدية للبشر جميعاً أن يأتوا بمثلها ، وكانت تأتي في غالب أمرها على نمط ما برع فيه القوم إلا إنها تفوق طاقتهم جميعاً لتثبت العجز الكلي لهؤلاء المعاندين ، ولا عجب فإن مصدرها هو الله تعالى فحسب وليس للرسول أو النبي دخل فيها أو كسب .

أما الكرامة فليست متحدية على الإطلاق وإنما جاءت تشريفاً وتكريماً من الله تعالى لذوى الصلاح من عباده من عامة الخلق .

الفرق بين المعجزة والسحر

كما فرقنا بين المعجزة والكرامة كذلك نفرق بين المعجزة والسحر - وهذا الفرق يأتي من أمور ثلاثة :

الأمر الأول : من حيث المصدر

مما هو معلوم ضرورة ، بل إنه من الأمور المسلم بها شرعاً أن مصدر المعجزة إلهي محض - كما أشرنا - يهدف إلى تأييد النبي أو الرسول في دعوى رسالته لأقرار الحق والعدل في الأرض بين العباد ، وهي من الله تعالى تأتي بلا أدنى عناء .

بخلاف السحر : فإن مصدره شيطاني محض يهدف إلى الإضرار بالناس وفعل النكايه بهم ولا يتأتى إلا بمعاناة كالتقرب إلى الشياطين وعبادة الكواكب وغير ذلك على النحو الموضح فيما سبق أنفا . وقد عبر القرآن

الكريم عن مصيرهم فقال تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة ، من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) (٩٦) .

هذا ، ومن العلماء من يقول بخارقة العادة للسحرة حيث قالوا : إن العادة تنخرق على يد النبي والولي والساحر ، لكن النبي يتحدى بها الخلق ويستعجزهم عن مثلها ، أما الولي والساحر فلا يتحديان الخلق ولا يستدلان على نبوة ، أما الولي فظاهر ، وأما الساحر فلأنه يمكن أن يعارضه ساحر آخر (٩٧) .

ثم اعلم أنه قد يقال : إن الله تعالى قد يخرق العادة على أيدي الفجار ، والساحر يعتبر من الفجار ، فما المانع أن يخرق الله العادة على يديه ولا فرق بين فاجر وفاجر آخر ؟

والجواب : أن الله تعالى وإن كان يخرق العادة على أيدي الفجار إلا أن ذلك يكون بهدف التكذيب لهم ، ودليل ذلك أن خرق العادة في مثل هذه الأحوال إنما يتم على نمط مخالف لما يدعيه ذلك الفاجر فيكون تكذيباً له كما وقع لمسيلمة الكذاب بموقعة اليمامة ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ، ثم إن ما يفعله الساحر من استخدام بعض الأدوات والأدعية الكفرية ورصد النجوم وما إلى ذلك من أفعال إنما هو عمل كسبي وليس فيه ما يتفق وقاعدة خرق العادات .

أما ما ادعاه الإمام فخر الدين الرازي من أنه لا بد من العلم بالسحر حتى يمكن الفرق بينه وبين المعجزة ، فقد أبطله بعض العلماء حيث قال : إن هذا الادعاء باطل لأن العلم بالمعجزة لا يتوقف على العلم بالسحر ، لأن المعجزة ما كانت مقرونة بالتحدي إلا لصيانة هذا المنصب الجليل عن أن يتسور حماه الكذابون .

(٩٦) سورة البقرة الآية (١٠٢) وراجع حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ج ٤ ص ٣٠٣ ،

نيل الاوطار للشوكاني ج ٧ ص ٣٦٦ ، صحيح مسلم يشرح النووي ج ١٤ ص ١٧٥ ، فتح

الباري ج ١٠ ص ٢٢٣ .

(٩٧) المراجع السابقة .

وقد سبق لنا الإشارة إلى أن معارضة الساحر واردة ، وما دام الأمر كذلك لا يكون السحر خارقا للعادة على أى مقياس ، ومن ثم يتضح لنا أن الفرق بين المعجزة والسحر بعيد من كل الوجوه المترتبة على مصدر كل منهما^(٩٨) .

الأمر الثانى : من حيث الشخصية

من المقطوع به أن شخصية النبى أو الرسول شخصية بلغت من الكمال الإنسانى مبلغا بعيدا ، وهى بطبيعية إعدادها طاهرة الظاهر والباطن ، عصمها الله تعالى من الدنات كبرها وصغيرها وأحاطها برعايته وعنايته ، وهى بطبيعتها على ما رباهما خالقها سبحانه تؤثر الآخرة على الدنيا باستمرار .

بخلاف شخصية الساحر ، فهى شخصية مأكرة بلغت من الانحطاط الإنسانى شأوا بعيدا فالساحر قد يقدم على عمل هو غاية فى الإضرار بالناس لقاء دريهمات قليلة ، كما فعله ليبيد بن الأعصم اليهودى فى سحره لرسول الله ﷺ حيث حصل على ثلاثة ننانير لقاء عمله الخبيث به^(٩٩) فانظر الى أى مدى انحطت كل مقومات الإنسانية فى الساحر .

فالسحرة قوم اتخذوا النفاق أساسا لمسلكتهم ، فبواطنهم ، خلاف ظواهرهم واستغنوا بالدنيا عن الآخرة ، وفى مسلكتهم هذا يقول الله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون)^(١٠٠) .

ومن ثم فقد كان للإمام مالك وأبى حنيفة فى المشهور عنه وجهة نظر فى منع قبول توبة السحرة بل عَامَلَهُمْ معاملَة الزنادقة لعمق خبثهم وسوء طويبتهم .

(٩٨) تفسير الرازى ج ١ ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، الزواجر لابن حجر ج ٢ ص ١٠٣ ، تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٤٥ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد (١) ص ٤٣٧ ، روح المعانى ج ١ ص ٣٣٩ .

(٩٩) فتح البارى ج ١٠ ص ٢٢٦ .

(١٠٠) سورة البقرة الآية ١٠٢ .

يضاف إلى ما تقدم من الفرق من حيث الشخصية أن شخصية النبي أو الرسول لا بد أن تكون مذكرة ، أما السحر ففيه السحرة من الذكور والساحرات من النساء ، وفي سورة الفلق ما يؤيد ذلك في قوله تعالى (ومن شر النفاثات في العقد) والمراد بالنفاثات هنا الساحرات على ما نكره جمهور المفسرين .

هذا ، وقد أفاد الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح عن بعض العلماء : إن الذي قام بعمل السحر للنبي ﷺ هن بنات لبيد بن الأعصم بإيعاز منه (١٠١) .

الأمر الثالث : من حيث قوة التأثير

علمنا مما تقدم أن المعجزات مؤثرات تأثير عجيبا وهائلا ليس في استطاعة بشر أن يؤثر بفعله مهما بلغ من العلم والمعرفة كما تؤثر المعجزة فهي فوق طاقات البشر ويستحيل عليهم أفراداً أو مجتمعين أن يصلوا إلى أدنى درجات المعجزات إن صح التعبير ، ذلك لأنها تتعلق رأساً بقدرة الله تعالى دون كسب أو عناء وتلك طبيعتها ولذلك سميت معجزة أي أنها تعجز كل البشر والجن والملائكة أن يأتوا بمثلها .

أما تأثير السحر فهو لا يتعدى ما قرره العلماء في قوة التأثير لأنه أما برصد الكواكب واستخدام الأجرام السماوية أو بقوة النفس أو باستخدام الأرواح الشريرة وهذه كلها دون المعجزة بكثير فهي بقوة الله تعالى خالصة فلا تقارب بينهما على أي حال .

رأى غريب

لقد ذكر ابن قدامة رأياً غريباً نسبته إلى أصحاب أبي حنيفة وهو أنه إذا حصل المرض أو الموت من الساحر من غير أن يصل إلى بدن المسحور شيء ترتب على ذلك إبطال معجزات الأنبياء عليهم السلام لأن ذلك يخرق العادات فإن جاز من غير الأنبياء بطلت معجزاتهم (١٠٢) .

(١٠١) فتح الباري د ١٠ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(١٠٢) المغنى لابن قدامة د ٨ ص ١٥١ .

تعليق على هذا الرأي

ويأتى تعليقنا على هذا الرأي من الوجوه التالية :

الوجه الأول :

نتساءل - هل خرق العادات مختص بالأنبياء والرسل فحسب أم أن خرق العادات أنواع ؟ فإذا كان الجواب بأنه مختص بالأنبياء والرسل فحسب ، نقول فلم وردت الكرامة والمعونة والاستدراج ونحوها من الخوارق التي ثبت خرقها للعادة ؟ وإذا كان خرق العادات أنواع ومسلم بذلك فلم رتب الرأي المزعوم إبطال المعجزات بمجرد خرق العادة ؟

الوجه الثانى :

أنه قد يحصل الجرح والقتل من المجرمين للمجنى عليهم من الناس من غير مباشرة ، ولا فرق بين ذلك وبين ما يفعله الساحر من القتل أو المرض ولا وجه كذلك للربط بين ذلك وبين معجزات الرسل الكرام .

الوجه الثالث :

أن المعجزة لا تخضع لنواميس الكون بخلاف السحر فإنه يخضع لها فإذا خلى الله بين السحر والمسحور حصل المقصود ، والمراد من الإذن فى قوله تعالى (وما بضارين به من أحد إلا بأذن الله) تلك التخلية وهذا مذهب السلف فى سائر الأسباب والمسببات^(١٠٣) .

أما من يقول بأن الإذن هنا بمعنى الأمر ، فهذا ليس على سبيل الحقيقة بل هو من قبيل المجاز المرسل علاقته ترتب الوجود على كل منهما ، والقرينة المانعة من استخدام المعنى الحقيقى هى عدم كون القبائح مأمورا بها^(١٠٤) .

ومن ثم يتضح أن القول بإبطال المعجزات ترتيبا على تأثير السحر من الموت والقتل من غير مباشرة قول لا يلتفت إليه ولا يتفق مع القواعد العامة للشريعة الإسلامية الغراء .

(١٠٣) روح المعانى للآلوسى ج ١ ص ٣٤٠ و ٣٤١ .

(١٠٤) روح المعانى للآلوسى ج ١ ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

(الفصل الرابع) (فى أحكام السحر وكيفية إثبات جريمته)

وفيه مبحثان :

(المبحث الأول) (فى أحكام السحر ومسئولية الساحر)

فى هذا المبحث نبين إن شاء الله أحكام السحر من الاعتقاد والتعلم والتعليم وكذلك العمل به ، من واقع الأدلة الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وغير ذلك من الأدلة التى يمكن ذكرها ، ثم ننتقل الى تجريم الساحر وإثبات الجريمة بطرق الإثبات الشرعية مسترشدين بمنهاج الفقهاء وما نراه من أمور الترجيح إذا لزم الأمر والله المستعان .

أحكام السحر

اتفق العلماء على أن من اعتقد إباحة السحر فقد كفر بالله العظيم لأن فى ذلك تحليلاً للمحرم المجمع على تحريمه والمعلوم من الدين بالضرورة ، ولأنه رد لما لزم من شرط الايمان لما فيه من تكذيب الله سبحانه فيما أخبر به^(١) .

وقد استدلوا على هذا رأى بالأدلة التالية :

الدليل الأول

قوله تعالى (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر)^(٢) ولهذا الاستدلال وجهان :

(١) راجع : تفسير القرآن العظيم د ١ ص ١٤٧ ، روح المعاني للالوسى د ١ ص ٣٣٩ ، تفسير القرآن الحكيم د ٢ ص ٤٠٣ ، تفسير البيضاوى ص ٢٢ ، تفسير الرازى د ١ ص ٤٤٣ ، فتح البارى بشرح صحيح البخارى د ١٠ ص ٢٩٤ ، شرح النووى على صحيح مسلم د ١٤ ص ١٧٦ ، فتح القدير د ٦ ص ٩٩ ، كشف القناع للبهوتى د ٦ ص ١٨٦ ، مغنى المحتاج د ٤ ص ١٢٠ حاشية النسوقى على الشرح الكبير د ٤ ص ٣٠٢ ، البحر الزخار للامام المرتضى د ٦ ص ٢٠٥ .
(٢) سورة البقرة الآية (١٠٢) .

الوجه الأول :

إن قوله تعالى (وما كفر سليمان) جملة اعتراضية ، وقعت بين تأويل اليهود والشياطين على ملك سليمان ، وبين لكن الاستدراكية التى يستدرك بها الكلام فتثبت أن السحر من تعليم الشياطين ، والقصد بهذه الجملة الاعتراضية التى وقعت فى مناسبتها هو تبرئة سليمان عليه السلام مما تأوله عليه اليهود ، حيث قالوا : انظروا إلى محمد يخلط بين الحق والباطل ، يذكر سليمان مع الأنبياء مع أنه كان ساحرا .

ويذكر الألوسى فى هذا المقام أن القرآن عبر عن السحر بالكفر بطريق الكناية ، رعاية لمناسبة لكن الاستدراكية ، وفيه ترتيب الحكم على الوصف المشعر بالعلية ، ويعنى الألوسى بهذه العبارة أن السحر فى الأصل كفر ، ومن ثم فقد صار اليهود بمنزلة من نسب سليمان الى الكفر والعياذ بالله كذا ذكره غيره أيضا من العلماء .

وقد اعترض بعض علماء الشافعية على ما ذكره الألوسى حيث قالوا : لا نسلم بما قاله الألوسى من أن ذلك فيه ترتيب حكم على وصف أشعر بالعلية ، لأن المعنى أنهم كفروا وهم مع ذلك يعلمون الناس السحر فكان السحر زيادة على كفرهم الأصلي^(٣) .

الوجه الثانى :

أن الله تعالى قال فى شأن الملكين وعن لسانهما (وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه^(٤)) (فلا تكفر) أى فلا تكفر باعتقادك أن السحر مباح ، فقول الملكين إنما هو نصيحة وتحذير للناس من اعتقاد إباحة السحر حتى لا يجتروا على تعلمه وتعليمه قال ابن جريح فى الآية - كما نقله عنه ابن كثير - لا يجترىء على السحر إلا كافر^(٥) وهكذا فإن كل من جحد أمرا معلوما من الدين بالضرورة فقد كفر .

(٣) روح المعانى ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣ ، تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٣٦ ، الزواجر ج ٢ ص ١٠٤ .

(٤) الفتنه هى المحنة والاختبار ومنه قوله تعالى (إن هى الا فتنتك تصل بها من تشاء وتهدى من تشاء) راجع الآية ١٥٥ من سورة الأعراف .

(٥) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٤٣ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٣٩ ، فتح البارى ج ١٠ ص ٢٢٥ ، كشاف القناع ج ٦ ص ١٨٦ .

الدليل الثانى

قوله تعالى (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون)^(٦) .

وجه الاستدلال بهذه الآية بناء على قاله المفسرون أن اعتقاد إباحتهم عمل السحر والاشتغال به كفر ، فقد قالوا فى تفسيرها ولو أنهم آمنوا واتقوا السحر أى اعتقاداً أو تعلماً وتعلماً ، وبنفس هذه الآية استدلل الإمام أحمد لإحدى رواياته بتكفير الساحر وكذلك فعلت طائفة من السلف .

ونوضح وجه الاستدلال أكثر فنقول : إن الإيمان ضد الكفر ، « ولو » فى اللغة حرف امتناع فالإيمان هنا ممتنع عنهم ويثبت نقيضه وهو الكفر^(٧) .

الدليل الثالث

ما رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ (من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)^(٨) هكذا أورده الشوكانى وقال رواه أحمد ومسلم وأورده الحافظ ابن كثير فى تفسيره وقال إسناده جيد وله شواهد أخر^(٩) .

وقال عنه الحافظ ابن حجر العسقلانى فى الفتح : أخرجه أبو يعلى من حديث مسعود بسند جيد^(١٠) مع اختلاف بين الرواة فى بعض الفاظه .

(٦) سورة البقرة الآية ١٠٣ .

(٧) الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٤٦ ، تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٤٤ .

(٨) نيل الأوطار للشوكانى ج ٧ ص ٣٦٧ .

(٩) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٤٤ .

(١٠) دأب علماء الحديث بنكر ألفاظ تدل على قبول الحديث وهذه الألفاظ تكون مرادفة للصحيح

والحسن فمنها قولهم (حديث جيد) أو (مجود) أو صالح) أو ثابت أو مشبه .

ونود هنا أن نبين معانيها للوقوف على درجة الحديث ، فالحديث الذى معنا قال عنه العلماء

إنه مرادف للصحيح من حيث السند ، وهذا ما يراه ابن الصلاح والبلقيني ، ودليلهما على هذا

استعمال أرباب فن الحديث فلن الإمام أحمد رحمه الله قال : أجود الأسانيد : الزهرى عن-

وزاد الطبراني من رواية أنس (ومن أتاه غير مصدق له لم يقبل الله له صلاة أربعين ليلة)^(١١) .

ووجه دلالة الحديث : أن النبي ﷺ يحذرنا من إتيان الكهنة والعرافين ومن إليهم ونهانا عن تصديقهم فيما يدعون حيث قد أكذبهم الله تعالى فيما يدعون ، كما أشار الى أن تصديقهم كفر ، لكن هل الكفر هنا يطلق على حقيقته أو أنه كفر مجازي ؟

والعلماء في ذلك فريقان فمنهم من قال : من اعتقد أن الكاهن والعراف يعرفان الغيب ويطلعان على الأسرار الإلهية كان كافرا كفرا حقيقيا كمن اعتقد تأثير الكوكب وإلا فلا^(١٢) .

وفي رواية عن نافع عن صفية عن بعض أزواج النبي ﷺ قال : من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ،^(١٣) ١

ومما ينبغي أن يعلم أن العلماء جعلوا الساحر والكاهن والعراف كلها من باب واحد . وأما المراد بعدم قبول الصلاة أربعين ليلة من المصدق لهؤلاء أنه لا ثواب له فيها وإن كانت مجزئة في إسقاط الفرض عنه ، ولا يحتاج حينئذ إلى إعادتها ، تماما كمن يصلي على أرض مغسوبة فهي مجزئة مسقطه للقضاء ولكن لا ثواب فيها ، وعلى هذا الجمهور من العلماء^(١٤) .

= عن سالم عن أبيه ، فعبر بالجودة في مقام الصحة فهذا دليل على تساويهما ، وكذلك نجد الترمذي يقول هذا حديث جيد حسن في مقام : هذا حديث صحيح حسن . أما الامامان النووي وابن حجر فيريان أن الجيد لا يبلغ درجة الصحيح بل هو درجة بين الصحيح والحسن ، وقالوا لأن البصير من أهل هذا الفن لا يعدل عن لفظ الصحيح الى غيره الا لنكته ، كان يرتقى الحديث عنده عن الحسن ويتردد في بلوغه درجة الصحيح ، فإذا قال جيد فهو أقل من صحيح . وأما الألفاظ : مجرد ، وصالح وثابت فقد اختلف فيها العلماء : فالبعض يرى أنها مرادفة للصحيح والبعض الآخر يرى أنها مرادفة للصحيح والحسن وهذا ما اختاره النووي وبقي لفظ واحد ، مشبه ، فقد قال عنه أهل العلم أنه أخط رتبة من الحسن . (راجع ما ذكرناه : كتاب مصطلح الحديث لفضيلة المرحوم الدكتور إبراهيم الشهawy ص ٢٠ و ٢١ دار الطباعة المحمدية .

(١١) نيل الأوطار ح ٧ ص ٣٦٨ .

(١٢) نفس المرجع ، والكفر انواع : كفر الجحود : ان يعترف بقلبه ولا يقر بلسانه ، كفر المعاندة : ان يعترف بقلبه ويقر بلسانه لكن لا يدين به وكفر النفاق : وهو ان يقر بلسانه ويكفر بقلبه .

(١٣) صحيح مسلم بشرح النووي ح ١٤ ص ٢٢٧ .

(١٤) المرجع السابق :

حكم تعلم السحر وتعليمه والعمل به اختلف العلماء فى هذه المسألة على أربعة آراء : الرأى الأول

يرى جمهور أهل السنة أن عمل السحر وتعلمه وتعليمه حرام وهو من الكبائر لكن منه ما يصل إلى حد الكفر ومنه ما يكون معصية كبيرة ، وقد ادعى النووى وغيره من العلماء الإجماع على ذلك^(١٥) ونلاحظ أن هذا الرأى يتناول دعويين :

الدعوى الأول : إن تعلم السحر وتعليمه كبيرة من الكبائر .
الدعوى الثانية : إن تعلمه وتعليمه كفر .

لكن هذا يتوقف الحكم فيه على الطريقة التى استخدمها الساحر فإن كانت باعتقاد مكفر كاعتقاد تأثير الكواكب بنفسها مثلا ونحوه كان كفرا وإن سلم له اعتقاده وإلا فلا ، فإن كان يعمل فيه مكفر كإهانة ما عظم الله فهو كفر وإلا فلا .

وعلى كل فالسحر منموم على كل حال ، ومع أن هذا هو ماعليه جمهور أهل السنة إلا أنهم اختلفوا فيما بينهم فى التكليف الشرعى لهذه الحرمة على أقوال :

القول الأول :

إن تعلم السحر وتعليمه معصيتان كبيرتان وهو قول علماء الشافعية وابن حزم وبعض علماء الحنيفة ورواية عن الإمام أحمد والزيدية^(١٦) .

(١٥) نرى أن هذا الادعاء بالاجماع فيه احتمالان :

الاحتمال الأول : أن النووى وغيره ممن نقل الاجماع على حرمة العمل بالسحر لم يطلع على الآراء القائلة بالجواز .

الاحتمال الثانى : بجوز أن تكون هناك آراء فى المسألة بالجواز وعدمه قبل العصر الذى حدث فيه الاجماع المدعى ، فقد وجدنا لبعض العلماء آراء تجوز تعلم السحر بل ذهب البعض الى وجوب تلك كالامام الرازى ، كما ذكره الالوسى أيضا ، وأبعد من ذلك من ذهب إلى القول بفرضية تعلم السحر وسيأتى بيان ذلك كله .

(١٦) المذهب د ٢ ص ٢٢٥ ، الزواجر د ٢ ص ٩٩ ، ١٠٣ و ١٠٤ ، صحيح مسلم بشرح النووى د ١٤ ص ١٧٦ روح المعانى د ١ ص ٣٣٩ ، المحلى د ١٣ ص ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، حاشية ابن عابدين د ١ ص ٤٤ ، ٤٥ ، البحر الزخار د ٦ ص ٢٠٥ ، أسنى المطالب د ٤ ص ١١٧ ، فتح البارى د ١٠ ص ٢٢٤ ، تفسير البيضاوى ص ٢٢ ، حاشية الشرقاوى د ٢ ص ٣٨٦ ، فتح القدير د ٦ ص ٩٩ ، حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٠ .

فالشافعية : لا يرون الساحر مرتدا إلا إذا أتى فى سحره بقول أو فعل مكفر كالإشراك بالله أو السجود لغيره كالشمس والكواكب أو استحلال السحر ، أما فيما عدا ذلك فهو مسلم عاص وجان كسائر الجناة ولذلك فإنهم يشترطون للحكم على الساحر أن يصف سحره والكيفية التى تم بها حتى يمكن الحكم بمقتضاه .

أما تعلم السحر وتعليمه مع اعتقاد حرمة فكبيرتان لأن الساحر إذ لم يكفر بتعلم الكفر فلأن لا يكفر بتعلم السحر أولى ، ولذا حكموا عليه بالفسق^(١٧) .

قد يقال إن فى قوله تعالى (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) إشارة الى اختيار الحكم بكفر الساحر وهذا هو الظاهر من الآية ، ولا يكفر الإنسان بتعليم الشيء إلا ذلك الشيء ككفر^(١٨) .

والجواب عن ذلك من وجهين :

الوجه الأول :

أن الله تعالى ما سماه كفرا إلا باعتبار أنه يجر إلى الكفر أو أنه يحمل على مستحلى السحرا أو من يعتقد تأثيره بنفسه^(١٩) .

الوجه الثانى :

أن الشياطين كفار قبل التعليم ، فكان تعليمهم السحر للناس ضللا زائدا على كفرهم ومعصية حادثة ، وهذا مقتضى ظاهر الآية على ما ذكره بعض العلماء^(٢٠) .

(١٧) حاشية الشرقاوى ج ٢ ص ٣٨٦ ، المجموع ج ١٨ ص ٢٣ ، المهذب ج ٢ ص ٢٢٥ ،

فتح القدير ج ٦ ص ٩٩ ، حاشية ابن عابدين ج ٤ ص ٢٤٠ ، المحلى ج ١٣

ص ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، البحر الزخار ج ٦ ص ٢٠٥ .

(١٨) فتح البارى ج ١٠ ص ٢٢٥ .

(١٩) حاشية الشرقاوى ج ٢ ص ٣٨٥ .

(٢٠) المحلى لابن حزم ج ١٣ ص ٤٧٦ ، ٤٧٧ .

أما إذا كان السحر يتم بالأسماء الإلهية وبعض آيات القرآن فإن المالكية والإمام أحمد في رواية عنه يرون أنه لا يكفر وإنما هو عاص يؤدب ويستتاب ، واشترط بعض الزيدية للقول بالحرمة أن يقصد بتعلمه الاستعمال .

وفي ذخيرة الناظر أنه حرام إذا كان للضرر وجائز إذا كان للمصلحة وفرض لرد ساحر أهل الحرب^(٢١) .

القول الثاني :

إن تعلم السحر وتعليمه كفر وإن لم يعمل به وهو قول مالك رحمه الله وكذا قاله أصحاب أبي حنيفة : إلا أنهم اشترطوا أن يعتقد أن الشياطين يفعلون له ما يشاء إذا كان هذا فقد كفر ، وهو رواية عن الإمام أحمد . ذكره ابن حجر الهيتمي والحافظ ابن حجر العسقلاني والقرطبي عن ابن العربي أيضا ، وبهذا القول قال من قبل جماعة من الصحابة والتابعين^(٢٢) .

القول الثالث :

إن تعلم السحر وتعليمه وفعله كفر : ذهب الى ذلك مالك والمشهور عن أبي حنيفة وأحمد في روايته الثالثة ، سواء اعتقد الساحر إباحته أو لم يعتقد^(٢٣) .

وقد عللوا هذا القول بأن الإنسان اذا تعلم السحر استلزم ذلك استعماله وهذا يقتضي تعظيم الشياطين والنطق بالدعوات الكفرية ولا شك أن ذلك كفر لا محالة .

(٢١) راجع حاشية النسوق ج ٤ ص ٣٠٣ ، التاج المذهب ج ٤ ص ٢٥٦ ، حاشية ابن عابدين ج ١ ص ٤٤ .

(٢٢) حاشية النسوق ج ٤ ص ٣٠٢ ، المغنى لابن قدامة ج ٨ ص ١٥١ ، ١٥٢ ، فتح القدير ج ٦ ص ٩٩ فتح الباري ج ١٠ ص ٢٢٤ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٤٤ ، الزواجر لابن حجر ج ٢ ص ١٠٣ كشف القناع ج ٦ ص ١٨٦

(٢٣) فتح القدير ج ٦ ص ٩٩ ، حاشية النسوق ج ٤ ص ٣٠٢ كشف القناع ج ٦ ص ١٨٦ تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٤٧ .

هكذا ذكره في الفتح عن القاضي عياض ، وكذا ذكره البيضاوى وابن قدامة والشوكانى وابن أبى هريرة كما نقله عنه الخطيب الشربيني^(٢٤) .

الرأى الثانى

إن تعلم السحر وتعليمه مكروهان - أى محرمان ذكره الألوسى فى تفسيره ونسبه إلى بعض العلماء ولم يعينهم ، والألوسى من علماء الحنفية وهؤلاء إذا أطلقوا الكراهة على شىء ولم ينكروا أنها تحريمية أو تنزيهية كان المراد بها الكراهة التحريمية^(٢٥) .

الرأى الثالث

يرى الإمام الرازى وصاحب النخيرة من الأحناف والشرقاوى من الشافعية أن تعلم السحر وتعليمه جائزان إذا كان الغرض شرعى كأن يتعلمه ليجتنبه كما قال أبو نواس :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه .. ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه .

وجائز كذلك إذا كان لعمل جلب المحبة بين الزوجين^(٢٦) ويجوزه كذلك بعض علماء الزيدية للحذر منه فحسب^(٢٧) .

قال بعض علماء المالكية إن أدى السحر الى عطف ومودة ومحبة بين الزوجين ونحوهما فلا حرمة فيه بمعنى أنه مباح ، وممن قال بهذا أيضا ابن قدامة من علماء الحنابلة واشترط لذلك أن يكون بشيىء من القرآن الكريم^(٢٨) .

(٢٤) فتح البارى ج ١٠ ص ٢٢٤ ، تفسير البيضاوى ص ٢٢ ، الفنى ج ٨ ص ١٥١ ، ١٥٢ ، نيل الأوطار ج ٧ ص ٣٦٢ ، مغنى المحتاج ج ٤ ص ١٢٠ .

(٢٥) روح المعانى للألوسى ج ١ ص ٣٣٩ و ٣٤٠ .

(٢٦) هذا بخلاف قياس الأثر فإنه من السحر الحرام ، أما ما يصنعه الأشياخ فالمقصود منه مجرد التبرك راجع حاشية الشرقاوى ج ٢ ص ٣٨٥ .

(٢٧) تفسير الرازى ج ١ ص ٤٤٣ ، حاشية الشرقاوى ج ٢ ص ٣٨٥ ، حاشية ابن عابدين ج ١ ص ٤٤ ، تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٤٤ ، شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٧٩ ، التاج المذهب ج ٤ ص ٢٥٦ .

(٢٨) راجع المصادر السابقة وحاشية الدسوقي ج ٠ ص ٣٠٢ ، مغنى المحتاج ج ٤ ص ١٢٠ ، المغنى ج ٨ ص ١٥٤ وتفسير النفسى ج ١ ص ٦٥ ، ٦٦ .

قال الحافظ ابن حجر : أجاز بعض العلماء تعلم السحر لأمرين :
الأمر الأول :

تميز ما فيه كفر عن غيره ، وهذا فلا محذور فيه إلا من جهة
الاعتقاد فإن سلم له اعتقاده فمعرفة الشيء بمجردة لا تستلزم منعاً ، كمن
يعرف عبادة أهل الأوثان وكيفيتها ولا يعتقدوها .

الأمر الثاني :

إزالة السحر عن وقع فيه : وهذا إذا كان لا يتم إلا بنوع من أنواع
الكفر والفسق فلا يحل أصلاً والاجاز للمعنى المذكور^(٢٩) .

الرأى الرابع

إن تعلم السحر وتعليمه فرض لرد ساحر أهل الحرب - نقله ابن
عابدين عن ذخيرة الناظر وهو كتاب من كتب علماء الحنفية ، ويتفق مع
هذا الرأى الإمام الرازى - ونكره الألوسى عن بعض العلماء - لم
يعينهم - الذين قالوا بوجوبه^(٣٠) .

ومن المعلوم لدى المشتغلين بالعلوم الإسلامية لا سيما علم الفقه
وأصوله أن الحنفية من بين سائر الفقهاء يفرقون بين الفرض والواجب
من حيث الدليل فما كان دليله قطعياً سموه فرضاً ، وما كان دليله ظنياً
سموه واجباً .

هذا ، وقد استدلل أصحاب كل رأى على ما ذهبوا إليه بأدلة نوردها
فيما يلى :

(٢٩) فتح البارى ج ١٠ ص ٢٢٤ .

(٣٠) حاشية ابن عابدين ج ١ ص ٤٤ ، تفسير الرازى ج ١ ص ٤٤٣ ، روح المعانى ج ١ ص

أدلة الرأى الأول الدليل الأول على الدعوى الأولى

ما رواه الإمام البخارى رحمه الله بسنده إلى أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال (اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)^(٣١) .

ووجه الاستدلال بهذا الحديث : أن النبى ﷺ وهو المكلف بالبيان قد عد السحر من جملة الموبقات^(٣٢) وأمرنا باجتنابها ، ومجافاتها والبعد عنها وهو أبلغ فى التعبير من غيره وهذا يقتضى أن كل ما من شأنه هلاك الناس يكون كبيرة من الكبائر ، والكبائر منهي عنها . وعلى هذا يكون السحر مغايرا للكفر لأن الرسول ﷺ عطف السحر على الشرك ، والعطف يقتضى المغايرة كما هو معلوم من قواعد اللغة فيثبت أن السحر كبيرة من الكبائر وهى محرمة بكل حال .

الدليل الثانى على الدعوى الأولى

قول الله تبارك وتعالى (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون)^(٣٣) .

(٣١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج ٥ ص ٣٩٣ .

(٣٢) المعصية الموبقة أى المهلكة ، والموبقة من وبق بفتح الباء من باب ضرب إذا هلك ومنه قوله

تعالى (وجعلنا بينهم موبقا) الآية ٥٢ الكهف - راجع المحلى ج ١٣ ص ٤٧٦ - ٤٨٠ ،

فتح المنعم على شرح مسلم للكتور موسى لاشين ج ١ ص ٣٦٠ .

(٣٣) سورة البقرة الآية (١٠٢) .

أما وجه الدلالة فيها هو أن الآية الكريمة أشارت الى أن السحر ضرر في الدنيا وفي الآخرة فضرره في الدنيا أن الساحر يضر نفسه ويضر غيره لأنه إذا عثر عليه عوقب وأدب ولحقه شؤم السحر وعاره ، فضلا عن أنه يوقع الضرر بغيره من الناس ، أما ضرره في الآخرة فليس لمن يقوم به ويستخدمه نصيب فيها ، إذا علم هذا فقد ثبت أن السحر ضار بالمجتمع والإضرار به من الكبائر ، فالسحر كبيرة من الكبائر^(٣٤) .

تنبيه :

ومما تقدم من التدليل على الدعوى الأولى بأن السحر محرم وكبيرة من جملة الكبائر وهو مغاير للشرك ، تعلم ما كان يمكن أن يستدل به أصحاب الرأي الثانى الذى ذكره الألوسى عن بعض العلماء وهو أن تعلم السحر وتعليمه مكروهان بمعنى أنهما حرامان ، وقد بينا إرادة الكراهة إذا أطلقت عند الأحناف فيما سبق .

دليل الدعوى الثانية من رأى الأول

استدل أصحاب هذه الدعوى وهم أصحاب رأى الأول من جمهور أهل السنة على حرمة السحر علما وتعلما واستخداما وأنه كفر حيث أشارت إليه الآية وهى قوله تعالى (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر الخ) الآية^(٣٥) .

ووجه الاستدلال بهذه الآية أنها أشارت فى غير موضع منها إلى أن السحر علما وتعلما واستخداما كفر ، وظاهر الآية أن ذلك السحر هو سبب الكفر ولا يكفر بتعليم الشئ إلا وذلك الشئ كفر ، فقوله (وما كفر سليمان بمعنى ما سحر سليمان ، وقوله (فلا تكفر) أى بتعليمك

(٣٤) الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٤٥ و ٤٤٦ - المحلى لابن حزم ج ١٣ ص ٤٧٦ -

٤٨٠ فتح المنعم على شرح مسلم ج ١ ص ٤٦٠ .

(٣٥) سورة البقرة الآية ١٠٢ .

السحر ، وهذا ما عليه جمهرة المفسرين لأن العلم والتعليم لفن السحر يجر إلى العمل به وهو كفر ، بل إن بعض العلماء قال لا يصح السحر إلا إذا استخدم الساحر فيه الأعمال الكفرية كتعظيم الشياطين ونسبة الكائنات إلى الكواكب وما إليه ولذلك برأ الله سليمان من الأراجيف التي اخترعتها اليهود ، وجاءت هذه التبرئة تحمل إلينا حكماً نعلمه فلم يقل (وما سحر سليمان) ولكن قال (وما كفر سليمان) إشارة إلى أن السحر كفر ، وترتيب الحكم على الوصف المناسب المشعر بالعلية في الآية في قوله (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) هذا يجعل تعلمه وتعليمه كفراً على الإطلاق^(٣٦) .

مناقشة على هذا الدليل

اعتراض كل من الشافعية والشيخ أبي منصور الماتريدي على هذا الاستدلال :

فقال علماء الشافعية : أن حكاية الحال يكفي في صدقها صورة واحدة ، ومن ثم يحمل المعنى على سحر من اعتقد إلهية النجوم . وقالوا : لا نسلم بأن الآية فيها ترتيب حكم على وصف مشعر بالعلية ، لأن المعنى أنهم كفروا وهم مع ذلك يعلمون الناس السحر ، وإن فيكون السحر ضلالاً زائداً عليهم ، وهذا ما ذكره ابن حزم الظاهري أيضاً^(٣٧) .

أما الشيخ أبو منصور الماتريدي : فقال : إن القول بكفر الساحر على الإطلاق خطأ لا يجوز القول به بل لابد من البحث عن حقيقة السحر قبل الحكم على الساحر فإن كان مما شأنه الكفر كفر وإلا فلا^(٣٨) .

(٣٦) فتح الباري ج ١٠ ص ٢٢٤ و ٢٢٥ ، حاشية السوقي ج ٤ ص ٣٠٢ ، فتح القدير ج ٦

ص ٩٩ ، حاشية ابن عابدين ج ٤ ص ٢٤٠ ، روح المعاني ج ١ ص ٣٣٩ .

(٣٧) صحيح مسلم ج ١٤ ص ١٧٦ ، نيل الأوطار ج ٧ ص ٣٦٨ .

(٣٨) نيل الأوطار ج ٧ ص ٣٦٨ و ٣٦٩ ، مغني المحتاج ج ٤ ص ١٢٠ ، روح المعاني ج ١

ص ٣٣٩ ، حاشية ابن عابدين ج ١ ص ٤٥ .

هذا وقد أشرنا من قبل إلى ما قاله الإمام شهاب الدين القرافي المالكي عند قوله : إن إطلاق الكفر على السحر وأن الساحر كافر هو إطلاق غير دقيق وإن كان قريبا من حيث الجملة ، لأنه عند الفتيا في جزئيات الوقائع يقع الغلط العظيم الذي يؤدي إلى هلاك المفتي ... الخ^(٣٩)

ونرى أن الشافعية هنا يأخذون بالأحوط في هذه المسألة ، فهم لا يثبتون الكفر إلا بعد ثبوت المكفر وإذا كان سحره لا يوجب الكفر لكنه يعتقد إباحة السحر فهو كافر بسبب هذا الاعتقاد لا بسبب السحر نفسه^(٤٠) .
ولذلك قال علماؤنا الحنفية : يجب أن لا يعدل عن مذهب الشافعي في كفر الساحر والعراف وعدمه^(٤١) وفي رأينا أن السحر تعتريه الحالات الآتية :

الحالة الأولى :

إذا كان بلفظ مكفر أو كان صاحبه يسند المقادير لغير الله وكان يأتي بشيء مكفر كان ذلك السحر كفرا لا محالة .

الحالة الثانية :

إذا كان بألفاظ غير عربية وربما كان اللفظ مكفرا وهو لا يعلم بذلك وكان حال المتعلم لا ينسب المقادير لغير الله لم يكفر وإنما يجوز السحر بشروط ثلاثة :

الأول : أن يكون المقصود به نفع الخلق نفعاً محضاً .

الثاني : أن يكون بلفظ عربي كالأدعية والأسماء الحسنى ونحوها مما فيه صلاح .

الثالث : ألا يقع به ضرر بأحد من الناس ، كمن يفعله للحب مثلا بين رجل وامرأة بقصد الزواج لأنه يتسبب بذلك في إيقاع الخلوات

(٣٩) الفروق للقرافي ج ٤ ص ١٣٥ و ١٣٦ .

(٤٠) مغنى المحتاج ج ٤ ص ١٢٠ ، المهذب ج ٢ ص ٢٢٥ ، الزواجر لابن حجر ج ٢ ص ١٠٤ .

(٤١) حاشية ابن عابدين ج ٤ ص ٢٤٠ ، فتح القدير ج ٦ ص ٩٩ .

المحرمة التى تكون قبل عقد النكاح ، وليس بخاف على أحد ما يمكن أن يفعل الشيطان فيها وقد يترك الرجل المرأة بعد ذلك دون أن يتزوجها .

أدلة الرأى الثالث

أستدل أصحاب هذا الرأى وهم القائلون بجواز تعلم السحر وتعليمه بدليلين :

الدليل الأول

قوله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر)^(٤٢) .

ووجه الاستدلال بهذا القول الكريم إن التعليم قد ثبت حصوله من الملائكة وهم معصومون من ارتكاب المعاصى والتعلم أثر التعليم فيكون جائزا وقد رد بعض العلماء هذا الاستدلال بأن التعليم كان للابتلاء وللتمييز بين المعجزة والسحر هذا إذا ثبت أن التعليم كان من الملائكة .

وقال بعض المحدثين : إن هذا الاستدلال لا يتم ولا وجود له إلا إذا فسرنا الملكين على حقيقتهم الملكية ، أما من فسرهما على أنهما شيطانان أو رجلان فلا يتم له الاستدلال بذلك على جواز تعلم السحر^(٤٣) .

الدليل الثانى

وهو دليل عقلى ذكره الإمام الرازى قال : إن العلم لذاته شريف لعموم قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)^(٤٤) والتعليم المساق فى الآية للذم إنما هو محمول على التعليم للاغواء والإضلال ، فيكون العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محذور أصلا ولو لم يعلم السحر لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة ، وادعى الرازى أن هذا هو اتفاق المحققين .

(٤٢) سورة البقرة الآية ١٠٢ .

(٤٣) فتح البارى ج ١٠ ص ٢٢٤ ، هادى الأرواح للشيخ مصطفى الطير ص ٧٨ .

(٤٤) سورة الزمر الآية ٩ .

مناقشة هذا الدليل

أولا : لقد عقب ابن كثير عليه وقال : إن القول بأن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محذور وأن المحققين قد اتفقوا على هذا - قول لا يسنده دليل يوثق به إذ لو كان هناك اتفاق بين المحققين لاقترضى ذلك أن يكون منصوفا عليه من أئمة العلماء أو أكثرهم ، فأين نصوصهم عليه ؟

ثم كيف لا يكون محظورا مع ما ورد بشأنه من التبشيع في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ثانيا : إن إدخال السحر في عموم الآية (قل هو يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) هو خلط بين سقيم الأشياء وصحيحها إذ المقصود من القول الكريم مدح العالمين العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وليس ذلك الفن الذى نهى عنه الشرع^(٣٥) .

أدلة الرأى الرابع

استدل أصحاب هذا الرأى على ما ذهبوا إليه من وجوب تعلم السحر وتعليمه سواء ما كان على جهة الإطلااق كالتمييز بينه وبين المعجزة ، أم على جهة التخصيص كوجوبه على المفتى ببليين .

الدليل الأول

وهو دليل عقلى : حيث قالوا : إن العلم بالمعجزة يتوقف على العلم بالسحر ، والعلم بالمعجزة واجب ، فوجب ما أدى إليه وهو العلم بالسحر فيكون واجبا للفرق بينه وبين المعجزة وما أدى إلى الواجب فهو واجب وما يكون واجبا كيف يكون حراما وقبيحا^(٤٦) .

(٤٥) راجع تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٤٦) تفسير الرازى ج ١ ص ٤٤٣ ، الزواجر لابن حجر ج ٢ ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

مناقشة هذا الدليل

وقد ناقش بعض العلماء أصحاب الرأي الرابع فيما استدلوا به على قولهم بوجوب تعلم السحر حتى يستطاع التفريق بينه وبين المعجزة فقالوا :

إن قولهم بأن المعجزة يتوقف فهمها على تعلم السحر وتعليمه هو قول ممنوع شرعا ، فضلا عن فسادہ لأن العلماء قد عرفوا الفرق بينهما مع أنهم لم يعرفوا السحر ولا تعلموه ، ثم كيف تتوقف معرفة الطهارة على الأشياء الخبيثة ، ومن ثم فإن ما استدلوا به من دليل عقلى لا يعول عليه كما نبه على ذلك بعض العلماء^(٤٧) .

الدليل الثانى

وهو أيضا دليل عقلى على ما ذهب اليه أصحاب الرأي الرابع من أنه يجب على المفتى تعلم السحر حتى يستطيع أن يفتى فيما يعرض له من قضايا السحرة فقالوا : إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ومن ثم فقد وجب على المفتى أن يتعلمه ليوقف على حقائقه ودقائقه حتى يستطيع أن يفرق بين ما يقتل منه فيفتى حينئذ بوجوب القصاص ، وإذا كان مما لا يقتل فيقدر التعزيز فيه على ما يراه من التناسب بين التجريم والعقاب^(٤٨) .

وقد اعترض أيضا على هذا الدليل من قبل المحرمين بأن القول بوجوب تعلم السحر للمفتى قول غير صحيح لأن إفتاءه فيه لا يستلزم معرفته به ، ويكفى فيه شهادة عدلين عرفا السحر وتابا منه شأنه فى ذلك شأن كل الجرائم التى تعرض على المفتين والقضاة ، ألا ترى أنه كم من الجرائم التى قضى فيها من قبل المفتين والقضاة مع أن أيا منهم لم يزاوِل الجريمة ولم يتعرض لها مدى حياته . وإلا إذا كان الأمر كما يزعم القائلون بوجوب تعلم السحر فيلزم أن يسرق القاضى ويذنى ويفعل كل الجرائم حتى يستطيع القضاء فيها . وهذا لاشك قول فاسد تمنعه الشريعة من أساسه فضلا عن أنه مرفوض من قبل عقلاء الأمة .

(٤٧) الزواجر ج ٢ ص ١٠٣ ، روح المعانى ج ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٤٨) تفسير الرازى ج ١ ص ٤٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

ونستطيع أن نقول في هذا المضمار : إن ما نقله ابن عابدين عن نخيرة الناظر من أن تعلم السحر وتعليمه فرض لرد ساحر أهل الحرب وهم اليهود والنصارى ومن إليهم وهم معروفون بعداوتهم للإسلام والمسلمين . أقول : لعل هذا القول مقصود به رد كيدهم ورد كيد الأعداء إذا حزب الأمر شئ واجب ، على أن ما يغلب على ظنى أن الآراء التى قالت بجواز تعلم السحر أو وجوبه أو فرضيته هى آراء مرجوحة لا تثبت أمام النصوص القرآنية والنبوية التى صرحت كلها بأن تعلم السحر وتعليمه إما كفر وإما كبيرة من الكبائر تجر الى الكفر ، لاسيما وقد ثبت أن السحر ضرر بالخلق لا خير فيه ومستخدمه لاحظ له فى الدنيا ولا فى الآخرة . وهذا ما نرجحه لقوة أدلة القائلين بهذا وهى أدلة لا تقوى أدلة المخالفين على معارضتها ولا تثبت أمامها والله أعلم بالصواب .

حكم تعلم فن الشعوذة

ذكرنا فيما مضى أن للشعوذة تأثيرا بصريا ، وقلنا هناك إن ذلك يعتمد أساسا على خفة اليد بمساعدة المواد المعملية والكيميائية أو تركيب آلات هندسية أو غير ذلك ، وقد ضربنا أمثالا من حيل هذا الفن وبيننا السر فيها .

وكما بينا حكم تعلم السحر الحقيقى وتعليمه ، نبين أيضا هنا حكم تعلم فن الشعوذة وتعليمه وقد أسمينا هذا النوع بالسحر المجازى لأنه ليس سحرا على وجه الحقيقة وإنما أطلق عليه لفظ السحر بطريق التجوز لكونه خافيا على كثير من الناس .

آراء العلماء فى ذلك

(الرأى الاول)

يرى جمهور العلماء منهم الإمام الرازى وأبو بكر الجصاص والحافظ ابن حجر العسقلانى وابن قدامة من الحنابلة والشافعية أن المشعوذ المستخدم لهذه الأفعال الغريبة سواء كل ذلك بالآلات عجيبة أو نسب هندسية أو إيهام الناس وتخويفهم أن هذا كله ليس بسحر وبالتالي ليس بكفر وكذلك من يدس الأدوية المبلدة فى الطعام أو دفن الأشياء القنطرة فى دور الناس ،

ولا يبلغ شيء من ذلك الى حد الكفر أو القتل ، بل يجب أن يؤدبوا
ويزجروا بحبس أو غيره بمعنى أن عقوباتهم تكون عقوبات تعزيرية بالغة
دون القتل ، ويتفق معهم فى هذا الحنفية والمالكية والحنابلة والزيدية
والظاهرية^(٤٩) .

وغنى عن البيان أن الشافعية يعتبرون الساحر فى الأصل جانيا
كسائر الجناة وهو هنا ليس ساحرا حقيقيا وإنما هو مشعوذ يستعمل الحيل
والخداعات والتمويهات التى لا حقيقة لها وبناء على هذا فهم لا يرون قتل
المشعوذ بالأولى ، وبعض هذا الجمهور يشترط لعدم القتل أن يعترف المشعوذ
بأن ما يفعله حيلة ومخاريق^(٥٠) .

الرأى الثانى

يرى القاضى وأبو الخطاب وغيرهم من العلماء أن المشعوذ يدخل
فى حكم السحرة خاصة الذين لهم أشياء غريبة كقطع رأس إنسان وإعادته
وجعل نحو دراهم من التراب وغير ذلك بأنهم فى معنى السحرة إن لم
يكونوا منهم^(٥١) .

على أن الباحث فى فن الشعوذة يجب أن ينظر الى واقع الأمور
ويجعل للنظر الصحيح المتعلق قيمة فى حكمه ، فحقيقة الشعوذة أو السحر
المجازى - على ما اخترناه من تسمية - أنها صناعة من الصناعات التى
يستخدمها الإنسان فى إظهار الأمور على غير ماهى عليه فى الواقع ،
وسحرة فرعون كانوا من قدماء المصريين وقد كان لهم الباع الطويل فى
إحكام الخيالات التى يحدثونها بحذق ومهارة وخفة وسرعة وهكذا كل من
هو على شاكلتهم فى كل زمان .

(٤٩) تفسير الرازى ج ١ ص ٤٥٠ ، أحكام القرآن للجصاص ج ٢ ص ٥٢ ، فتح البارى ج ١٠
ص ٢٢٤ ، المغنى لابن قدامة ج ٨ ص ١٥٤ ، حاشية ابن عابدين ج ١ ص ٤٣ ، مغنى
المحتاج ج ٤ ص ١٢٠ ، حاشية النسوقى ج ٤ ص ٣٠٢ ، البحر الزخار ج ٦ ص ٢٠٥ ،
شرح الأزهري ج ٤ ص ٣٨٠ ، المحلى ج ٣ ص ٤٧٠ ، ٤٧١ كشف القناع ج ٦ ص ١٨٧ .
(٥٠) المخاريق : واحدها مخرق وهو ما تلعب به الصبيان . راجع مادة خرق فى المعاجم .
(٥١) المغنى لابن قدامة ج ٨ ص ١٥٤ ، حاشية ابن عابدين ج ١ ص ٤٣ .

فالمشعوذون مع طول المران والتدريب يستطيعون أن يصرفوا الأنظار عما يتعاطونه بشعوذتهم ويظهرون أمورا غريبة في غاية العجب والدهشة ، مع أنه لو علم السر في ذلك لبطل هذا العجب وقد أوضحنا فيما مر بعض الأمثلة ويمكنك الرجوع إليها .

ومع ذلك ، فإن هؤلاء المشعوذين لا يسلمون في بعض الأحيان من خطورة أعمالهم ، فهم يستخدمون مواد كيميائية وغيرها من المواد التي لها خطورتها ، فإن كان المشعوذ جاهلا بخصائص المادة وعناصرها وما قد يترتب على عمله أصيب وربما كانت إصابته شديدة ، وإن كان عالماً دارساً لهذه المادة فقد لا يسلم أيضا من هذه الخطورة فلربما شغل بإعجاب الناس ، وغفل عن وسائل الوقاية واتخاذ الحيلة والحذر في عمله ، وعندئذ يصاب كذلك بإصابات قد تكون بالغة وربما أدت الى الموت وبهذا يكونون قد ذهبوا ضحية الجهل والغفلة والانشغال ، هذا فضلا عما يحدثونه في قلوب العامة من فساد قد يؤثر على عقائدهم أو يؤثر على حياتهم تأثيرا مباشراً ، فيكون الشر المستطير في كلتا الحالتين .

ونخلص مما تقدم إلى أن الشعوذة عمل لا هدف منه اللهم إلا الاكتساب الحرام وضياع أوقات الناس سدى فضلا عما ينجم عنه من فساد كما أوضحنا ولذلك فإننا نرجح أن الشعوذة حرام علما وتعلما وفعلًا وتقريحا لكن لا تصل الحرمة فيه الى درجة الكفر . أما إنها حرام فذلك - في نظرنا - يرجع الى سببين :

السبب الأول :

إن فيها إفساد للفطرة خاصة عند العوام من الناس ؛ يضاف إلى ذلك ابتزاز أموالهم بالباطل وفيما لا فائدة منه كضرب الرمل أو استخدام ما يسمى بالمندل ، أو ما يسمى (بفتح الكتاب) ليوهموا الناس أنهم يعرفون السارق أو متى يعود الغائب ونحوه مما فيه حاجة الناس الملحة فينتهز المشعوذ هذه الرغبة فيستميل قلوبهم ويأخذ منهم أموالهم بحجة أنه سيخبرهم بحقيقة الأمر ، وقد نهى الله عن ذلك بقوله تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)^(٥٢) وما جاء في السنة من أحاديث في هذا المضمار .

(٥٢) سورة البقرة الآية ١٨٨ .

السبب الثانى :

إن الشعوذة قد تحدث أضراراً بالناس كمن يعطيه المشعوذ بعض الأدوية المبلدة للعقول أو دسها له فى الأطعمة التى تحدث اضطرابات هرمونية وحينئذ تكون الطامة الكبرى والخطورة ، أو يكون الإضرار ناشئاً عن التضريب بين الناس بالغيبة والنميمة والوشاية فتحدث العداوة والبغضاء بين الناس وتترتب على ذلك آثار خطيرة بالمجتمع المسلم .

فاذا ثبت هذا مما ذكرناه فى السببين المذكورين وغيرهما من ضرر الشعوذة والدجالة فإنه لا شك يكون محرماً فى شريعة الإسلام التى من قواعدها إزالة الضرر .

عقوبة المشعوذ

لم تحدد الشريعة الإسلامية للمشعوذ عقوبة معينة محددة لأنها ليست موجبة للحد ولذلك فقد تركت لولى الأمر الشرعى تحديد نسبة العقوبة كما فعلته فى غير ذلك من الجرائم التى لم تقع فى باب الحدود لكن الشريعة من خلال قواعدها العامة أعطت للقاضى والحاكم عموماً ، حرية توقيع العقوبات التعزيرية لأن الشعوذة والدجالة تدخل فى باب التعازير^(٥٣) .

والشعوذة والدجالة وما إليها من المخاريق كلها حيل حرمها الإسلام فإن كان اللعب فى أصله جائزاً إذا لم يترتب عليه ترك واجب ، واللعب من جملة ما يفعله كل من الحاوى والمشعوذ ونحوهما إلا أنه مخادعة واحتيال ومراوغة بإظهار أمر جائز ليتوصل به إلى أمر محرم وهذا الأمر هو أكل أموال الناس بالباطل ، فوسائل المحرمات والمعاصى فى كراهتها والمنع منها بحسب إفضائها إلى غايتها ، فإذا كان الله قد حرم السحر ومنع منه ، ووجدت له طرق كالشعوذة مثلاً وهذه الطرق والوسائل تفضى إليه فإنه يحرمها ويمنع منها تحقيقاً لتحريم السحر وتثبيتاً لهذه الحرمة^(٥٤) .

(٥٣) التعازير : هى العقوبات التى لم تحدها الشريعة وتركزت تقديرها للقاضى بحسب ما يراه

(٥٤) أعلام الموقعين لابن القيم ج ٣ ص ١٣٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ص ١٦٤ .

(المبحث الثانى)

(إثبات جريمة السحر)

مما سبق بيانه عن موضوع السحر والسحرة يتضح لنا أن السحر جريمة من الجرائم التى يعاقب عليها ، فقد نمة الله فى كتابه وأشار إلى أنه يؤدى الى الكفر وأن له آثارا تحدث بالمسحور ، فهى إذن جريمة تتعلق بحق الله تعالى وحق العبد أيضا ، أما تعلقها بحق الله فذلك من حيث التحضير لها وطريقة ممارستها التى غالبا ما تكون بأعمال كفرية على النحو الذى ذكرناه من قبل ، وأما تعلقها بحق العبد إلى جانب حق الله فذلك من حيث الآثار الضارة المترتبة على هذه الممارسة والتى تقع على الشخص المسحور .

ولذا : إذا حصل الادعاء وثبتت الجريمة تصبح إقامة الحق خالصة لله تعالى ليس للعبد أن ينزل عنه ولا عبرة بإسقاطه إن أسقطه ، أما بالنظر إلى أن إثبات ذلك لا يتحقق إلا بعد تحريك الدعوى من المسحور والخصومة وطلب إقامة الحد كان للعبد نوع حق وإن لم يكن غالبا .

وعلى الرغم من خفاء السحر وغموض طرقه التى يصعب الوقوف عليها ، نحاول أن نتعرف على مسلك الفقهاء فى إثبات هذه الجريمة ، ومن عدالة الشريعة الإسلامية أن الإنسان لا يسأل إلا عما كان لنشاطه دخل فى وقوعه من الأعمال التى نصت الشريعة على تجريمها ، ومن ثم كان استحقاق العقاب رهنا بقيام الصلة والرابطة المادية بين نشاط الجانى وبين الجريمة فى معنى علاقة السبب بالنتيجة أو العلة بالمعلول .

وجريمة السحر شأنها شأن كل الجرائم فلا تثبت الا بتحقيق ركنين أساسيين هما : الإسناد المادى ، والقصد الجنائى ، وسنعرض لكل منهما تفصيلا مع ذكر آراء العلماء فى هذا الشأن مع محاولة استنباط الأحكام الضمنية بواسطة الدلائل والأمارات وقرائن الأحوال .



(الركن الأول) (الإسناد المادى)

ومعناه أن يقوم شخص بعمل السحر الذى من شأنه الكفر أو ارتكاب معصية كبيرة يتفق على هذا أكثر العلماء سواء كان ذلك عملا قلبيا كاعتقاد إباحة السحر أو عملا محسوسا كتعلمه وتعليمه والعمل به .

هذا وللإثبات طرق ثلاثة هى :

- (١) الإقرار .
- (٢) الشهادة .
- (٣) قرائن الأحوال .

والطريقان الأولان يكاد العلماء يتفقون عليهما كدليلين عامين فى الإثبات ، أما الطريق الثالث فإن جمهور الفقهاء لا يسمون باعتبار القرائن دليلا عاما من أدنة الإثبات ، اللهم إلا فيما نص عليه بنص خاص كالقسامة^(٥٥) ، ولعل لهم عذرا فى ذلك هو أن القرائن فى أغلب أحوالها تكون غير قاطعة فضلا عن أن التوسع فيها قد يجلب الحيف والظلم ، ومن ثم ينبغى أن يعمل بها بقدر الحاجة الملحة فحسب ، وذلك فى حالة عدم وجود دليل قاطع ، أما أقلية الفقهاء فيرون الأخذ بالقرائن فى إثبات الجرائم مع الاعتدال ، ومن هؤلاء الإمام ابن قيم الجوزية الذى يرى أن الحاكم إذا أهمل الحكم بالقرائن أضاع حقوقا كثيرة ، وأقام باطلا كبيرا ، وإن توسع فيها فقد وقع فى أنواع من الظلم والفساد^(٥٦) .

(٥٥) القسامة : بفتح القاف : اسم وضع موضع الأيمان التى تقسم وهى مأخوذة من القسم وهو اليمين وقيل اسم للأولياء ، وحقيقتها شرعا : أيمان يقسم بها أهل محلة أو دار وجد فيها قتل به أثر .
يقول كل واحد بالله ما قتلته ولا علمت له قاتلا ، فسيبها وجود القتل وركنها إجراء اليمين المذكورة وشرطها البلوغ والعقل والحرية .

(٥٦) التشريع الجنائى للمرحوم عبد القادر عودة ج ٢ ص ٣٤٠ ، ٣٤١ ، الطرق الحكمية لابن القيم ص ٤ ، ٥ .

وهنا أن لنا أن نأتى إلى الكلام عن طرق الإثبات الشرعية لجريمة السحر ، وهى على النحو التالى :

(الإثبات بالإقرار)

الإقرار لغة : هو الاعتراف بالحق ، كأن المقر جعل الحق فى موضعه ، وعند علماء الشريعة هو : إظهار مكلف مختار ما عليه لفظاً أو كتابة أو إشارة معلومة بما يمكن صدقه^(٥٧) .

وقد ثبتت شرعيته بالكتاب والسنة والإجماع : أما الكتاب فقوله تعالى (قال أقررتم وأخذتم على ذلکم إصرى قالوا أقرنا)^(٥٨) إلى غير ذلك من الآيات ، وأما السنة فقد ثبت أن الرسول ﷺ رجم ما عزا والغامدية بإقرارهما بالزنا^(٥٩) .

ولما كان الإقرار إخبار على وجه ينتفى معه التهمة أو الريبة كان أكداً من الشهادة ، ولذلك يعتبره المشتغلون بالقانون سيداً للأدلة ما دام قد صدر من بالغ عاقل ، مختار ، وأما الإجماع ، فإن الأمة سلفاً وخلفاً أجمعت على صحة الإقرار الصادر من بالغ عاقل بمحض إرادته واختيار كامل ، لأن العاقل المختار لا يكذب على نفسه كذباً يضر بها ، ولهذا كان حجة فى حق المقر توجب عليه الحد والقصاص كما يوجب عليه الحقوق المالية .

وليس الإقرار من قبيل الإنشاء بل هو إخبار وإظهار لما فى نفس الأمر فيصح من المكلف المختار بما يتصور معه التزامه ، أما الإقرار على الغير ففيه خلاف بين العلماء^(٦٠) .

(٥٧) كشف القناع ح ٦ ص ٤٥٢ ، التشريع الجنائى ح ٢ ص ٣٠٣ ، الموسوعة الفقهية ح ٢ ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٥٨) سورة آل عمران الآية ٨١ .

(٥٩) نيل الأوطار ح ٧ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٦٠) الأشياء والنظائر للسيوطى ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ ط دار أحياء الكتب العربية .

صور من الإقرار بالسحر

جاء رجل إلى الحاكم أو القاضي وأقر معترفا على نفسه بأنه ساحر يستخدم السحر ، أو قال ذلك وأضاف قائلا : قد قتلت فلانا بسحري ، وسحري يقتل في أغلب الأحوال ، هنا أصبح هذا الإقرار حجة عليه ما دام قد صدر مستوفيا لشروط الأهلية الشرعية ولذلك فإن جمهور أهل السنة يرون أن دمه مهدر وتكون عقوبته حينئذ القتل ، والمسلم والذمي والعبد والمرأة والرجل في ذلك سواء عند أبي حنيفة خلافا للأئمة الثلاثة الذين يرون أن القتل يكون بالنسبة للساحر المسلم فحسب ، أما الذمي فلا ، إلا إذا كان قد قتل بسحره ، وسيأتى تفصيل ذلك عند الكلام على عقوبة الساحر .

على أن بعض العلماء يوجب أن يستفسر من الساحر عن كيفية سحره إذ قد يظن ما ليس بكفر كفرا ، وضربوا لذلك بعض الأمثلة :

فإن قال الساحر أذيت بسحري ولكني لم أمرضه نهى عن هذه الإذاية فإن عاد إليها لزمه التعزير أما إذا مرض المسحور نتيجة تأثير السحر فيه وتألم حتى مات كان لوثا^(٦١) واشتروطوا لقيام هذا الإقرار واعتباره حجة أن تقوم بينة بأنه تألم به حتى مات ويستخلف وليه على ذلك ، وحينئذ تجب الدية^(٦٢) .

وقد نسب القرافي المالكي إلى أبي حنيفة أنه قال : إن اعترف الساحر بقتله إنسانا بسحره لم يجب عليه القود لأنه لم يقتل بمقتل ، وإن تكرر ذلك قتل لأنه سعى في الأرض بالفساد^(٦٣) .

(٦١) اللوث : بفتح الواو ، وهو لغة : له عدة معان منها : الكي والشر والجراحات ، وفي عرف الشرع هو شبه الدلالة ولا يكون بينه تامة وهو أن يشهد شاهد واحد على إقرار المقتول قبل أن يموت أو يشهد شاهدان على عداوة بينهما أو تهديد منه له أو نحو ذلك وهو التلوث أي التلطخ انظر مادة لوث / لسان العرب لابن منظور .

(٦٢) مغنى المحتاج ج ٤ ص ١١٩ ، صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٤ ص ١٧٦ ، فتح الباري ج ١٠ ص ٢٣٦ ، البحر الزخار ج ٦ ص ٢٠٥ .

(٦٣) الفروق لشهاب الدين القرافي ج ٤ ص ١٥٢ .

بينما نقل علماء الحنفية عن الإمام رحمه الله : أن الساحر إن اعترف بذلك قتل ولا يستتاب وهذا هو المشهور فعلا عن أبي حنيفة^(٦٤) .

أما الشافعية فقد انفردوا بجعل الساحر جانبا كسائر الجناة ولذلك رتبوا عقوبته وقدروها بناء على نوعية الإقرار من الساحر حسب تقسيمهم لأنواع القتل ، فهم يقولون : إن من أقر بأن سحره يقتل غالبا يكون قتل عمد ومن أقر بأن ذلك نادر فشبه عمد ، وإن أقر بأنه أخطأ من اسم المسحور الى اسم غيره فهو خطأ^(٦٥) ويمثل لهذا النوع الأخير بأن الساحر مثلا كان يريد بسحره محمدا فإذا به يخطئ ويبني سحره على إبراهيم .

ومن صور الإقرار أيضا ما نكره بعض العلماء من أن امرأة جاءت الى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها تسألها عن المرأة إذا عقلت بغيرها ماذا عليها ؟ فلما علمت أم المؤمنين بقصدها . وأنها ساحرة قد عقلت زوجها عن النساء ، أمرت عائشة بإخراجها عنها^(٦٦) .

والإقرار بالسحر له حالتان :

الحالة الأولى :

الإقرار حقيقة: وذلك بأن يعترف الشخص بأنه ساحر وارتكب جريمة السحر فى شخص معين ، ويبين الكيفية التى تم بها الآلة المستخدمة فيه إن وجدت .

الحالة الثانية :

الإقرار حكما : ويكون باليمين المردودة ، وذلك كأن أقيمت دعوى على شخص واتهم فيها بأنه ساحر يستخدم السحر ويفعله إضرارا بالناس ،

(٦٤) فتح القدير ج ٦ ص ٩٩ ، حاشية ابن عابدين ج ٤ ص ٢٤٠ ، أحكام القرآن ج ١ ص ٥٠ .

(٦٥) مغنى المحتاج ج ٤ ص ١١٨ ، حاشية الشرفاوى ج ٢ ص ٣٨٦ ، أحكام القرآن ج ١ ص

٥٠ ، ٥١ .

(٦٦) الزواجر لابن حجر ج ٢ ص ١٠٠ .

فيأتي ذلك الشخص وينكر هذا الاتهام وإذا طلب منه اليمين - عملا
بالقاعدة الشرعية « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » - نكل
عن اليمين .

فهذا النكول منه عن اليمين يعتبر إقرارا حكما عند بعض العلماء
منهم علماء الشافعية^(٦٧) .

فإذا صدر الإقرار صحيحا مستوفيا لشروطه أصبح المقر محلا
للمسئولية الجنائية وحققت العقوبة الشرعية المقررة ، ومما هو جدير
بالذكر أن الشريعة الإسلامية لا تنظر الى فعل الجاني مجردا بل تنظر
أيضا الى القصد ، وعلى أساس ذلك تتحدد المسئولية وتوقع العقوبة
المقررة في الشريعة الإسلامية .

الإثبات بالشهادة

الشهادة : مشتقة من المشاهدة لأن الشاهد يخبر عما شاهده ، وهي لغة
الخبر القاطع ، لأن الأصل فيها البيان والإظهار لحفظ الحقوق ومنه قوله تعالى
(شاهدین علی أنفسهم بالكفر)^(٦٨) ، أى بينوا ما هم عليه ، والمشاهدة هي
التمعيّن^(٦٩) .

وهي عند علماء الشريعة : فقد عرفها الحنيفة : بأنها إخبار صدق
لإثبات حق بلفظ الشهادة في مجلس القضاء^(٧٠) .

والشهادة مشروعة بالكتاب والسنة والإجماع : أما الكتاب فقوله
تعالى (واستشهدوا شهيدين من رجالكم)^(٧١) ، وأما السنة فقوله ﷺ
(شاهدك أو يمينه)^(٧٢) .

(٦٧) مغنى المحتاج ج ٤ ص ١١٨ ، حاشية الشرقاوى ج ٢ ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

(٦٨) سورة التوبة الآية ١٧ .

(٦٩) راجع مادة شهد في المعاجم ، كشاف القناع ج ٦ ص ٤٠٤ .

(٧٠) فتح القدير ج ٧ ص ٣٦٤ .

(٧١) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٧٢) صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٨٠ .

وأما الإجماع : فقد أجمع علماء الأمة على شرعيتها لأن الحاجة داعية إليها خاصة في هذه الأزمان المتأخرة التي كثر فيها التجاحد بين الناس ، ثم هي معونة للقاضي في الكشف عن الحقيقة والوصل إليها^(٧٣) .

وقد كان القاضي شريح رحمه الله يشجع عليها طلبا للنجاة من الله تعالى وكان مما قال في هذا : (القضاء جمر فنحه عنك بعودين) يعني بشاهدين^(٧٤) .

وقد اختلف العلماء في ثبوت السحر بالبينة^(٧٥) ، على رأيين :

(الرأي الأول)

إن السحر يثبت بالبينة كما يثبت بالإقرار ، لكن ما هي البينة التي يقصدونها ؟

فالبعض يرى : أنها الشهادة مطلقا سواء كانت أربعا أو أقل من ذلك .

قال القرطبي مؤيدا هذا الرأي : لو ثبتت على الساحر بينة بالسحر ووصفت البينة كلاما يكون كفرا وجب قتله ، ووصف الكلام المكفر لا يكون إلا باللسان المعبر بالشهادة^(٧٦) .

ويرى بعضهم أن البينة تشمل الشهادة واليمين والنكول عنه ، وتكون شاهد الحال لأن قوله ﷺ (البينة على المدعى) معناه أن على المدعى أن يظهر ما يبين صحة دعواه ، فإذا ظهر صدقه بطريق من الطرق ، حكم به هكذا ذكره الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله^(٧٧) .

(٧٣) اعتاد بعض من لاخلق لهم من الناس المتاجرة بالشهادة فيقفون أمام المحاكم وأقسام الشرطة ليستأجرهم مثلهم من الناس الذين ضاعت ضمانتهم ليشهدوا زورا دون أن يعرفوا شيئا عما يشهدون به ومن ثم يجب على القضاة أن يرفضوا شهادة من تكرر حضوره للشهادة أمامهم إذا لاحظوه .

(٧٤) كشف القناع ح ٦ ص ٤٠٤ .

(٧٥) البينة اسم لما يبين الحق ويظهره راجع الطرق الحكيمة ص ٢٨ .

(٧٦) الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٨ ، أحكام القرآن ح ١ ص ٥٠ ، حاشية ابن عابدين ح ٤ ص ٢٤٠ فتح القدير ح ٦ ص ٩٨ .

(٧٧) الطرق الحكيمة ص ٢٨ ، بداية المجتهد ح ٢ ص ٤٢٣ .

والمعروف عن ابن القيم أنه يعول على الأمارات والقرائن كالمالكية ويرى أن من خص البينة بالشهادة لم يوف البينة مسماها حقا ، وأنها لم تأت في القرآن قط مرادا بها الشهادة وإنما مرادا بها الحجة والدليل والبرهان^(٧٨) .

(الرأي الثانى)

إن إثبات السحر لا يمكن تصويره بالبينة بل يثبت بالإقرار فحسب ، وضرب أصحاب هذا رأى مثلا : بمن ادعى على ساحر أنه قتل أباه فحينئذ لا يفصل فى الدعوى حتى يسأل الساحر ويعمل حينذاك بمقتضى بيانه وهذا هو الظاهر ، وقد حكى هذا رأى عن بعض الشافعية وذكره ابن حجر العسقلانى وهو ظاهر كلام الإمام ابن حزم^(٧٩) .

أما عن أدلة الرايين

فإننا لم نجد لأصحاب رأى الأول - فيما اطلعت عليه - دليلا على ما ذهبوا إليه ، ولعلمهم استندوا فى هذا إلى أن الأحكام الشرعية يجرى إثباتها طبقا لمواعيد الإثبات العامة التى جاءت بها الشريعة الغراء .

والواقع : أن الشهادة أمر حيوى وملح جدا ، ذلك لأن إثبات الوقائع ومنها الجرائم يتوقف عليها ، ومتى ثبتت تقرر العدالة ، فلو أننا اقتصرنا فى الإثبات على الإقرار فحسب - ولا يحدث الإقرار قليلا - لما أمكن تضيق الخناق على المجرمين ومنهم السحرة ولاستمروا فى إجرامهم وضاعت بسبب ذلك أموال وحقوق لا قبل لأحد باحتمالها .

وأما أصحاب رأى الثانى : فقد استدلوا على ما ذهبوا إليه بدليل عقلى فقالوا إن شهادة الشاهد على الساحر يترتب عليها عقوبة ، والشاهد لا يعلم قصد الساحر ولا يشاهد تأثيره^(٨٠) .

(٧٨) الطرق الحكمية ص ٤ ، ٨ ، ١٤ .

(٧٩) مغنى المحتاج د ٤ ص ١٠٩ ، صحيح مسلم بشرح النووي د ١٤ ص ١٧٦ ، نيل الأوطار د ٧ ص ٣٦٣ ، فتح البارى د ١٠ ص ٢٣٦ ، المحلى لابن حزم د ١٣

ص ٤٦٩ ، ٤٨٠ ، الأضياء والنظائر للسيوطى ص ٥٣٨ .

(٨٠) حاشية الشرفوى د ٢ ص ٣٨٦ .

مع أنه قد نقل عن بعض علماء الشافعية أن السحر يثبت بالبينة كما لو قال سحرته بنوع كذا ، ويشهد شاهدان كانا ساحرين ثم تابا منه بأن هذا النوع يقتل غالبا أو نادرا فيثبت بما يشهدان به ، وممن قال بهذا ابن الرفعة من علماء الشافعية على ما نقله عنه الخطيب الشرييني^(٨١) .

صور من الشهادة

من ذلك ما ذكره الإمام الرازي في تفسيره : أن يشهد شاهدان بأن فلانا يعتقد أنه يصل بالتصفية إلى أن تصير نفسه مؤثرة في إيجاد جسم أو حياته أو تغيير شكل وهو ما يسمى بسحر أصحاب الأوهام فهذا النوع من السحر هو الذي لانزاع في كفر من يستخدمه^(٨٢) .

ومن ذلك أيضا ما ذكره ابن خلدون في مقدمته : من أنه شاهد بنفسه بعضا من المنتحلين للسحر وعمله أنهم كانوا يسيرون إلى كساء أو جلد ، ويتكلمون عليه في سرهم فإذا هو مقطوع متخرق .

كذلك شاهد ابن خلدون : من كان يشير الى بطون الغنم في مراعيها بالبعج ، فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها الى الأرض ، وقد ذكر أمثلة كثيرة على ذلك منها ما شاهدها بنفسه ومنها ما سمعها من الثقات^(٨٣) .

وإذا كان ابن خلدون وهو من الثقات المسلمين - على سبيل المثال - شاهد عيان على جرائم بعض السحرة التي جعلته يشاهد آثار السحر وأضراره ، فإنه حينئذ لا وجه لمن منع من إثبات جريمة السحر بالبينة ، وأن الصواب هو ما عليه جمهور أهل السنة من أن السحر يثبت بالإقرار والبينة ولا سبيل إلى الشك في هذا والله أعلم .

(٨١) مغنى المحتاج ج ٤ ص ١٢٠ ، الأشباه والنظائر للشافعي ص ٥٣٨ .

(٨٢) تفسير الرازي ج ١ ص ٤٤٩ .

(٨٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٤ .

إثبات السحر بالقرائن

نكرنا من قبل أن جمهور العلماء لا يسلم باعتبار القرائن دليلا عاما من أدلة الإثبات أما ابن القيم ومن يرى رأيه فيأخذون بها حتى لا تضيع حقوق الناس ، والحق : أن الشريعة الإسلامية عرفت القرائن من يوم وجودها وبنيت بعض الأحكام على هذا الأساس ، ولعل في تبرئة يوسف عليه السلام مما اتهمته به امرأة العزيز خير دليل على ذلك حيث استخدمت في ذلك القرائن إلى جانب الشهادة ، وذلك في قوله تعالى (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ، فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم)^(٨٤) فكون القميص كان مشقوقا من خلفه قرينة دالة على أن يوسف كان يريد الفرار من الفاحشة ولم يردّها .

ومن أعمال القرائن كذلك النكول عن اليمين ممن أنكر ، عند من يرى أن النكول يؤدي الى إثبات الجريمة إذ أنه ليس إلا قرينة على أن الاتهام الذي وجه للمتهم صحيح^(٨٥) .

وقد استخدم رسول الله ﷺ القرينة كدليل حينما أمر الزبير أن يقرر عم حبيبي بن أخطب بالعذاب على إخراج المال الذي غيبه وادعى نفاده فقال له (العهد قريب والمال أكثر من ذلك) فهذه قرينة قوية استخدمها النبي ﷺ لإثبات مخالفة تجب عليها العقوبة^(٨٦) .

على أنه ينبغي أن ننبه على عدم التوسع في الأخذ بالقرائن حتى لا تأخذ شكلا من التضريب والتخمين ، بمعنى أن نأخذ بالقرينة الظاهرة التي يعتمد عليها العقل المستقيم لتحقيق العدالة في الأحكام بالتحري والاستقراء .

(٨٤) سورة يوسف الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٨٥) نهاية المحتاج ج ٧ ص ٣٧٦ ، المغني لابن قدامة ج ١٠ ص ٦ ط المنيرة .

(٨٦) التشريع الجنائي الاسلامي للاستاذ المرحوم عبد القادر عودة ج ٢ ص ٣٤٠ .

صور من إثبات السحر بالقرائن

من ذلك ما ذكره ابن قدامة : أنه بلغه أن بعض الأمراء أخذ ساحرة فجاء زوجها كأنه محترق فقال : قولوا لها تحل عني ، فقالت انتنوني بخيوط وباب فجلست على الباب حين أتوها به ، فجعلت تعقد ثم طار بها الباب فلم يقدروا عليها^(٨٧) .

فهذه قرينة على ما قامت المرأة به من السحر وإن لم تصرح بذلك ، حيث لا تفسير لهذا العمل إلا أنها تستخدم القوى الخفية ولا تستطيع ذلك إلا بتعظيم تلك القوى والخضوع لها

ومن ذلك أيضا : انتصاب رجل على رأس قصبه ، والجرى على خيط مستدق والطيران فى الهواء والمشى على الماء وركوب الكلاب ، ونحو ذلك إن صح القول بحصول هذه الأشياء^(٨٨) .

فإن وقع ذلك بالفعل فهذه قرينة على أن ذلك من السحر خاصة إذا وقع من أشخاص اشتهروا بالخبث والقذارة .

ومنه أيضا : أن يرى بيت يأتيه الرجم من كل مكان ، أو تكسر أوانيه ، أو يتلف بعض أثائه دون ما رؤية للفاعل : فهذه أيضا قرينة على أن هذا العمل هو من كيد السحرة لمن يعاديهم فيرهبونه ويسلطون عليه الجن يفعلون به ما ذكر ونحوه^(٨٩) .

ومنه : أن يرى شخص يسب الإله - والعياذ بالله - أو يسجد لما يسميه قرينه ، أو يضع المصحف الشريف تحت قدمه - نستغفر الله - أو يتوضأ باللبن ، ويلزم الأماكن القذرة كنورات المياة أو معاطن الإبل ، أو المجازر ونحوها أو وجود كتب للسحر الأسود (السحر الحقيقي) فى بيته أو المحبرة التى فيها قذارة وغير ذلك من الأدوات السيئة التى يستعملها السحرة عادة^(٩٠) .

(٨٧) المغنى لابن قدامة ج ٨ ص ١٥٣ .

(٨٨) الزواجر لابن حجر ج ٢ ص ١٠١ ، تفسير كثير ج ١ ص ١٤٤ .

(٨٩) حاشية الدسوقي ج ٤ ص ٣٠٢ .

(٩٠) الفروق للقرافى ج ٤ ص ١٣٧ - ١٤١ .

كل ذلك من القرائن القوية على أن هذا الشخص وأمثاله من السحرة الذين يستخدمون الكفريات في غالب أحوالهم ، فلو لم تؤخذ هذه الأشياء وأمثالها في الاعتبار كقرائن دالة على إثبات جريمة السحر لوقع بالمجتمع شرور مستطيرة لا طاقة له بها ، ونكتفى بهذا القدر من الكلام عن الركن الأول ونشرع بعون الله تعالى في الكلام عن الركن الثاني والله سبحانه الهادى الى سواء السبيل .

الركن الثانى

(القصد الجنائى)

ومعناه أن تنصرف إرادة الساحر الى تحقيق وضع إجرامى مع العلم بحقيقته الإجرامية وأنه محرم فى شريعة الإسلام ، وعلى هذا فإن القصد الجنائى يقوم على عنصرين :

العنصر الأول : الإرادة :

وذلك بأن يوجه الساحر إرادته مختاراً نحو عمل السحر الذى من شأنه تحقيق الآثار الضارة بالمجتمع كأن يقتل إنساناً أو يصيب بعض أعضائه أو يعقد رجلاً عن زوجته أو يوجد الفرقة بينهما إلى غير ذلك من آثار السحر التى يتحقق بها الضرر .

العنصر الثانى : العلم :

وهو أن يكون الساحر على علم بما اقترفه من السحر المحرم بنص القرآن الكريم والسنة المطهرة .

ذلك هو الأساس فى المسئولية الشرعية ، فإذا وجه إرادة نفسه لشيء معين فقد قصد الى ذلك الشيء مختاراً ، فالعلم بالتحريم من قبل الشارع ثم التمرد والعصيان لأوامر الله عن إرادة حرة واختيار مطلق ، فقد وجد إذن القصد الباعث على ارتكاب هذا العمل المحرم لما فيه من الأضرار الجسدية والمادية .

لذلك : فإنه يشترط لتحقيق وقوع جريمة السحر أن يتوافر هذان
الركنان (الإسناد المادى ، والقصد الجنائى) .

أما إذا أتى شخص فعلا من أفعال السحر التى تؤدى الى الكفر وهو
لا يعلم معناه ويجهله ، أو يتكلم بكلمة الكفر وهو لا يفهمها كأن تكون
بالتبعية أو السريانية أو حكى كفرا رآه من ساحر وهو لا يعتقد أنه يكفر
فى كل ذلك على ما هو معلوم من المقررات الشرعية^(٩١) .

ولهذا نجد الإمام الشافعى رضى الله عنه يشترط للحكم على
الشخص بأنه ساحر أن يكون قاصدا لعمل السحر الكفرى ، فلا يكفى
لاعتباره كافرا أن يتعمد إتيان الفعل أو القول الكفرى بل يجب أن يستفسر
منه ، فإن كان قاصدا الى الكفر وإلا فلا ، عملا بالقاعدة الأصولية :
الأعمال بالنيات والأمور بمقاصدها ويتفق مع الشافعى فى هذا الإمام ابن
حزم رحمه الله^(٩٢) .

أما الأئمة الثلاثة : مالك وأبو حنيفة وأحمد ، فهم يرون أنه يكفى
لاعتبار الشخص مرتدا عن الإسلام أن يتعمد إتيان السحر بالفعل أو القول
الكفرى ، ولو لم ينو الكفر لأن فيه توجهها الى غير الله تعالى عمدا وعلى
هذا مذهب الزيدية^(٩٣) . لاسيما وأنه ليس بخاف على مسلم الآن شيء
من المكفرات تلك بعد إنتشار الإسلام وذيوعه .

وزاد أحمد وأبو حنيفة : أن من نطق بدعوات السحر الكفرية أو
فعل شيئا منه أو قال باعتقاد إباحتها ولو ما زحاح فقد كفر ، والأصل فى
ذلك : أن من تكلم بلفظ كفرى أو أتى بفعل كذلك وهو مختار يعتبر كافرا
ولو لم يقصد معنى الفعل أو القول ما دام عالما لأن التصديق بالدين وإن
كان موجودا حقيقة إلا أنه زال بفعله حكما ، لأن الشارع جعل بعض
المعاصى أمانة على بعض ، كما لو سجد لصنم فإنه يكفر وإن كان مصدقا
لأن ذلك فى حكم الكذب .

(٩١) الشريعة الجنائى الاسلامى للمرحوم الاستاذ عبد القادر عودة ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٩٢) نهاية المحتاج ج ٧ ص ٣٩٤ ، المحلى ج ١٠ ص ٢٠٠ ، ٢٠٥ .

(٩٣) شرح الزرقانى ج ٨ ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٠ كشف القناع ج ٤ ص ١٠٠ و ١٠١ ، حاشية

ابن عابدين ج ٣ ص ٣٩٢ ، شرح الازهار ج ٤ ص ٥٧٥ ، ٥٧٧ .

إذا علمت هذا ، وعلمت أنه إلى الآن في كثير من قرى الريف المصرى يوجد بعض من يشتغلون بالسحر يترقب الواحد منهم ليلة زفاف زوج الى زوجته فيقوم بعقده عنها ، وذلك بنية أن يستدعيه أهل الزوج ليقوم بحل السحر عنه ثم يتقاضى على ذلك أجراً ، ولا يخفى أن هذا عمل رخيص فهو ابتغاء ابتزاز أموال الناس وأكلها بالباطل ، نقول إذا علمت هذا فإنما يدل على أن السحرة ما زال لهم رنين وأثر في حياة الناس ، وهو مما لاشك فيه عمل إجرامى متعمدفعله تترتب عليه العقوبة الشرعية .

كذلك لا يزال الدَّجَلُ والشعوذة لها أيضا رنينها ولا تزال نسمع ونقرأ عن ذلك كثيرا ، فقد طالعنا إحدى الصحف المصرية اليومية^(٩٤) بخبر عنوانه (نجالة من سوهاج) يقول الخبر باختصار : (إنها ادعت قدرتها على شفاء المرضى وحل مشاكل الزواج وإيجاد المحبة بين الزوجين المتخاصمين عن طريق السحر والشعوذة وذاع صيتها ، وقد بلغ عدد المترددين عليها من الجنسين في اليوم الواحد أكثر من خمسين شخصا ، وقد تم ضبطها مع هذا العدد من الناس ، كما تم ضبط أخبار حمراء وكتب السحر وتمائم) .

وهذا العمل وإن كان دجلا واستخداما لأموال الشعوذة فهو حرام لابتزاز أموال الناس بالباطل والتمويه عليهم كما سبق الكلام عن ذلك .

ويجدر بالمسلمين رجالاً ونساء أن يعلموا أن الأمر بيد الله تعالى وأن صلة الإنسان بربه بحسن الاعتقاد به والثقة فيما عنده والتحصن بتلاوة القرآن والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ هي الطريق التي تشرح الصدور وتنير الأبصار وتبعد عن الإنسان شرور السحر والسحرة اللهم إلا إذا كان في مكنون الغيب اختبار وابتلاء ، ومن ثم يكون الصبر والدعاء الى الله والتضرع اليه هو خير معين على تلك . (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

(٩٤) صحيفة الأهرام في ٢٣ / ٥ / ١٩٨١ .

(الفصل الخامس)

(عقوبة السحرة)

بعد أن أوضحنا كيفية ثبوت جريمة السحر بطرق الإثبات الشرعية ، نستطيع على ضوء ما تقدم أن نبين عقوبة السحرة على النحو الآتى :

المبحث الأول

عقوبة الساحر المسلم

العقوبة لغة : مأخوذة من العقاب والمعاقبة ومعناه أن تجزى الرجل أو المرأة بما فعل سوءا والاسم العقوبة^(١) .

وشرعا : هى أذى ينزل بالجانى زجرا له عما اقترف من جرم ، وهى فى واقع أمرها مشروعة لتحقيق المصلحة العامة لجميع الناس^(٢) .

ولما كان للسحر أثر وضرر بالغان ذمه الشارع وعاقب عليه لأنه إذا فشا فى مجتمع من المجتمعات كان خطرا عليه فيبدل أمنه خوفا ويحطمه نفسيا واجتماعيا ، ولا يخفى ما فيه من الفتن التى قد تضر بالعقيدة عند بعض الناس حيث يظهر الساحر أشياء يعجز الناس أو أكثرهم عن تفسيرها أو تصورها ولا يخفى ما لهذا من أثر على ضعاف العقول .

لهذا وضع الشارع الحكيم لمن يستخدمه ويتعلمه ويعمل به العقوبة الرادعة فالشريعة الإسلامية عرفت تلك الجريمة منذ أن وجدت وشرعت لها التشريعات العقابية المناسبة لكل منها ، لكن التشريع الوضعى - على الرغم من الجهود المضنية المبذولة طلبا لشموله وتناوله مصالح الناس - إلا أنه لم يعرف تلك الجريمة ولم يشر إليها من قريب أو بعيد وبالتالي فلم يشرع لها العقاب الخاص بها ، اللهم إلا فيما أشار اليه من أعمال

(١) راجع مادة عقب / لسان العرب لابن منظور مجلد ٤ ط دار المعارف .

(٢) راجع العقوبة للمرحوم الشيخ محمد أبو زهرة ص ٦ .

الشعوذة وأدخلها تحت باب النصب والاحتيال ، أما السحر الحقيقي كجريمة لها خطورتها وذنوعها خاصة في الأوساط الأوربية والغربية بصفة عامة وهي تلك التي ينقل عنها القوانين لم يعرفها قانون العقوبات ، ومهما يكن من أمر فإننا ننبه الى خطورتها والى أن السحر الآن تبذل فيه جهود كبيرة من جانب الغربيين للوصول الى استخدامه في القوى المسيطرة ، هذا فضلا عن بعض دول الكتلة الشرقية .

هذا وقد كان لفقهاء المسلمين اليد الطولى في الكلام عنه تفصيلا إلا أن ذلك متناثر في ثنايا كتب الفقه ، ولذا نستعرض مع القارئ ، الآراء الفقهية التي أوردها في عقوبات السحرة والأدلة التي استند كل فريق إليها .

وللفقهاء في عقوبة السحرة آراء ثلاثة :

الرأى الأول

يرى جمهور أهل السنة أنه متى ثبتت جريمة السحر في حق أنسان مسلم سواء أقر بأنه سحر بكلام مكفر أو ثبتت عليه بالبينة ووصفت البينة كلاما كفريا كالتوجه لغير الله وتعظيم الشياطين ونحو ذلك وجب قتل الساحر المسلم ، روى هذا عن جمع من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار ، فمن الصحابة عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وأم المؤمنين حفصة بنت عمر وأبى موسى وقيس بن سعد رضى الله عنهم أجمعين ، ومن التابعين : سالم بن عبد الله ، وخالد بن المهاجر وعمر بن عبد العزيز وعبد الرحمن بن زيد وجندب بن عبد الله وجندب بن كعب رضوان الله عنهم ، ومن الفقهاء مالك وأبو حنيفة في المشهور عنه والشافعى وأحمد في رواية لهما والزيدية وحكاه القرطبي عن بعض العلماء منهم الشافعى ويتفق معهم في هذا الرأى الإمام ابن حزم^(٣) .

(٣) راجع : حاشية المسوقى د ٤ ص ٣٠٢ ، بلغة السالك د ٣ ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، فتح القدير د ٦ ص ٩٩ ، حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٠ ، الكنز للزيلعى د ٣ ص ٢٩٣ ، مغنى المحتاج د ٤ ص ١٢٠ ، نهاية المحتاج د ٧ ص ٣٩٩ ، كشف القناع د ٦ ص ١٨٧ ، المغنى د ٨ ص ١٥٣ ، قوانين الاحكام الشرعية ومسايل الفروع لابن جزى ص ٣٩٥ ، البحر الزخار د ٦ ص ٢٤٨ ، شرح الأزهار د ٤ ص ٣٧٩ ، التاج المذهب د ٤ ص ٢٥٥ ، زاد المعاد د ٣ ص ٢١٤ ، المحلى د ١٣ ص ٤٦٩ ، فتح البارى د ١٠ ص ٢٣٦ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٨ .

الرأى الثانى

وهو للشافعية فهم يرون أن للساحر حالات ثلاث :

الحالة الأولى :

حال يقتل فيها الساحر كفرا وهي أن يعمل بسحره ما يبلغ به الكفر
فإن تاب سقط عنه القتل وهذا ما يراه الشافعية والظاهرية ورواية عن أحمد وهو
رأى الجمهور الذي سبق ذكره .

الحالة الثانية :

حال يقتل قصاصا إن كان سحرًا قاتلا وقتل به معينا وهو ما يراه الشافعية أيضا وبعض الزيدية .

الحالة الثالثة :

أنه لا يقتل أصلاً بل يعزر وذلك فيما عدا ما ذكر في الحالتين السابقتين^(٤).

فالشافعية في الحالة الأولى : ينظرون الى الساحر باعتباره كافرا ببلوغه حد الكفر وهم بذلك لايمكنهم الخروج عن رأى الجمهور ، أما فيما عدا ذلك فهم يعتبرون الساحر جانبا كسائر الجناة يعاقب كما يعاقبون ، فإن قتل بسحره معينا قتل به قصاصا لا حدا .

ولذلك فقد أجرى الشافعية ترتيبا على هذا الاعتبار فقالوا :

إن اعترف الساحر أنه قتل شخصا بسحره وأن غالب سحره يقتل فهو قتل عمد وحينئذ يجب القصاص . .

وإن قال إن سحره يقتل نادرا فشيبه عمد ، وإن قال أخطأت من اسم الشخص المسحور الى اسم غيره ، أى أنه سحر شخصا غير الشخص المراد وقتله فهو قتل خطأ عندهم تجب فيه الدية وفي شبه العمد كذلك .

(٤) المهنّب د ٢ ص ١٧٨ ، مغنى المحتاج د ٤ ص ١١٩ ، ١٢٠ ، حاشية الشرقاوى د ٢ ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، تكملة المجموع د ١٨ ص ٢٧ ، المغنى د ٨ ص ١٥٥ ، المحلى د ١٣ ص ٤٦٩ ، البحر الزخار د ٦ ص ٢٤٨ ، شرح الازهار د ٤ ص ٣٧٩ .

أما إذا اعترف بأنه أمرض فلانا بسحره عزره القاضي فإن مات المريض كان لوثا إن قامت بينة بأنه تألم حتى مات منه ، ويحلف الولي أنه مات بسحره ويأخذ الدية .

هذا ، وقد رأى بعض المتأخرين من الشافعية أن يستفسر من الساحر عن حال سحره إذ قد يظن مالميس بكفر كفرا^(٥) .

على أن بعض الشافعية يلحقون العائن^(٦) بالساحر ، ويتفق معهم بعض العلماء في هذا وذلك باعتبار أن الشيطان يقارن الساحر والحاسد وأنهما يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منهما فلو اعترف شخص بأنه قتل إنسانا بعينه قالوا فلا ضمان عليه ولا كفارة وإن كانت العين حقا لخبر مسلم (العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين)^(٧) .

إلا أن بعض المتأخرين منهم أفتوا بأنه يقتل إذا قتل بالحسد لأن فيه اختياراً كالساحر قال الخطيب والصواب أنه لا يقتل^(٨) .

الرأى الثالث

يرى الإمام أحمد في رواية وابن حزم أن السحر ليس من الشرك وهو معصية موبقة تقتل النفس وشبهها وهو كذلك ليس كفرا ، وبذلك لا يحل قتل فاعله لأنه لم يجيء فى قتله خبر صحيح فيبقى على تحريم الدم^(٩) .

وقد احتج كل من أصحاب الآراء الثلاثة بأدلة لما ذهب إليه نوردها مفصلة على النحو التالي :

(٥) المراجع السابقة .

(٦) العائن هو الذى تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته ، والحاسد يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره ، والعائن قد يصيب من لا يحسده من جماد أو حيوان ومنه قوله تعالى (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر) سورة القلم الآية ٥١ .

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٤ ص ١٨٤ .

(٨) مغنى المحتاج ج ٤ ص ١٢٠ و ١٢١ تفسير المعونتين لابن القيم ص ٣٨ و ٣٩ .

(٩) المغنى لابن قدامة ج ٨ ص ١٥٥ ، المحلى ج ١٣ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ .

أدلة الرأي الأول

الدليل الأول

ما رواه الترمذى والدارقطنى وأخرجه الحاكم والبيهقى عن جندب ابن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ (حد الساحر ضربه بالسيف) (١٠) .

ولجندب هذا قصة مشهورة فى كتب التفسير والحديث والفقه رواها سفيان عن عمار الذهبى مفادها أن ساحراً كان عند الوليد بن عقبة (١١) يمشى على الحبل ويدخل فى إستم الحمار ويخرج من فيه فاشتعل جندب (١٢) على السيف فقتله ، قال علماؤنا : وهو الذى قال فى حقه النبى ﷺ (يكون رجل فى أمتى يقال له جندب يضرب ضربة بالسيف يفرق بين الحق والباطل) فكانوا يرونه جندباً هذا قاتل الساحر . قال على بن المدينى : روى عنه حارثة بن مضرب (١٣) .

أما وجه الاستدلال بالحديث أن الرسول ﷺ قد صرح بأن السحر كبيرة من الكبائر وأوجب عليه الحد قتلاً بالسيف ، وقصة جندب المشهورة توضح هذا المعنى ، فثبت به أن عقوبة الساحر هى القتل .
لكن العلماء لهم أقوال فى هذا الحديث : فالشوكانى يرى أن الحديث ضعيف لأن فيه إسماعيل بن مسلم المكى وهو يضعف من قبل حفظه ، وخالفه وكيع فى هذا فقال إن إسماعيل المذكور ثقة ويؤيده أن الحسن البصرى وثقه أيضاً .

وقال الحافظ ابن حجر : إن الترمذى رفعه ، ولكن فى سنده ضعف ، فلو ثبت لخص منه من له عهد من أهل الكتاب .

(١٠) نيل الاوطار ح ٧ ص ٣٦٢ ، زاد المعاد ح ٣ ص ٢١٤ ، شرح فتح البارى ح ١٠ ص ٢٣٦ .

(١١) فى بعض المراجع : الوليد بن عتبة بالناء .

(١٢) اختلفوا فيمن هو جندب بن عبد الله البجلي : هل هو جندب بن كعب الأزدي ؟ أم هو جندب البجلي روايتان : فالجصاص يرى انه جندب عبد الله البجلي روى عنه الحسن البصرى وابن سيرين وأبو مجلز ومات بعد الستين من الهجرة الشريفة : ذكر أبو بكر الجصاص نقلاً عن خلاصة تهذيب الكمال .

(١٣) الزواجر ح ٢ ص ١٠٢ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٧ ، أحكام القرآن ح ١ ص ٥٠ .

وضعه القرطبي أيضا من قبل إسماعيل وقال : لقد رواه سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن مرسلا ، ومنهم من جعله عن الحسن عن جندب^(١٤) .

على أن بعض علماء الحنفية يرون ما يراه الترمذي من أن الحديث مرفوع وخالفهم ابن حزم الذي قال بأنه حديث مرسل .

وخلاصة القول في الحديث : أن العلماء فيه على ثلاثة أقوال :

القول الأول : إن الحديث مرفوع .

القول الثاني : إنه مرسل .

القول الثالث : وهو لجمهور المحدثين أن الحديث موقوف وهو الصحيح وعليه العمل من لدن أصحاب رسول الله ﷺ ومن قال بهذا مالك بن أنس رحمه الله وتابعه ابن القيم والبيهوتي من علماء الحنابلة^(١٥) .

وبناء على ما تقدم فإن الحديث المستدل به والذي ثبت أنه موقوف على ما رآه جمهور العلماء يصلح دليلا شرعيا لإقامة الحد على الساحر عند المتأخرين من علماء أهل السنة لأن الحديث عندهم هو ما أضيف إلى رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو إلى الصحابي أو إلى التابعي . وهو بذلك يشمل المرفوع والموقوف والمقطوع^(١٦) فكونه موقوفا على الصحابة لا يمتنع الأخذ به كدليل شرعي لأن الصحابة عدول خاصة فيما يتعلق بسنة رسول الله ﷺ وعامة فيما يتعلق بأحكام الشريعة كلها . ومنهم أخذناها جيلا بعد جيل .

(١٤) راجع فيما نذكرناه : نيل الأوطار ج ٧ ص ٣٦٢ ، فتح الباري ج ١٠ ص ٢٣٦ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٨ .

(١٥) راجع : المحلى لابن حزم ج ١٣ ص ٤٧٥ ، حاشية ابن عابدين ج ٤ ص ٢٤٠ ، فتح القدير ج ٦ ص ٩٩ أحكام القرآن ج ١ ص ٥٥٥٤ ، زاد المعاد لابن القيم ج ٣ ص ٢١٤ ، كشف القناع ج ٦ ص ١٨٧ بقي علينا أن نعرف الأنواع الثلاثة : المرفوع والمرسل والموقوف :

فالمرفوع : هو ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل ، وله تعاريف أخرى أشمل من ذلك . والمرسل : ما أسقط منه الصحابي كقول التابعي قال رسول الله ﷺ وقد ضعفه بعض العلماء . والموقوف : هو ما أضيف إلى الصحابي ولم يتجاوز به إلى النبي ﷺ - راجع : الباعث الحثيث ص ٤٥ و ٤٧ ، النخبة النبهانية ص ٢٢ و ٢٣ .

(١٦) المتعصر من مصطلحات أهل الأثر للدكتور عبد الوهاب عبد اللطيف ص ٨ ط دار الكتب الحديثة عام ١٩٦٦ .

وقبل أن تنتقل من الكلام على الدليل الأول ننكر ما قاله ابن حزم الظاهري في تفسير الحديث - وهو ممن طعنوا عليه وقالوا بإرساله - قال : ولو صح الحديث لما كان فيه متعلق أصلاً لأنه إنما فيه حد الساحر ضربه بالسيف وليس فيه قتله ، والضربة قد تخطيء فتجرح فقط وقد تقتل ، فالمستدلون به قد خالفوا هذا الخبر وأوجبوا قتله^(١٧) .

لكننا نرى أن هذا تفسير فيه تعسف لأمرين :

الأمر الأول : أن ابن حزم جعل الهاء تاء في (ضربه) واعتبرها والله أعلم اسم مرة أى ضربة واحدة وهى قد تخطيء فعلاً لدى غير المعلمين . فمن أين أتى بهذا الجزم ؟ حيث جزم بأن الهاء تاء .

الأمر الثانى : إن من المعروف تجريباً أن السيف دائماً ماض وحاد فكيف ينجو من يضرب به ؟ ومن المعروف أن إقامة الحدود بالسيف كالقصاص وما إليه مما شأنه ذلك تكون بمعرفة سيف ذى خبرة ودربة حتى لا يعذب المحكوم عليه .

وقد شاهدنا بأنفسنا إقامة بعض حدود القصاص بالسعودية فما هى إلا ضربة واحدة وتفصل الرأس عن الجسد فى الحال .

الدليل الثانى

ما روى بعده روايات مختلفة عن بجالة بن عبدة قال : كنت كاتباً لجزى بن معاوية عم الأحنف بن قيس فأتى كتاب عمر قبل موته بشهر (أن اقتلوا كل ساحر وساحرة وفرقوا بين كل ذى رحم محرم من المجوس وانهوهم عن الزمزمة)^(١٨) فقتلنا ثلاث سواحر وجعلنا نفرق بين الرجل وحرime فى كتاب الله (رواه أحمد وأبو داود وأخرجه البيهقى

(١٧) المحلى لابن حزم ج ١٣ ص ٤٧٥ .

(١٨) الزمزمة : هى كلام تتكلم به المجوس عند أكلهم ولا يحل فى دينهم أكل دونه يتكلمون به وشغافهم مطبقة لا يجوز عندهم خلاف ذلك . راجع المحلى ج ١٣ ص ٤٧٤ .

وعبد الرزاق ، وأخرجه البخارى دون أن يذكر قصة قتل السواحر (١٩)
قالوا : وكان ذلك فى إمارة مصعب بن الزبير وكان قبل موت عمر رضى
الله عنه بسنة .

أما وجه الدلالة : أنه يبين لنا أن الساحر الذى ثبتت عليه جريمة
السحر يعاقب بعقوبة القتل وهو حكم عمر رضى الله عنه فيه وخبره
صحيح لم يعترض على صحته أحد من العلماء .

هذا وقد اعترض الإمام ابن حزم على الاستدلال بخبر عمر مع أنه
قد اعترف بصحته حيث قال : أما قول عمر فخير صحيح عنه أخذوا منه
ما اشتهاوا وتركوا سائره ونص الخبر :

عن عبد الرزاق عن معمر وسفيان بن عيينة كلاهما عن عمرو بن
دينار قال سمعت بجالة كاتب جزى يحدث أبا الشعثاء وعمرو بن أوس
عن صفة زمزم فى إمارة مصعب بن الزبير قال : كنت كاتباً لجزى عم
الأحنف بن قيس فأتى كتاب عمر قبل موته بسنة أن أقتلوا كل ساحر
وفرقوا بين كل ذى رحم محرم من المجوس وأنهوهم عن الزمزمة ، قال
فقتلنا ثلاث سواحر ، وقال صنع طعاما كثيرا وعرض السيف ثم دعا
المجوس فألقوا وقر بغل أو بغلين من ورق أخلة كانوا يأكلون بها وأكلوا
بغير زمزمة ، قال ولم يكن عمر أخذ من المجوس الجزية حتى شهد عبد
الرحمن بن عوف أن النبى ﷺ أخذها من مجوس أهل هجر فهكذا
الحديث (٢٠) .

واسترسل ابن حزم قائلا : والمالكية والحنفية يخالفون عمر فى هذا
الخبر فيما لا يحل خلافة من أمره بأن يفرق بين كل ذى رحم محرم من
المجوس لأن هذا هو أمر الله ، فهم لا يقولون بالتفرقة بين مجوسى
وحرمة ، كذلك لا يأخذون بهذا نفسه من حكم عمر فى الساحر وقد صح
خلاف عائشة له فليس قوله أولى من قولها والعكس .

(١٩) نيل الاوطار د ٧ ص ٣٦٢ ، صحيح البخارى د ٦ ص ٢٥٧ ، كتاب الجزية ، المحلى لابن
حزم د ١٣ ص ٤٧٠ ، ٤٧١ ، احكام القرآن د ١ ص ٥٠ ، روح المعانى د ١ ص ٢٣٩ ،
شرح الكنز للزيلعى د ١٣ ص ٢٩٣ ، كشاف القناع د ٦ ص ١٨٧ .
(٢٠) المحلى د ١٣ ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ .

لكننا نرى أن بن حزم في هذا لم يوضح لنا وجه اعتراضه جليا ،
ثم إنه من المعروف عن عمر أنه لو لم يأخذ الجزية من المجوس لقاتلهم
عليها حتى يدفعوها إليه ، أما قوله : فليس قوله بأولى من قولها سنعرض
له عند أدلة الرأي القائل بعدم قتل الساحر وسيتبين لنا هناك أن سحر
الساحرة لم يكن من النوع الكفرى على ما ذكره بعض العلماء .

الدليل الثالث

ما رواه زيد بن علي عن أبيه عن جده أن عليا عليه السلام روى
عن رسول الله ﷺ عندما سئل عن الساحر قال (إذا جاء رجلان فشهدا
عليه بالسحر فقد حل دمه) (٢١) .

وجه دلالة هذا الحديث أنه دل على وجوب قتل الساحر متى ثبتت
عليه البينة بذلك وأن الساحر بهذا حلال الدم عند أصحاب الرأي الأول .

الدليل الرابع

ما روى عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن
حفصة زوج النبي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها وكانت قد دبرتها فأمرت
بها فقتلت (٢٢) ، ورواه مالك في موطئه بهذا اللفظ وقال : الساحر الذي
يعمل السحر ولم يعمل ذلك له غيره هو مثل الذي قال الله تبارك وتعالى
فيه في كتابه (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) ، فأرى
أن يقتل ذلك إذا عمل ذلك هو نفسه (٢٣) .

ونذكر بعض العلماء أيضا أن هذا الخبر مروى عن عبد الله عن
نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما بلفظ (أن جارية لحفصة أم المؤمنين
سحرتها فوجدوا سحرها واعترفت بذلك فأمرت حفصة عبد الرحمن

(٢١) مسند الإمام زيد ص ٣٠٣ - دار الكتب العلمية / بيروت .

(٢٢) نيل الأوطار ج ٧ ص ٣٦٢ .

(٢٣) موطأ الإمام مالك ص ٥٤٣ ط الشعب .

ابن زيد فقتلها فبلغ ذلك الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه فأنكره ،
فأتاه ابن عمر فاخبره أمرها . وكان عثمان إنما أنكر ذلك لأنها قتلت بغير
إذنه^(٢٤) .

وأورده كذلك الإمام ابن حزم الظاهري^(٢٥) .

أما وجه الاستدلال بهذا الخبر فهو دلالته على وجوب قتل السحرة
الذين تثبت عليهم جريمة السحر ، ولو لم تكن عقوبته القتل ما فعلته حفصة
أم المؤمنين رضى الله عنها فهي لا شك تعلم أن دماء المسلمين لا تستباح
إلا بيقين . أما اعتراض عثمان رضى الله عنه فقد بينته إحدى الروايات
التي تذكرناها وهو أن قتل الساحر يجب أن يكون بإذنه باعتباره أنه خليفة
المسلمين وله إقامة الحدود والحقوق .

هذا ، وقد اعترض الإمام ابن حزم على الاستدلال بهذا الخبر
بقوله : وأما حديث حفصة وابن عمر فلا حجة في قول أحد دون رسول
ﷺ^(٢٦) .

ونرى أن هذا الاعتراض من ابن حزم لا ينفي الأثر عن حفصة
رضى الله عنها وهي صحابية من الصحابة فضلا عن كونها زوجا لرسول
الله ﷺ وهؤلاء هم الذين أخذنا الدين عن طريقهم فهم ثقات مأمونون إن
شاء الله .

يضاف الى ذلك أن ابن حزم لم يأت بدليل واحد على عدم صحة
خبر حفصة ، أما كونها أقامت الحد على الساحرة فإن الشارع الحكيم أباح
للسيد أن يقيم الحد على الأرقاء ، فقد ورد عن علي بن أبي طالب رضى
الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (أقيموا الحدود على ما ملكت أمانكم)
رواه مسلم موقوفا على علي ورواه أيضا أبو داود وأخرجه البيهقي
مرفوعا كما ثبت عند الحاكم رفعه^(٢٧) .

(٢٤) أحكام القرآن ج ١ ص ٥٠ ، روح المعاني ج ١ ص ٣٣٩ ، زاد المعاد ج ٣ ص ٢١٤ ،

المغنى ج ٨ ص ١٥٣ ، كشاف القناع ج ١ ص ١٨٧ ، الزواجر ج ٢ ص ١٠٤ .

(٢٥) المحلى لابن حزم ج ١٣ ص ٤٧٠ ، ٤٧٥ .

(٢٦) المحلى لابن حزم ج ١٣ ص ٤٧٠ : ٤٧٥ .

(٢٧) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٢٥ سبل السلام ج ٤ ص ١٠ ، نيل الأوطار ج ٧ ص ٢٩٣ .

وفى رواية أخرى ولفظها : عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أن خادما للنبي ﷺ أحدثت فأمرني النبي ﷺ أن أقيم عليها الحد فأتيته فوجدتها لم تجف من دمها فأتيته فأخبرته فقال : إذا جفت من دمها فأقم عليها الحد - أقيموا الحدود على ما ملكت أيماكم (رواه أحمد وأبو داود (٢٨) .

فقد جاز لحفصة رضى الله عنها أن تأمر بقتل جاريتها الساحرة شرعا وهو ما قال به الشافعى فى أحد قوليهِ فى إقامة الحدود على ملك اليمين (٢٩) .

الدليل الخامس

نكر ابن حزم عن يحيى بن أبى كثير قال : إن غلاما لعمر بن عبد العزيز أخذ ساحرة فألقاها فى الماء فطفت فكتب إليه عمر بن عبد العزيز إن الله لم يأمرك أن تلقىها فى الماء ، فإن اعترفت فاقتلها (٣٠) .

ووجه دلالة هذا الأثر عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ظاهر فى عقوبة الساحر ، ولو كانت له عقوبة غير ذلك لنكرها .

الدليل السادس

ما ذكره ابن حزم أيضا فيما رواه عن يحيى بن سعيد الأنصارى أن خالد بن المهاجر قتل نبطيا سحر (يعنى نميا) (★) .

فهذه جملة من الأدلة استدلو بها على وجوب قتل من تثبت عليه جريمة السحر وهو قول جمع من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار كما أوضحنا من قبل .

(٢٨) نيل الأوطار ج ٧ ص ٢٩٣ .

(٢٩) سبل السلام ج ٤ ص ١٠ ، صحيح مسلم بشرح النووي ج ٥ ص ١٢٥ .

(٣٠) المحلى لابن حزم ج ١٣ ص ٤٧٠ .

(★) نفس المرجع .

أدلة أصحاب الرأي الثانى

استدل أصحاب هذا الرأي على ما ذهبوا إليه من أن للساحر حالات ثلاث :
القتل حدا ، القتل قصاصا ، التعزيز وذلك بأدلة أربعة نذكرها على
النحو التالى :

الدليل على الحالة الأولى

استدل الشافعية وهم أصحاب هذا التفصيل على قتل الساحر حدا
متى بلغ فى أعماله السحرية الى حد الكفر بالأدلة التى استدل بها أصحاب
الرأى الأول وهم جمهور أهل السنة فلا داعى لإعادتها هنا فارجع اليها :

الدليل على الحالة الثانية

ما رواه ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ (لا يحل دم امرئ
مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بأحدى ثلاث : الثيب
الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة) (٣١) رواه
الجماعة .

وفى رواية عن عائشة (لا يحل دم امرئ مسلم إلا من ثلاثة :
إلا من زنى بعد ما أحصن أو كفر بعد ما أسلم أو قتل نفسا فقتل بها)
رواه مسلم وأحمد والنسائى (٣٢) .

ورواه الإمام ابن حزم بنفس هذا المعنى .

ووجه الدلالة : أن الساحر إذا لم يصل فى سحره الى حد الكفر
وكان سحره مما يقتل غالبا واعترف بذلك وقتل به إنسانا فقد وجب
القصاص ، عملا بقوله ﷺ (النفس بالنفس) لأنه حينئذ يعتبر قتل عمد
عند علماء الشافعية .

كما أن هذا الدليل يمكن أن يستخدم لصالح أصحاب الرأي الأول
وذلك من قوله ﷺ (التارك لدينه المفارق للجماعة) فى الرواية الأولى
وهى رواية ابن مسعود ، كذلك قوله ﷺ (أو كفر بعد ما أسلم) فى

(٣١) نيل الاوطار ج ٧ ص ١٤٦ .

(٣٢) المرجع السابق .

الرواية الثانية وهي رواية عائشة ، فالساحر إذا استخدم فى سحره مكفرا أو أتى شيئا من شأنه أن يكفر بالله تعالى فقد استحق عقوبة القتل حدا .
أما إذا لم يستخدم شيئا من ذلك ولكنه قتل إنسانا بسحره فإنه يقتل قصاصا كما أشرنا إليه على النحو الذى سلكه علماء الشافعية .

الدليل الأول على الحالة الثالثة

ما رواه عبد الرزاق عن مالك بن أنس عن محمد بن عبد الرحمن عن عمرة أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قد اعتقت جارية لها عن دبر^(٣٣) وأنها سحرتها واعترفت بذلك وقالت أحببت العتق ، فأمرت عائشة ابن أخيها أن يبيعها من الأعراب ممن يسيء ملكتها وقالت ابتع بثمنها رقبة فأعتقها^(٣٤) .

وفى رواية أخرى له عن سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن أبى الرجال عن عمرة قالت مرضت عائشة فطال مرضها فذهب بنواحيها إلى رجل فذكروا له مرضها فقال إنكم لتخبرونى خبر امرأة مطبوبة^(٣٥) فذهبوا ينظرون فإذا جارية لها قد سحرتها وكانت قد دبرتها فقالت ما أردت منى ؟ قالت أردت أن تموتى حتى أعتق . قالت فإن لله على أن تباع من أشد العرب ملكة فباعتها وأمرت بثمنها أن يجعل فى مثلها^(٣٦) .

(٣٣) التدبير : هو النظر فيما يؤول اليه عاقبته فكان من دبر الحياة فقد دبر نفسه فيه حيث استخدمه فى حال حياته وتقرب به الى الله تعالى بعد وفاته يقول المولى لعبده ، إذا مت فأنت حر أو أنت حر يوم أموت . راجع الكنز للزيلعى ح ٣ ص ٩٧ .

(٣٤) المحلى لابن حزم ح ١٣ ص ٤٧١ ، المغنى لابن قدامة ح ٨ ص ١٥٣ ، الزواجر ح ٢ ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٣٥) المطبوبة : يعنى امرأة مسحورة ، قال ابن الانبارى : الطب من الاضداد يقال لعلاج الداء طب وللشعر طب . راجع نيل الاوطار ح ٧ ص ٣٦٦ .
(٣٦) المحلى لابن حزم ح ١٣ ص ٤٧١ .

أما وجه الاستدلال بهذا الخبر عن عائشة فهو أنه لو كان القتل واجبا على السحرة ما باعنها عائشة إذ أن الساحرة لو كفر لصارت مرتدة يجب قتلها ولم يجز استرقاقها ولا بيعها ولأنه شيء يضر بالناس ، فهي لم تكفر بمجرد السحر كأن قامت بالإيذاء فحسب ، ولذلك يجب التعزير هنا لا غير وهو عين الحالة الثالثة .

وقد عقب القائلون بقتل الساحر حدا على هذا الاستدلال فقالوا : إنه من المحتمل أن تكون الساحرة التي سحرت عائشة استخدمت سحرا ليس من شأنه الكفر .

وفى ظنى أنه كان من الأوجه أن يقال فى تعليل عدم قتل عائشة للساحرة أن ذلك حدث من أم المؤمنين باعتبار أن الساحرة المذكورة امرأة وهى لا تقتل - على ما يراه بعض الفقهاء - بل تحبس وتضرب حتى يستيقن لهم تركها للسحر ، وهذا يتفق مع ما رآه مالك بن أنس رحمه الله فقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء فى غير الحدود والقصاص ، ودليلنا على ذلك ما رواه ابن عمر رضى الله عنهما قال : وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى النبی ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان - رواه الجماعة إلا النسائي (٣٧) .

وهناك روايات لهذا الحديث تفيد كلها أن قتل النساء منهى عنه شرعا ، على أن بعض الفقهاء قد استثنى المرأة الساحرة من ذلك النهى (٣٨) .

ولو فرضنا أن المرأة الساحرة مستثناة من النهى ، فقد وجه الإمام تقى الدين السبكي وهو من الشافعية الآثار التى ذكرناها بقوله : إن الشافعى قد حمل ما رواه عمر وحفصة رضى الله عنهما من قتل الساحر

(٣٧) نيل الاوطار ج ٨ ص ٧١ ، صحيح البخارى ج ٦ ص ١٤٨ .

(٣٨) الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٩ ، فتح القدير ج ٦ ص ٧١ ، أحكام القرآن ج ١

ص ٥٠ : ٥٣ .

حدا على أن السحر كان مما فيه كفر ، وأن بيع عائشة للساحرة ولم تقتلها يحمل على أن السحر مما لم يكن فيه كفر أيضا .

قال الإمام القرطبي نقلا عن ابن المنذر إذا اختلف أصحاب رسول الله ﷺ في المسألة وجب اتباع أشبههم بالكتاب والسنة ، وقد يجوز أن يكون السحر الذي جعل بعضهم يقول بقتل الساحر فيه هو السحر الذي يكون فيه كفر وحينئذ يكون ذلك موافقا لسنة رسول الله ﷺ .

وقد علق القرطبي على قول ابن المنذر : بأن هذا صحيح ودماء المسلمين محظورة لاتستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف^(٣٩) .

الدليل الثاني على الحالة الثالثة

ما روى في الصحيحين وغيرهما : أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ فلم يقتله ، ولو وجب قتله ما تردد صلوات الله وسلامه عليه في ذلك ولنفذه من فوره ، ولا يستطيع أحد أن يدعى على رسول الله ﷺ بأنه تعمد عصيان ربه بترك واجب شرعي^(٤٠) .

وقد سئل الزهري شيخ مالك أعلى من سحر من أهل العهد قتل ؟ قال قد بلغني أن رسول الله ﷺ قد صنع له ذلك فلم يقتل من صنعه وكان من أهل الكتاب^(٤١) .

ومما جدير بالذكر أن الحديث المستدل به سبق الكلام عليه تفصيلا عند الكلام على إثبات حقيقة السحر فارجع اليه إن شئت .



(٣٩) الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٨ ، تكملة المجموع لنجيب المطيعي د ١٨ ص ٢٨ ،

تفسير القرآن العظيم د ١ ص ١٤٤ .

(٤٠) صحيح البخاري د ١٠ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، صحيح مسلم د ٤ ص ١٧٤ و ١٧٥ .

(٤١) تكملة المجموع لنجيب المطيعي د ١٨ ص ٢٧ ، ٢٨ .

مناقشة جمهور أهل السنة لوجه الاستدلال

ناقش جمهور أهل السنة وجه الدلالة في الحديث المستدل به بما

يلي :

أولاً : إن الرسول صلى الله عليه وسلم عدل لا يقتل إلا بأقرار أو بينة ، ولبيد بن الأعصم لم يقر ولم تقم عليه بينة ظاهرة ، مع أن ابن الحكم انفرد في مرسله^(٤٢) بأن لبيدا اعترف للرسول ﷺ إلا أن أحداً من رواة الحديث لم يقل هذا .

ثانياً : قد يكون الرسول ﷺ لم يقتله سياسة شرعية ونظر في هذا الى تقديم درء المفسدة على جلب المصلحة ، فربما خشي إن قتل لبيداً أن تثار فتنة بين الناس يكون من ورائها الشر المستطير بين المسلمين وبين حلفاء لبيد بن الأعصم من الأنصار ، ولا يخفى ما لذلك من آثار سيئة وهي أكثر بكثير من قتل واحد بعينه ، وهذا ما صرح به الرسول ﷺ نفسه في إحدى روايات الحديث بقوله (أما أنا فقد عافاني الله وكرهت أن أثير على الناس شراً)^(٤٣) .

ثالثاً : إن لبيداً كان منافقاً من منافقي المدينة وكان يسعى الى الرسول ﷺ كما هي عادتهم آنذاك فخشي الرسول ﷺ من قتله أن تقوم فتنة ولبلة فكرية عن الدعوة وصاحبها وأن محمداً يقتل أصحابه وبذلك ينفر الناس من الإسلام ، وهو ما رعاه صلوات الله وسلامه عليه من قتل المنافقين^(٤٤) .

رابعاً : وثمة احتمال آخر يضاف الى الثلاثة المتقدمة وهو أن يكون النبي ﷺ ترك لبيدا ولم يقتله لأنه كان ذا عهد ويؤيد هذا الاحتمال ما ذكره الشوكاني عن ابن شهاب أنه سئل أعلى من

(٤٢) فتح الباري د ١٠ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٤٣) فتح الباري د ١٠ ص ٢٢٢ .

(٤٤) نفس المرجع ص ٢٣١ .

سحر من أهل العهد قتل ؟ قال بلغنا أن رسول الله ﷺ قد صنع له ذلك فلم يقتل من صنعه وكان من أهل الكتاب . أخرجه البخارى كما حكاه الشوكانى فى نيل الاوطار (٤٥) .

وقد رد بعض العلماء على هذا الاحتمال الأخير : بأنه إن كان ذا عهد لكنه لم يعاهد على الإضرار وقد سبق تفصيل ذلك . .

الدليل الثالث : على الحالة الثالثة

ما رواه ابن حزم عن ربيعة بن عطاء أن رجلا سحر جارية عربية وكانت تتبعه فرفع الى عروة بن محمد وكان عامل عمر بن عبد العزيز فكتب إليه عمر بن عبد العزيز ان يبيعه بغير أرضها وأرضه ثم أمره أن يدفع ثمنه إليها (٤٦) .

مع أن الثابت عن عمر بن عبد العزيز أنه من الذين ذهبوا الى القول بقتل الساحر كما تقدم .

وعلى فرض صحة هذا الخبر عنه رضى الله عنه فإنه مؤول بالسحر الذى لا كفر فيه وهو السحر المجازى (الشعوذة) فإن منه الوشاية والتضريب وحسن البيان ونعومة الإلفاظ بما يستطيع صاحبه أن يستميل القلوب .

هذا ، ولا يخفى أن التغرير بالنساء ليس صعبا بل إنه أمر هين ويسير وذلك ببضعة الفاظ حسنة مع استخدام الأشياء التى تشرئب لها نفس المرأة عادة ، وبذلك تتبعه أينما كان وحيثما أراد ، وصدق الرسول ﷺ فى قوله (إن من البيان لسحرا) رواه عبد الله بن عمر (٤٧) .

فهذا ما يشبه السحر إذا خلب القلب وغلب على النفس حتى يحول الشيء عن حقيقته ويصرفه عن جهته ، وكل ما كان كذلك فهو مذموم ولا مانع من تسميته سحرا لأن السحر يطلق على الاستمالة لأن الصنعة تدخله بحيث يروق للسامعين ويستميل قلوبهم (٤٨) .

(٤٥) نيل الاوطار للشوكانى د ٧ ص ٣٦٢ .

(٤٦) المحلى لابن حزم د ١٣ ص ٤٧١ .

(٤٧) صحيح البخارى د ١٠ ص ٢٣٧ .

(٤٨) نفس المرجع .

ومن المعلوم أن الشافعية والظاهرية لا يأخذون بحديث جندب بن عبد الله الوارد في قتل الساحر حدا ولا يعتبرون الساحر كافرا إلا في حالة واحدة وهي أن يبلغ في قوله أو فعله ما يقتضى الكفر^(٤٩) .

والى هنا انتهت الأدلة التى استدلت بها أصحاب الرأى الثانى وهم الشافعية ومن معهم وتتابع أدلة العلماء .

أدلة الرأى الثالث

استدل أصحاب هذا الرأى على ما ذهبوا إليه من أن الساحر ليس كافرا وأنه معصوم الدم بالأدلة التالية :

الدليل الأول

ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : اجتنبوا السبع الموبقات قيل يا رسول الله وما هن قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات (رواه أبو الغيث عن أبى هريرة^(٥٠) .

ونكر ابن حزم فى وجه الدلالة : إن هذا الحديث بيان جلى بأن السحر ليس من الشرك ولكنه معصية موبقة أى مهلكة كقتل النفس وشبهها فارتفع الاشكال ، وصح أن السحر ليس كافرا فلا يحل قتل فاعله عملا بقول رسول الله ﷺ (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، ونفس بنفس)^(٥١) فالساحر ليس كافرا كما بينا ولا قاتلا ولا زانيا ولا جاء فى قتله نص صحيح فينضاف الى هذه الثلاث فصح تحريم دمه بيقين لا إشكال فيه^(٥٢) ثم استدلت بطائفة من الآيات الكريمة كقوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما)^(٥٣) .

(٤٩) نيل الاوطار ج ٧ ص ٣٦٣ .

(٥٠) صحيح البخارى ج ٥ ص ٣٩٣ ، ج ١٠ ص ٢٣٢ .

(٥١) المحلى ج ١٣ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ .

(٥٢) نفس المرجع ص ٤٨٠ .

(٥٣) سورة النساء الآية ٢٩ .

وأخيرا : خلص ابن حزم الى القول : فصح بالقرآن والسنة أن كل مسلم دمه حرام إلا بنص ثابت أو إجماع متيقن ، وليس هناك نص ثابت بتبيان السحر ما هو إلا ما نكرناه في حديث السبع الموبقات^(٥٤) .

الدليل الثانى

استدل ابن حزم كذلك بما رواه البخارى ومسلم وغيرهما من أن هشام بن عروة حدث عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ سحره لبيد بن الأعصم ومع ذلك لم يقتله^(٥٥) .

وقد سبق لنا بيان ما فى هذا الدليل وما ورد عليه من مناقشة بإفاضة فارجع إليه إن شئت .

المبحث الثانى

عقوبة الساحر الذمى والمرأة الساحرة

اختلف العلماء فى عقوبة الساحر الذمى على آراء ثلاثة :

السرأى الاول

يرى جمهور العلماء أن يقتل الساحر الذمى فى حالة قتله إنسانا بسحره ، سواء كان المقتول مسلما أو ذميا ، إلا أن منهم من يعتبر هذا القتل حدا ومنهم من يعتبره قصاصا ، قاله جمع من عموما الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار ، إلا أن الإمام أبا حنيفة يرى قتل الساحر عموما سواء كان مسلما أو ذميا حرا كان أو عبدا متى ثبت عليه السحر سواء بإقراره أو بالبينة^(٥٦) .

(٥٤) المحلى د ١٣ ص ٤٧٩ و ٤٨٠ .

(٥٥) المحلى د ١٣ ص ٤٨٠ و ٤٨٢ .

(٥٦) فتح البارى د ١٠ ص ٢٣٦ ، شرح النووى على صحيح مسلم د ١٤ ص ١٧٦ ، حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٠ ، حاشية السوقى د ٤ ص ٣٠٦ و ٣٠٧ ، بلغة السالك د ٣ ص ٤٥٤ ، تكملة المجموع د ١٨ ص ٢٨ ، المغنى لابن قدامة د ٨ ص ١٥٥ ، كشاف القناع د ٦ ص ١٨٧ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٩ .

الرأى الثانى

يرى المالكية وبعض العلماء أن الساحر النذى إن جاء منه ما لم يعاهد عليه كأن أدخل ضررا بسحره على مسلم وحينئذ يكون ناقضا للعهد لأنه لم يعاهد على الإضرار بالناس وللإمام فى هذه الحالة الخيار بين أن يفعل فيه القتل أو الاسترقاق إلا أن يتعين قتله مراعاة للمصلحة ، إلا أن يسلم فإن أسلم فإن الإسلام يجب ما قبله^(٥٧) .

أما الشافعية فيرون أنه لا يقتل إلا إذا اعترفت بأن سحره يقتل . فإن قال بأن سحرى قد يقتل وقد لا يقتل وأن الشخص قد مات منه لم يجب عليه القصاص ووجبت الدية فى ماله لا على عاقلته لأن عاقلته لا تحتل ما ثبت باعتراف الجانى^(٥٨) .

الرأى الثالث

يرى بعض علماء المالكية والشافعية والحنابلة وابن حزم من الظاهرية أن الساحر النذى إذا سحر مسلما ولم يدخل عليه ضررا يعزر تعزيراً بليغا ، وكذلك الحكم إذا سحر أهل الكفر وأدخل عليهم ضررا ما لم يقتل أحدا منهم لأنه ارتكب معصية ولا يقتل لأن الشرك أعظم من سحره . ويتفق معهم فى هذا الرأى بعض الأحناف فى قول لهم وهو المفهوم من المذهب الزيدى^(٥٩) .

أدلة أصحاب الرأى الأول

استدل القائلون بقتل الساحر النذى بعموم الأدلة الواردة فى قتل السحرة والتى ذكرناها من قبل وكونه معاهدا لا يمنع ذلك من قتله إذا قتل ، أما أنه قد استحدث كفرا آخر سراً لا يجوز إقراره عليه ، هذا من جهة ،

(٥٧) حاشية النسوقى د ٤ ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، بلغة السالك د ٣ ص ٤٥٤ ، جواهر الاكليل د ٢ ص ٢٧٩ ، حاشية عابدين د ٤ ص ٢٤٠ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٩ .
(٥٨) فتح البارى د ١٠ ص ٢٣٦ ، شرح النووى على صحيح مسلم د ١٤ ص ١٧٦ ، نيل الأوطار د ٧ ص ٣٦٣ .

(٥٩) حاشية النسوقى د ٤ ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، بلغة السالك د ٣ ص ٤٥٤ ، جواهر الاكليل د ٢ ص ٢٧٩ حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٠ ، تكملة المجموع ح ١٨ ص ٢٨ ، كشف القناع د ٦ ص ١٨٧ المحلى لابن حزم د ١٣ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، البحر الزخار د ٦ ص ٢٠٥ ، شرح الأزهري د ٤ ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

ومن جهة أخرى أنه أقدم على جريمة قتل بعمله السحري ، ومن ثم فلا فرق بينه وبين الساحر الذى ينتحل ملة الإسلام ، قال الجصاص ألا ترى أنه لو سألنا أن نقره على السحر بالجزية لم نجبه إليه فلو أنه غير مستحق للقتل بكفره لا ستحقه بسعيه فى الأرض بالفساد كالمحاربين^(٦٠) وقد سبق لنا إيراد الأسباب التى من أجلها لم يقتل الرسول ليبدأ فارجع إليها إن شئت .

هذا ، وقد استدل الشافعية على قتل الساحر الذمى فى حالة قتله آخر بالسحر بأن ذلك يوجب عليه القصاص ، ولعلمهم فى هذا يستندون الى آيات القصاص الواردة فى كتاب الله تعالى ومنها قوله (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) الخ الآية^(٦١) .

وهذا بناء على التفسير القائل : إن الذمى مع المسلم متساويان فى الحرمة التى تكفر فى القصاص وهى حرمة الدم الثابتة على التأبيد وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام^(٦٢) .

دليل الرأى الثانى

إن أهل الذمة معاهدون فى ديار الإسلام فلهم فى رقاب المسلمين ذمة وعهد أن يعيشوا فى سلام وأمن واستقرار فإذا هم غدروا وخانوا العهد فلا يستحقون ذلك بل يجب نبذ عهدهم لما ألحقوا بالمسلمين من ضرر أدخلوه عليهم ، ولعل دليلهم فى هذا هو قوله تعالى (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين)^(٦٣) .

والمعنى وإما تخافن منهم غشا ونقضاً للعهد ، والخوف أتى بمعنى اليقين ، وهنا فى هذه المسألة قد ظهرت آثار الخيانة وثبتت دلالتها ، ومن ثم وجب نبذ العهد لئلا يوقع التماذى عليه فى الهلكة ، وقيل إذا علم اليقين

(٦٠) أحكام القرآن للجصاص ج ١ ص ٥٣ و ٥٤ .

(٦١) سورة البقرة الآية ١٧٨ .

(٦٢) الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٦٢٣ ، ٦٢٤ .

(٦٣) سورة الانفال الآية ٥٨ .

وثبت الضرر وجب توقيع العقوبة مباشرة والاستغناء عن نبد العهد بها ، وقد فعله النبي ﷺ حين سار الى أهل مكة عام الفتح لما اشتهر منهم نقض العهد (٦٤) .

دليل الرأي الثالث

لم نجد لهم دليلا معينا على ما ذهبوا إليه من تعزيز الساحر النمرى الذى لم يدخل ضررا على المسلمين ، أو أدخل ضررا على أهل ملته ، ولعلمهم يقصدون بذلك قوله تعالى (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ... الخ الآية) (٦٥) .

قال علماؤنا : إن هذه الآية نزلت بسبب قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا في الأرض (٦٦) ، وقد وضعت الآية الكريمة عدة عقوبات للمفسدين في الأرض ، والأصل في التعزيز أنه غير مقدر وأمره متروك للإمام بحسب الحالة وما تقتضيه ولا حد لأكثره عند بعض العلماء كمالك بحسب رؤيته للمصلحة العامة .

وقد صرحت السنة المطهرة أيضا بالتعزيز وتركت تقديره لولى الأمر الشرعى فعن بهزبن حكيم عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ حبس رجلا فى تهمة ثم خلى عنه ، رواه الخمسة إلا ابن ماجه (٦٧) الحديث حسن وصحيح الأسناد .

فالساحر الذى يفعل السحر وإن لم يضر به أحدا إلا أنه مصدر تهديد للناس فضلا عن أن السحر أمره مذموم من جانب الشرع ، ومن ثم فإن على الإمام أن يعزز فاعله تعزيرا بليغا إما بالنفى أو بالحبس أو

(٦٤) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٤ ص ٢٨٧٠ و ٢٨٧١ .

(٦٥) سورة المائدة الآية ٣٣ .

(٦٦) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٣ ص ٢١٤٦ .

(٦٧) نيل الاوطار ح ٧ ص ٣٢٨ .

بغيرهما بحسب ما يراه بالغا ما بلغ حتى يأمن المجتمع من شرور السحرة ومخاريقهم وهذا ما قال به النووى وحكاه عن مالك وأصحابه وأبى ثور وأبى يوسف ومحمد والرافعى فى الأظهر عنده . وغيرهم من العلماء ، وقد فعل عمر بهم الجلاء حينما سحرزوا ابنه عبد الله لما ذهب إلى خيبر ليخرص ثمرها فانكتفت يده فأجلاهم عن المدينة^(٦٨) .

تنبيه : أما إذا قتل الساحر إنسانا فإنه يقتل وإن أسلم ولا يعفيه إسلامه من القصاص فى هذه الحالة لأنه حق العبد عند من يرى أن الساحر جانيا كسائر الجناة وهم الشافعية ، أما عند غيرهم من العلماء فإن قتله يكون كفرا وحدا ولا يعفى أيضا وإن أسلم لأن للعبد نوع حق فضلا عن أنه أضاف إلى كفره الظاهر كفرا آخر بسبب عمله السحر باستخدام الكفريات فى سرية تامة وخبث عجيب .

عقوبة المرأة الساحرة

اختلف علماؤنا فى عقوبة المرأة الساحرة التى تشتغل بعمل السحر على رأيين :

الرأى الأول

يرى ابن المنذر ومالك وبعض علماء الحنفية والشافعية والحنابلة أن المرأة الساحرة لا تقتل بل تكون عقوبتها التكتيل والتعزير سواء بالحبس أو بالضرب أو بهما معا حتى يستيقن أنها تركت السحر والعمل به وأنها تابت منه أبدا ، والأمة والنمىة فى ذلك سواء ونسب الجصاص هذا إلى أبى حنيفة^(٦٩) مع أنه ثبت لنا خلاف ذلك عن الإمام فى كتب المذهب الحنفى فقال بعدم قبول توبتها^(٧٠) وهو الأصح فى المذهب على ما يأتى فى الرأى الثانى .

(٦٨) المرجع السابق ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، وموطأ مالك ص ٥٧٧ ، الزواجر لابن حجر ج ٢ ص ١٠٢ ١٠١ .

(٦٩) الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، الكنز للزيلعى ج ٣ ص ٢٩٣ ، أحكام القرآن للجصاص ج ١ ص ٥٠ و ٥١ ، المغنى ج ٨ ص ١٥٥ ، تكملة المجموع ج ١٨ ص ٢٨ ، روح المعانى ج ١ ص ٣٣٩ .

(٧٠) حاشية ابن عابدين ج ٤ ص ٢٤١ ، ٢٤٥ ، فتح القدير ج ٦ ص ٧٢ .

الرأى الثانى

يرى علماء المذهب الحنفى أن المرأة الساحرة تقتل مطلقا سواء كانت حرة أو أمة مسلمة أو نعية متى أطلق عليها اسم الساحرة لأن ضرر كفرها يتعدى فتكون ساعية فى الأرض بالفساد ، والمعروف أن الحنفية يفرقون بين المرأة المرتدة ، وبين المرتدة بسبب السحر فالأولى تستتاب والثانية تقتل بدون استتابة ولذا استثنوها من الذين تعرض عليهم التوبة من المرتدين^(٧١) وهذا هو الأصح فى المذهب الحنفى .

أدلة الرأى الأول

الدليل الأول

ما روى عن عمرة بنت عبد الرحمن أن عائشة رضى الله عنها قد باعت مدبرة لها كانت قد سحرتها واعترفت بذلك ولم تقتلها وكان ذلك بمحض من الصحابة .

ووجه الدلالة أنه لو كان القتل واجبا على النساء الساحرات ما تركتها عائشة ولما باعتها من أشد العرب ملكة ، كما جاء فى هذه القصة بأكثر من رواية ، وقد مضى القول فيها ، وحاشا عائشة أن تترك واجبا علم من الشرع الشريف^(٧٢) .

الدليل الثانى

ما رواه ابن عمر رضى الله عنهما قال : وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى النبى ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان - رواه الجماعة إلا النسائى .

ووجه الدلالة أن النبى ﷺ نهى عن قتل النساء ولم يستثن فلو كان قتل المرأة الساحرة واجبا لصرح به رسول الله ﷺ وللحديث روايات أخرى تدل كلها على أنه لا يجوز قتل النساء والصبيان والى هذا ذهب بعض العلماء^(٧٣) .

(٧١) حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٥ ، فتح القدير د ٦ ص ٧٢ روح المعانى د ١ ص ٣٣٩ .

(٧٢) المعلى د ١٣ ص ٤٧١ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٨ ، المغنى د ٨ ص ١٥٢ .

(٧٣) نيل الاوطار د ٨ ص ٧١ : ٧٣ ، صحيح البخارى د ٦ ص ١٤٨ .

هذا ، وقد اعترض القائلون بقتل المرأة الساحرة ، بأن المرأة قد بدلت دينها بعملها السحر واشتغالها به ولذا لزمها القتل ، واستدلوا على صحة اعتراضهم هذا بما رواه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ (من بدل دينه فاقتلوه) رواه الجماعة إلا مسلماً^(٧٤) .

وقد أجاب أصحاب الرأي الأول القائلون بعدم قتل الساحرة على هذا الاعتراض بأن حديث (من بدل دينه فاقتلوه) هو حديث صحيح لكنه غير جارٍ على ظاهره ، فإن التبديل يمكن أن يتحقق من الكافر إذا أسلم ومن ثم يعلم أنه حكم عام لحقه خصوص ، فوجب أن نخصه ونحمله على الرجال دون النساء ، لما ذكرناه من أدلة نهى الرسول ﷺ عن قتل النساء ، ومن المعروف أن السنة تخصص السنة بالاتفاق فلا مانع أن يكون الحديث عام لحقه خصوص النهى عن قتل النساء^(٧٥) .

أدلة الرأي الثانى

استدل أصحاب هذا الرأي على قتل المرأة التى تثبت عليها جريمة السحر بعموم الأدلة الواردة فى قتل السحرة ، وقد ذكرناها فيما مر ، وهى على سبيل المثال : ما روى عن حفصة أم المؤمنين من قتلها الساحرة التى سحرتها ، وكذا ما روى عن عمر حينما كتب الى عامله أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، وما رواه الترمذى فى خبر جندب بن عبد الله (حد الساحر ضربه بالسيف) ولم يفرق الرسول ﷺ بين الرجال والنساء بل جعله مطلقاً ، ويبدو أنه من قبيل التغليب فيدخل النساء فى الحكم^(٧٦) .

فإن قيل إن الرسول ﷺ قد استثنى النساء من القتل بنهيه عن ذلك فكيف يقال بقتلهن بعد ذلك ؟

ويجاب عن ذلك : بأنه ﷺ قد نهى عن قتلهن حال الردة ، والساحرة لم تقتل بمجرد الردة ، وإنما تقتل لأنها حينئذ من المحاربين ،

(٧٤) صحيح البخارى د ١٢ ص ٢٦٧ ، نيل الاوطار د ٨ ص ٢ ، الموطا للامام مالك ص ٤٥٩ .

(٧٥) شرح فتح البارى د ١٢ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، نيل الاوطار د ٨ ص ٢ : ٤ ، المبسوط للامام شمس الدين السرخسى د ١٠ ص ١٠٩ و ١١٠ .

(٧٦) نيل الاوطار د ٧ ص ٣٦٢ ، وموطا مالك ص ٥٤٣ ، المحلى لابن حزم د ١٣ ص ٤٧٠ ، ٤٧١ .

ولذلك أمر بقتل المرأة الساحرة الشاعرة التي كانت تهجوه ﷺ وكان لها ثلاثون ابنا وكانت تحرضهم على قتال المسلمين وكانت تسمى (أم قرفة) هكذا ذكره صاحب الميسوط وفتح القدير (٧٧) .

ومن ثم يعلم أن استحقاق القتل إنما يكون بسبب القتال وأن النساء لا يقاتلون عادة ، أما إذا كانت امرأة ذات تبع ورأى مطاعة في قومها وتعمل على قتال المسلمين وتحرض عليه فإنها تقتل حينئذ لأنها بذلك إنما تكون ساعية في الأرض بالفساد (٧٨) .

والذي يترجح في نظري هو ما رآه جمهور العلماء من عدم قتل المرأة الساحرة وإن ثبت عليها السحر بل تحبس وتعزر تعزيرا بليغا حتى ترجع عنه وتعلن توبتها لأن النبي ﷺ قد علم - على ما في بعض الروايات - أن لبيدا لم يكن وحده هو الذي قام بعمل السحر بل كان معه أخت له تسمى زينب - على قول ، وفي قول آخر كان معه بناته وتلكم نساء ولكن الرسول ﷺ لم يقتلن بل لم يقتل لبيدا لاعتبارات ذكرناها في موضعها من كتابنا هذا .

ثم إن المرأة بطبيعتها ضعيفة يمكن أن ترجع الى الحق بسرعة أمام سطوة العقوبة بخلاف الرجل فقد يكون معاندا ، فالراجح هو عدم قتل المرأة الساحرة لكنها تعزر حتى تتوب والله أعلم .



(٧٧) المغني لابن قدامة د ٨ ص ١٥٣ ، فتح القدير د ٦ ص ٩٩ ، الكنز للزيلعي د ٣ ص ٢٩٣ .

(٧٨) الميسوط للمرغسي د ١٠ ص ١٠٩ و ١١٠ ، فتح القدير د ٦ ص ٧٢ ، احكام القرآن للجصاص د ١ ص ٥٠ ، ٥١ .

المبحث الثالث

(العقوبات التبعية)

وتعرف عند أهل القانون الوضعى بأنها التدابير القانونية الجنائية وهى قد تكون جزائية أو غير جزائية أى وقائية ، وما يهمنا الآن هو النوع الجزائى .

والتدابير الجزائية أو العقوبات التبعية هى عبارة عن مجموعة من الوسائل يقصد منها حماية المصالح المختلفة سواء كانت مصلحة عامة أو مصلحة خاصة ، وتهدف الى انتقاص حقوق المحكوم عليهم بعقوبة أصلية لقاء اقتراف جريمة من الجرائم المعروفة بالكبائر لدى الشريعة الاسلامية وذلك لحث هؤلاء على إتيان الأوامر واجتناب النواهي التى بينها الشريعة الاسلامية .

فالعقوبات التبعية إذن ، هى الآثار الشرعية التى تترتب على الحكم بالعقوبة الأصلية كنتيجة طبيعية لقصور الأهلية الشرعية للساحر الذى ثبتت جريمة السحر فى حقه وصدر ضده حكم قضائى بعقوبة أصلية . فإن كان الحكم هو القتل سواء كان حداً أو قصاصاً ترتبت على ذلك العقوبة التبعية التى عرفتها الشريعة الاسلامية قبل أن يعرفها القانون الوضعى بأربعة عشر قرناً من الزمان .

والعقوبات التبعية نوعان :

أولاً : نقص الأهلية :

إعلم أن نقص الأهلية بالردة عن الإسلام بسبب اعتقاد إباحة السحر أو الاشتغال به لا تؤثر على أهلية المرتد فى التملك ، فيجوز أن يملك بالهبة وباستئجار نفسه وبالصيد وبالشراء ولكنه لا يملك الميراث ما دام فى دار الإسلام لاختلاف الدين لأنه لا يقر على رده ، ولكنها تؤثر على أهلية المرتد فى الأمور الآتية :

- ١ - يمنع المرتد الذى حكم من مباشرة حقوقه السياسية كمبايعة الإمام أو انتخاب رئيس الدولة أو نحو ذلك مما فيه معنى الشهادة ، كما لا تقبل شهادته أمام القضاء بالأولى .
- ٢ - عدم إبقائه أو قبوله عضوا فى إحدى المجالس النيابية أو نحوها .
- ٣ - العزل عن وظائف الدولة .
- ٤ - وقف تصرفاته فى أمواله وأملكه الخاصة إلا ما استثنى من ذلك وبإذن من القضاء لحين وضوح أمره بالتوبة والعودة الى حظيرة الإسلام أو عدمهما ، والثلاثة الأول التى ذكرناها والتى هى نتيجة نقص أهلية الساحر المرتد ظاهرة وواضحة ، أما الرابع وهو وقف تصرفاته فهذا يستلزم بيانا وتفصيلا .

تصرفات المرتد فى أمواله وأملكه

أختلف العلماء فى كيفية تصرفات المرتد بعد صدور الحكم عليه بإقامة حد الردة على أراء :

الرأى الأول

أن يزول ملكه عن ماله زوالا موقوفا غير بات فى الحال ولزم الحجر عليه ومنعه من التصرف فيه ، فإن أسلم وحكم القاضى بعودته عادت إليه أمواله وأملكه ونفذت تصرفاته فيها ، وإن مات على رده كانت تصرفاته باطلة لأنها تمس أموالا وأملكا تعلق بها حق الغير .

وهذا هو الرأى الراجح فى مذهب مالك والشافعى وأحمد وهو المشهور عن الإمام أبى حنيفة رحمه الله والزيدية إلا أن المذهب الزيدى يعتبر أن وقف التصرفات فى القرب لغوا كالوقف والصدقة والنذر فإذا لم تكن التصرفات فى القرب جائزة فهى موقوفة الى أن يعود الى الإسلام ، إلا أن الشافعية يبطلون التصرفات التى لا تحتل الإيقاف كالبيع مثلا لأنه من العقود المنجزة النافذة ما لم يكن معلقا على شرط وكذلك الهبة والرهن وما أشبه ذلك إلا العتق^(٧٩) .

(٧٩) المبسوط للرخس د ١٠ ص ١٠٥ ، حاشية الدسوقي د ٤ ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، مغنى المحتاج د ٤ ص ١٤٢ ، كشف القناع د ٦ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، البحر الزخار د ٦ ص ٢١٠ ، شرح الزرقانى د ٨ ص ٦٦ ، ٦٨ شرح الازهار د ٤ ص ٥٧٩ .

الرأى الثانى

يرى بعض علماء المالكية منهم ابن شعبان وعلماء الشافعية فى رواية لهم وبعض الحنابلة منهم أبو بكر الخلال وبعض الحنفية أن يزول ملك المرتد بنفس الردة لزوال عصمته بها على البتات ، وعلى ذلك تقع جميع تصرفاته باطلة بطلانا مطلقا لصدورها من غير ذى صفة لأنه أصبح غير مالك لها تأسيسا على أن الردة تزيل الملك ولا توقفه^(٨٠) .

الرأى الثالث

يرى أبو يوسف ومحمد وابن المنذر ورواية عن الشافعية اختارها المزنى من علمائهم وابن قدامة فى المغنى أن ملك المرتد لا يزول بالردة ولا يوقف وإنما يزول الملك بالموت أو القتل أو اللحاق بدار الحرب وعلى هذا فإن تصرفات المرتد حال حياته عندهم جائزة كما تجوز من المسلم . إلا أن أبا يوسف ومحمد صاحبا أبى حنيفة اختلفا فى مدى جواز هذه التصرفات : فيرى محمد أن تصرفات المرتد جائزة لكنها تكون كتصرفات المريض مرض الموت لأن المرتد على شرف التلف لأنه سيقتل فأشبهه المريض مرض الموت أما أبو يوسف فيرى أن تصرفات المرتد جائزة جواز تصرفات الصحيح لأن رجوعه الى الإسلام بيده واختياره فيمكنه الرجوع ويتخلص من القتل بخلاف المريض فإنه لا يمكنه دفع المرض ومن ثم وضع الفرق بينهما^(٨١) هذا وقد احتج كل من أصحاب الآراء الثلاثة بما يلى .

ما احتج به أصحاب الرأى الأول

قالوا : إن الساحر المرتد مقهور ومحجور عليه لا يستطيع التصرف فى أملاكه حيث تعلق بها حق المسلمين وهو متهم فى إضاعته ، وقد أوقف

(٨٠) حاشية الدسوقي ج ٤ ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، مغنى المحتاج ج ٤ ص ١٤٢ ، المغنى لابن قدامة

ج ٨ ص ١٢٩ ، فتح القدير ج ٦ ص ٧٤ ، جواهر الاكليل ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٨١) بدائع الصنائع ج ٧ ص ١٣٦ ، المغنى ج ٨ ص ١٢٨ ، تكملة المجموع ج ١٨ ص ١٦ ،

مغنى المحتاج ج ٤ ص ١٤٢ ، فتح القدير ج ٦ ص ٧٣ ، المبسوط ج ١٠ ص ١٠٥ ،

١٠٦ .

إضاعته ، وقد أوقف من التصرف فيها حفاظا لها كما يحفظ مال السفينة ومقهوريته أمانة على المملوكية ، وإذا كان كذلك ارتفعت مالكيته وارتفاعها يستلزم ارتفاع الملك لأن بقاءه بدونها محال^(٨٢) .

ما احتج به أصحاب الرأي الثانى

قالوا إن زوال ملك المرتد على البتات أمر واجب لأنه كافر مقهور تحت أيدينا الى أن يقتل والملك عبارة عن القدرة والاستيلاء على التصرف فى المال ولا يكون ذلك إلا بالعصمة ، وكونه حربيا يوجب زوال ملكه ومالكيته ومقتضى هذا أن يزول فى الحال .

واستدلوا على ذلك بما روى عن طارق بن شهاب أن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال لو قد بزاخت من غطفان وأسد : نغم ما أصبنا منكم وتردون إلينا ما أصبتم منا^(٨٣) وذلك من حديث طويل ذكره الشوكانى رحمه الله ونصه : عن طارق بن شهاب قال : جاء وفد بزاخت^(٨٤) من أسد وغطفان الى أبى بكر الصديق يسألونه الصلح ، فخيرهم بين الحرب المجلية^(٨٥) والسلم المخزية^(٨٦) ، فقالوا هذه المجلية قد عرفناها فما المخزية ؟ قال : تنزع منكم الحلقة^(٨٧) والكراع ونغم ما أصبنا منكم وتردون علينا ما أصبتم منا وتدون^(٨٨) قتلانا وتكون قتلكم فى النار ، وتتركون أقواما يتبعون أذناب الإبل^(٨٩) حتى يرى الله خليفة رسوله

(٨٢) تكملة المجموع ج ١٨ ص ١٦ و ١٧ ، المغنى لابن قدامة ج ٨ ص ١٢٩ ، فتح القدير ج ٦ ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٨٣) تكملة المجموع ج ١٨ ص ١٨ .

(٨٤) بزاخت بضم الباء : موضع بالبحرين وقيل هى ماء كانت لطىء بأرض نجد ، وقيل كانت لبني أسد كانت فيه وقعة عظيمة أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

(٨٥) الحرب المجلية أى المهلكة والمراد الحرب المفارقة لأهلها لشدة وقعها وتأثيرها .

(٨٦) السلم المخزية : أى المذلة والمعنى السلم الذى يتحقق عن طريق الذل والصغار .

(٨٧) الحلقة : بسكون اللام : الدرع أو الخيل أو السلاح عامة - راجع لسان العرب لابن منظور .

(٨٨) تدون : معناه : تكون دينا على بزاخت وبالتالي يستحق المسلمون الدية منهم .

(٨٩) اذناب الإبل معناه : يتبعون أذناب الإبل : أى يمتنون بخدمة الإبل ورعيها لما فيه من الذل

والصغار .

والمهاجرين والأنصار **أعزاً** يعذرونكم له ، فعرض أبو بكر ما قال على القوم فقام عمر بن الخطاب فقال : قد رأيت رأياً سنشير عليك : أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية فنعم ما ذكرت ، وأما ما ذكرت أن نغنم ما أصبنا منكم وتردون ما أصبتم منا فنعم ما ذكرت ، وأما ما ذكرت تدون قتلانا وتكون قتلاكم في النار ، فإن قتلانا قاتلت فقتلت على أمر الله أجورها على الله ليس لها ديات فتتابع القوم على ما قال عمر (رواه البرقاني على شرط البخاري ^(٩٠)) .

وهذا الأثر أخرج بعضه البخاري وأخرج بقيته البرقاني في مستخرجه بطوله .

واحتج به أصحاب الرأي الثالث

احتجوا بأن المرتد مكلف محتاج لا يتمكن من إقامة التكليف إلا إذا كانت لديه مقومات ذلك فوجب أن يستمر ملكه تحت يده ، لأن أثر رده بالسحر في إباحة دمه لا في زوال ملكه ^(٩١) .

وبيان ذلك : أن التصرف قول ، والأهلية له باعتبار قوله شرعاً ولا ينعدم بالردة ، فإباحة الدم لا تبيح الملك كالمقضى عليه بالرجم أو القصاص ، ودليل ذلك أن تصرف المكاتب بعد الردة نافذ بالاتفاق وحال الحر في التصرف فوق حال المكاتب ، فهو على كل حال من أهل التصرف لا في تصرفه ملكه فينفذ ^(٩٢) .

وقد تعقب هذا الاحتجاج أصحاب الرأي الثاني حيث قالوا : إن عصمة المرتد بالسحر قد زالت برده فماله أولى لأنه تابع للنفس في العصمة ، أما تصرف المكاتب فهو باعتبار عقد الكتابة ، والردة لا تؤثر فيه ، ألا ترى أن الهلاك الحقيقي لا يمنع بقاء الكتابة فيكون الهلاك الحكمي أولى ^(٩٣) .

(٩٠) نيل الاوطار ج ٨ ص ٢٢ .

(٩١) فتح القدير ج ٦ ص ٧٣ .

(٩٢) المبسوط ج ١٠ ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، المغني لابن قدامة ج ٨ ص ١٢٩ .

(٩٣) المبسوط ج ١٠ ص ١٠٥ ، فتح القدير ج ٦ ص ٧٤ ، مغني المحتاج ج ٤ ص ١٤٢ ،

المغني ج ٨ ص ١٢٩ .

ما يصير به المرتد محجوراً عليه

اختلف العلماء فى الوقت الذى يصير فيه الساحر المرتد محجوراً عليه هل يكون بمجرد الردة ؟ أم لابد من حكم قضائى . وذلك على رأيين :

الرأى الأول

يرى ابن النقيب من علماء الشافعية أنه لابد لذلك من صدور حكم قضائى بالحجر عليه بحيث يستوجب معه إيقافه عن التصرف فى أمواله وأملاكه . وهو الأصح عند العلماء وعليه الجمهور على ما ذكره الماوردى^(٩٤) .

الرأى الثانى

يرى المالكية وبعض العلماء أنه يصير محجوراً عليه بنفس الردة وبمجرددها وهو الظاهر ، والذى يغلب على ظنى أن الرأى الأول هو الراجح ، لأنه قد يتصور ما ليس بردة ردة ويتصور ما ليس بسحر سحراً وبالتالي ما ليس بكفر كفراً ، والقاضى المسلم هو الذى يقدر على فحص الأمر والتمييز بين الأشياء ليوافق حكمه عين الحقيقة ، فوجب للحكم برده إن يصدر حكماً قضائياً للحجر عليه^(٩٥) .

هذا ، ونود أن نوضح شيئاً من التفصيل بالنسبة لتصرفات المرتد بالسحر وهى تشمل أشياء كثيرة تتعلق بالتعاقدات الشرعية ونحوها ، إتماماً للفائدة وإيضاحاً للمسألة .



(٩٤) مغنى المحتاج د ٤ ص ١٤٢ ، حاشية الشرقاوى د ٢ ص ٣٨٩ .

(٩٥) جواهر الاكلیل د ٢ ص ٢٧٩ .

تصرفات المرتد بالسحر

اختلف العلماء فى تصرفات الساحر المرتد اختلافات كثيرة ما بين وقفها وجوازها وعدمه ومختلف فيها ، فهى ترجع كلها الى أقسام أربعة :

القسم الأول

« فى التصرفات الجائزة »

ذكر بعض العلماء أنواعا خمسة من هذه التصرفات :

١ - الاستيلاء : وصورته : إذا جاءت امرأة بولد فادعاه ثبت نسبه منه .

٢ - الطلاق : ينفذ طلاقه ما دامت زوجته فى العدة لأن الحرمة بالردة غير متأبدة ، فإن قيل كيف يتصور طلاقه وقد باننت منه بالردة ؟ أجيب : بأنه لا يلزم من وقوع البينونة امتناع الطلاق ، ويؤيد هذا أن الرجل إذا أقام وكيلًا على طلاق زوجته فارتد الزوج أو ارتدت الزوجة وقع طلاق الوكيل عليها ما دامت فى العدة^(٩٦) هذا وقد اقتصر السرخسى على هذين النوعين من التصرفات النافذة ووافقه ابن الهمام عليه^(٩٧) .

٣ - قبول الهدية : ومن حقه أيضا أن يقبل ما يهدى إليه بخلاف أن يهدى هو الى آخر فلا ينفذ فى الحال بل ذلك موقوف حتى يتبين ما يصير إليه أمره .

٤ - تسليم الشفعة : فإن سلم المرتد الشفعة التى كانت له ومن حقه . نفذ تصرفه فيها لأن حقه بطل بارتداده عن الإسلام ونسب ابن عابدين هذا القول لمحمد بن الحسن على ما جاء فى شرح السير أما أبو حنيفة فيرى أنه لا شفعة له حتى يسلم .

(٩٦) حاشية ابن عابدين ح ٤ ص ٢٤٩ . الكنز للزيلعى ح ٣ ص ٢٨٨ ، فتح القدير ح ٦ ص

(٩٧) المبسوط للسرخسى ح ١٠ ص ١٠٤ ، فتح القدير ح ٦ ص ٨٢ .

٥ - الحجر على عبده : ينفذ حجره على عبده بحق الملك أصلا ، فيكون ذلك بحقيقة الملك الموقوف أولى وقد أجيّزت هذه التصرفات لأنها لا تستدعى الولاية ولا تعتمد حقيقة الملك حتى صحت من العبد مع قصور ولايته^(٩٨) .

قال علماء الحنابلة : إن المرتد يملك بأسباب التملك كالصيد والاحتشاش والانتهاج والشرء وإجارة نفسه خاصة أو مشتركة^(٩٩) .

القسم الثانى

التصرفات الباطلة

وهي أيضا خمسة أنواع :

١ - النكاح : يبطل نكاحه من أول رده وتبين منه زوجته لأنه لا يقر على رده التي انتقل إليها وانحل من عرى الإسلام ، وكذلك إن تزوج لم يصح تزويجه لاختلاف الدين كنكاح الكافر المسلمة وأيضا إن زوج لم يصح تزويجه لمن له ولاية عليهن لأنها قد زالت برده ولا بد للنكاح من ولاية صحيحة^(١٠٠) .

٢ - الذبائح : يبطل ذبح المرتد ، وتصير ذبيحته حراما حتى لو كانت رده بالسحر^(١٠١) إلى نحلة أخرى من نحل أهل الكتاب وعليه جمهور العلماء^(١٠٢) .

(٩٨) حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٩ ، الكنز للزيلعي د ٣ ص ٢٨٨ ، كشف القناع د ٦ ص ١٨١ ، ١٨٢ فتح القدير د ٦ ص ٨٢ ، المبسوط د ١٠ ص ١٠٤ ، مغنى المحتاج د ٤ ص ١٤٣ .

(٩٩) كشف القناع د ٦ ص ١٨٢ .

(١٠٠) فتح القدير د ٦ ص ٨٢ ، حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٩ ، حاشية الشرقاوى د ٣ ص ٣٨٨ ، الكنز للزيلعي د ٣ ص ٢٨٨ ، كشف القناع د ٦ ص ١٨٢ .

(١٠١) الردة بالسحر : كما لو طلب الجن الكافر من الساحر أن يكفر بدين الاسلام ويعتق النصرانية أو اليهودية حتى يحقق له ما أراد تسخير فيه وهذا هو الغالب الآن على فعل السحرة .
(١٠٢) المراجع السابقة .

وقال إسحق بن راهويه : إن كانت ردة إلى دين أهل الكتاب حلت ذبيحته ، وقال به الأوزاعي أيضا وحكاه عن علي رضي الله عنه في قوله (من تولى قوما فهو منهم) وهذا القول لم يقل به أحد من العلماء غيرهما .

قال ابن قدامة : ولنا أنه كافر لا يقر على دينه فلم تحل ذبيحته كالوثني ولا تثبت له أحكام أهل الكتاب إذا تدين بدينهم فإنه لا يقر بالجزية ولا يجوز استرقاقه .

ومن ثم فإن المرتد إذا ذبح ذبيحة لغيره بغير إذنه ضمنها بقيمتها حية وذلك لأنه أتلفها عليه وحرمها ، أما لو كان ذبحها بإذن صاحبها فقد تلفت لكنه لم يضمن شيئا منها لأن صاحبها أذن في إتلافها^(١٠٣) .

٣ - الإرث : المرتد لا يرث أحدا ولا يرثه أحد بإجماع العلماء لما رواه البخاري بسنده إلى أسامة بن زيد أنه رضي الله عنه قال (لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم)^(١٠٤) ، وهذا ما استقر عليه جمهور أهل العلم^(١٠٥) .

٤ - الشهادة : تبطل شهادة المرتد ولا تصح أداء ، ويجوز تحملها حال الردة لاحتمال أن يسلم ويصح إسلامه فيؤديها حينئذ متى طلبت منه .

٥ - الصيد : سواء كان بالكلب المعلم أو بغيره من السلاح وخلافه لأن غير مقرر على ردة ومحرّم أكل ذبيحته - كما قدمنا - فكذا صيده . هذا خلافا لقلة من العلماء - وإنما بطل تصرفه في هذه الأنواع الخمسة في الحال لأنها تعتمد الملة ، والمرتد لاملة له أصلا ولا يقر على ما انتقل إليه^(١٠٦) .

(١٠٣) المغني ج ٨ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

(١٠٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ج ١٢ ص ٥٠ ، المحلى لابن حزم ج ١٣ ص ١٣٦ .

(١٠٥) للمرند كسيان : كسب حال إسلامه وقبل الردة . وهذا لتعناء فيه كلام في باب الميراث ،

أما الكسب الثاني فهو في حال ردة وهو أيضا فيه رأى لأبي يوسف ومحمد وسأيتي تفصيل

ذلك في موضعه إن شاء الله راجع الأم للامام الشافعي ج ٧ ص ٣٣٠ ، كشف النقاع ج ٦

ص ١٨٢ .

(١٠٦) المغني لابن قدامة ج ٨ ص ١٣٢ و ١٣٣ ، حاشية ابن عابدين ج ٤ ص ٢٤٩ .

ويلاحظ أن السرخسي اقتصر على النوعين الأولين من التصرفات الباطلة وذكر الزيلعي مثله وزاد عليه النوع الثالث وهو الإرث . وذكر الخمسة جميعا ابن عابدين في الحاشية .

مع أن الحنابلة وبعض العلماء أجازوا تملكه بأسباب التمليك ومنها الصيد وغيره مما سبق ذكره^(١٠٧) .

القسم الثالث

التصرفات الموقوفة

وهذا القسم يشمل نوعين هما :

١ - **المفاوضة:** (١٠٨) فإذا فاوض المرتد مسلما توقفت المفاوضة كأن أنشأ شركة مفاوضة بينه وبين مسلم توقفت حينئذ صفة المفاوضة بالاتفاق ، لأنها تعتمد المساواة بين الشريكين ، ولا مساواة بين المسلم والمرتد فيتوقف عقد المفاوضة فإن أسلم نفذت ، وإن مات أو قتل أوقضى بلحاظه بطلت بالاتفاق^(١٠٩) .

٢ - **الولاية المتعدية:** سبق أن ذكرنا أن ولاية المرتد قد زالت برده عن الإسلام وهنا يقرر العلماء أن ولايته تتوقف على ولده الصغير وعلى أموالهم فضلا عن تزويجهم لنقص الأهلية الشرعية المعتمدة في مثل هذه التصرفات لأنها تستدعي كمال الأهلية ولا أهلية حينئذ للمرتد عموما وللمرتد بالسحر خصوصا وقس على هذا ولايته على كل شيء لأن رده نقضتها نقضا مطلقا من أساسها^(١١٠) .

(١٠٧) كشف القناع د ٦ ص ٨٢ .

(١٠٨) المفاوضة لغة المساواة والمشاركة . وشرعا . الشركة العامة في كل شيء التي يملك الشريكان فيما بينهما كل شيء فيها وهي باطلة عند الشافعي ، وجائزة عند أبي حنيفة وصاحبيه . وراجع لسان العرب لابن منظور مادة فوض .

(١٠٩) المبسوط للسرخسي د ١٠ ص ١٠٤ . فتح القدير د ٦ ص ٨٣ ، حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٩ .

(١١٠) الكنز للزيلعي د ٣ ص ٢٨٨ ، المبسوط د ١٠ ص ١٠٤ ، فتح القدير د ٦ ص ٨٣ ، مغني المحتاج د ٤ ص ١٤٣ ، حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٩ .

القسم الرابع (التصرف المختلف فيها)

اختلف العلماء فى عدد من التصرفات وهى غالبا ما تكون تصرفات عقدية ، فمنهم من يقول بوقفها ومنهم من يقول بنفاذها .

وهذا التصرفات تشمل كل ما من شأنه مبادلة مال أو عقد تبرع وذلك : كالمبايعة والشراء والصرف والسلم والعق والتدبير والكتابة والهبة والوصية والرهن والوكالة والإجارة والصلح عن إقرار وقبض الدين الى غير ذلك من سائر تصرفاته لأنها تعتمد المساواة بين المتعاقدين دينا ، ولا مساواة مع وجود الردة فى أحد طرفى التعاقد .

وللعلماء فى هذه التصرفات آراء ثلاثة :

الرأى الأول

يرى أبو حنيفة : أن تصرفات المرتد فيما عدا ما ذكرناه فى الأقسام الثلاثة الماضية تكون موقوفة حتى يستبين أمره ، فإن أسلم وقبل إسلامه نفذت وإلا بطلت جميعا اتفاقا^(١١١) .

وهذا الرأى للامام رحمه الله مبنى على رأيه فى زوال الملك زوالا موقوفا على ما ذكرناه انفا ولأن الشرع ربط عصمة النفس والمال بسبب واحد وقد زالت عصمته بالردة فكذلك ماله^(١١٢) .

الرأى الثانى

يرى أبو يوسف ومحمد صاحبا أبى حنيفة أن تصرفاته نافذة لأن الصحة فى هذه المعاملات تقتضى الأهلية ، والنفاذ يعتمد الملك ، ولا خفاء فى وجود الأهلية لكونه مخاطبا بالأحكام الشرعية إلا أن كلا منهما له وجهة فى طريقة التصرف وكيفيته ، فأبو يوسف يرى أن تصرفاته تنفذ

(١١١) فتح القدير ج ٦ ص ٨٣ ، حاشية ابن عابدين ج ٤ ص ٢٤٩ ، الكنز للزيلعى ج ٣ ص

٢٨٨ المبسوط للرخسى ج ١٠ ص ١٠٥ .

(١١٢) المراجع السابقة .

كما تنفذ تصرفات الصحيح تماما لوجود الأهلية والملك ، أما محمد فانه يرى أنها تنفذ كما تنفذ تصرفات المريض أى فى حدود الثلث لأنه مشرف على الموت(١١٣) .

الرأى الثالث

يرى بعض المالكية والشافعى فى إحدى الروايات عنه وأبو بكر الخلال من علماء الحنابلة أن تصرفات المرتد فى هذه التعاقدات باطلة لأن ملكه فيها قد زال بردته زوالا قطعيا ويجب منعه من التصرفات منعا مطلقا وعلى هذا فإن تصرف فى شيء من ذلك وقع تصرفه باطلا(١١٤) .

وقد اختلف علماء المالكية فى عودة ماله إليه إن تاب ورجع الى الإسلام على قولين ، قول بعودة المال إليه ، وقول بعدمها ويؤول الى بيت المال(١١٥) .

تنبيه : إعلم وفقنى الله وإياك أن عقود البيع والهيبة والرهن والكتابة لو وقعت من الساحر المرتد وقعت باطلة وأن العتق والتدبير والوصية تصرفات موقوفة ، وهذا ما يراه بعض الشافعية منهم العلامة الشرقاوى رحمه الله(١١٦) .

أما بعض علماء الحنابلة فيرون أن تصرفه الذى تصرفه فى رده نافذ فى ماله ويضمن ما أتلغه لغيره من نفس أو مال حتى قالوا بصحة وكالته عن غيره ، أما ما بقى من التصرفات فهى موقوفة لتعلق حق الغير بها بل اختار أحدهم وهو الشيخ الموفق أن يجعل ما يملكه المرتد عند ثقة من الناس فإن أسلم عاد إليه وإلا فلا .

والجدير بالذكر أن الحنابلة لا يشترطون حكما قضائيا بعودته إلى الإسلام بل يكفى عندهم مجرد العودة(١١٧) .

(١١٣) المراجع السابقة أيضا .

(١١٤) المغنى لابن قدامة د ٨ ص ١٣٠ ، مغنى المحتاج د ٤ ص ١٤٢ ، وجواهر الاكلیل د ٢ ص ٢٧٩ .

(١١٥) جواهر الاكلیل د ٢ ص ٢٧٩ .

(١١٦) حاشية الشرقاوى د ٢ ص ٣٨٨ ، مغنى المحتاج د ٤ ص ١٤٣ .

(١١٧) كشاف القناع د ٦ ص ١٨٢ .

أما النفقة فقد نص العلماء على أنه ينفق على المرتد حال الردة من ماله وكذلك على من تلزمه نفقته وتقضى ديونه وأرش جنايته لأن ذلك واجب بإيجاب الشرع ، لأن هذه الحقوق لا يجوز تعطيلها^(١١٨) بخلاف ما عليه بعض علماء الشافعية والمالكية الذين قالوا لا يلزم المرتد ذلك لأنه لا مال له^(١١٩) والبعض لا يجوز الاتفاق من ماله على زوجته ولا على أولاده زمن الاستتابة لعسره بالردة فإن مات على ردة فماله فيء^(١٢٠) .

وعند الحنابلة يجوز للمرتد أن يملك بأسباب التملك كالصيد والاحتشاش والاثهاب وإيجار نفسه خاصة أو مشتركة ، فإن فعل هذه الأشياء وتملك بسببها ثبت له الملك^(١٢١) .

ثانيا : مصادرة مال المرتد :

إذا مات المرتد بالسحر أو قتل برده ترتب على ذلك أمران :

الأمر الأول : حلول الدين وقضاؤه .

الأمر الثاني : انتقال أمواله .

ولنتكلم عن كل واحد منهما تفصيلا على النحو التالي :

الأمر الأول

حلول الدين وقضاؤه

الواقع أنه لا يخلو حال المرتد بصفة عامة من حالين في استدانته ، فقد تكون الاستدانة حال إسلامه وقبل الردة ، وقد تكون خلال الردة نفسها ، والمعروف أنه بوفاته تحل تلك الديون ، وقد اختلف علماؤنا في كيفية أداء الدين :

(١١٨) كشف القناع ج ٦ ص ١٨٢ ، مغنى المحتاج ج ٤ ص ١٤٢ و ١٤٣ ، الأذ للامام الشافعي ج ٦ ص ١٥٦ .

(١١٩) مغنى المحتاج ج ٤ ص ١٥٣ ، جواهر الاكلیل ج ٢ ص ٢٧٩ .

(١٢٠) جواهر الاكلیل ج ٢ ص ٢٧٩ .

(١٢١) كشف القناع ج ٦ ص ١٨١ و ١٨٢ ، المغنى ج ٨ ص ١٣٠ .

فالامام أبو حنيفة له روايات ثلاث فى ذلك :

الرواية الأولى : وهى رواية أبى يوسف عنه : أن دين المرتد يقضى من كسب الردة فإن لم يف بذلك فحينئذ يستوفى الباقي من كسب الإسلام ، وعلل ذلك بأن كسب الإسلام حق لورثته فيه فلا يقضى منه أما كسب الردة فلا حق لورثته فيه فهو خالص له ، ولهذا كان فينا فى بيت المال ، فكان وفاء دينه من خالص حقه أولى من وفائه من حق الآخرين (١٢٢) .

الرواية الثانية : وقد رواها محمد بن الحسن عن أبى حنيفة ، فنذكر أن قضاء ديون المرتد يبدأ فيها بكسب إسلامه ، فإن لم يف بذلك فتكون من كسب الردة . وهذه الرواية عكس الرواية الأولى تماما .

وتعليل ذلك : أن قضاء الدين من ملك المدين أصلا وكسب الإسلام كان مملوكا له ، ولهذا يخلفه الوارث فيه ، فأما كسب الردة فلم يكن مملوكا له لبطلان أهلية المالك بها ، فلا يقضى دينه إلا إذا تعذر قضاؤه من محل آخر .

قال فى البدائع : وهو الصحيح لأن دين الميت يقضى من كسب إسلامه ، أما كسب الردة فلجماعة المسلمين فلا يقضى منه الدين إلا لضرورة كالذمى إذا مات وعليه دين يقضى دينه منه (١٢٣) .

الرواية الثالثة : رواية زفر بن الهذيل عن أبى حنيفة وفيها أن ديون المرتد التى استدانها حال إسلامه تقضى من كسب إسلامه ، أما ما استدانه حال رده فتقضى من كسب رده ، وعلل ذلك بعلة لها وجاهاتها حيث قال : إن المستحق للكسبين مختلف ، وحصول كل واحد من الكسبين باعتبار السبب الذى وجب به الدين أمر يلزم منه أداء ديونه بهذا الاعتبار فيقضى كل دين بحسب الحالة التى استدان فيها ذلك الدين ليكون الغرم بمقابلة الغنم ، وبهذه الرواية أخذ زفر رحمه الله (١٢٤) .

(١٢٢) المبسوط ج ١٠ ص ١٠٦ ، الكنز للزيلعى ج ٣ ص ٢٨٧ ، حاشية ابن عابدين ج ٤ ص ٢٤٧ و ٢٤٨ .

(١٢٣) المراجع السابقة .

(١٢٤) المراجع السابقة أيضا .

وقد ذكر الزيلعي عن أبي يوسف ومحمد أن ديون المرتد تقضى من الكسبين جميعاً لأن الكل ملكه حتى يجرى التوراث فيهما^(١٢٥) ، وهذا ما يراه أصحاب المذهب الزيدى حيث قالوا : لا فرق بين ما كسبه فى الردة وقبلها قياساً على الموت ويقدم قضاء دينه^(١٢٦) .

أما الحنابلة والشافعية على ما أعلم فلم يفصلوا فى ذلك وأوجبوا قضاء دينه ووجوب الدية فى حالة وجود سببها من ماله ولم يصرحوا بنوعية المال هل هو من كسب الإسلام أو الردة^(١٢٧) .

على أن الذى يبدو لى من كلامهم أن مرادهم بالكسب هو الكسبين جميعاً كسب الإسلام وكسب الردة .

قال بعض علماء الشافعية : وإذا كان من المجمع عليه أن الدين مقدم على حق الورثة فإنه أيضاً مقدم على حق الفبيء فى مال المرتد ، فإذا مات على الردة وفى ذمته دين قضى من ماله فإن بقى شىء صرف لبيت المال إلا أنهم اختلفوا : هل ينتقل مال المرتد جميعه لبيت المال فيئاً متعلقاً به الدين كما تنتقل التركة للورثة ؟ أم ينتقل الفاضل فقط بعد سداد الدين ؟

فيرى البعض أن ينتقل المال كله لبيت المال بما فيه الديون قياساً والبعض الآخر يرى أن ينتقل المال الفاضل بعد سداد الديون وهذا هو الظاهر من كلام مختصر التبريزى على ما ذكره الخطيب من علماء الشافعية^(١٢٨) .

وللمالكية اتجاهات ثلاثة فى هذه المسألة حيث قالوا : إن المرتد الحر إذا جنى على غيره ومات أو قتل على رده . فتلك الجناية أما أن تكون فى ماله أو تكون هدرأ أو تكون فى بيت المال^(١٢٩) .

(١٢٥) الكنز للزيلعى د ٣ ص ٢٨٧ .

(١٢٦) البحر الزخار د ٦ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(١٢٧) كشف القناع د ٦ ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، مغنى المحتاج د ٤ ص ١٤٢ و ١٤٣ .

(١٢٨) مغنى المحتاج د ٤ ص ١٤٢ .

(١٢٩) حاشية السوفى د ٤ ص ٣٠٥ .

الأمر الثانى انتقال أمواله

اختلفت العلماء فى مصير أموال الساحر المرتد الذى مات أو قتل على رذته هل تؤول ملكيتها الى ورثته المسلمين أم الى ورثته من غيرهم إن وجدوا أم تؤول الى بيت مال المسلمين على آراء كثيرة ونستطيع أن نلخصها فى خمسة آراء :

الرأى الأول

أن مال المرتد الذى مات على الردة يكون فينا لبيت المال سواء ما اكتسبه حال إسلامه أو حال رذته معا لأنه لا يرث أحدا ولا يرثه أحد كالذمى الذى مات ولا يوجد له وراث ، وهذا ما يراه مالك والشافعى وربيعه وابن أبى ليلى وابن حزم ورواية عن أحمد^(١٣٠) .

الرأى الثانى

إن ما اكتسبه المرتد حال إسلامه ينتقل لورثته المسلمين ، وما اكتسبه حال رذته يكون فينا فى بيت مال المسلمين وهذا ما يراه أبو حنيفة رحمه الله^(١٣١) .

الرأى الثالث

إن مال المرتد ينتقل الى ورثته المسلمين سواء المكتسب حال الإسلام والردة معا بعد قضاء ديونه إن وجدت ، وهذا ما يراه على بن أبى طالب كرم الله وجهه وابن مسعود رضى الله عنه وكذلك الليث بن سعد وإسحق بن راهوية وأبو يوسف ومحمد من الحنفية وأيضاً الزيدية ،

(١٣٠) حاشية الشرفاوى د ٢ ص ٢٠٨ ، جواهر الاكليل د ٢ ص ٢٧٩ ، تكملة المجموع د ١٨ ص ١٩ و ٢٠ المغنى ح ٨ ص ١٢٨ ، الكنز للزيلعى د ٣ ص ٢٨٦ ، كشاف القناع د ٦ ص ١٨١ و ١٨٢ ، حاشية النسوقى د ٤ ص ٣٠٤ ، المحلى د ١٣ ص ١٣٤ و ١٣٥ ، ١٣٦ .

(١٣١) الكنز للزيلعى ح ٣ ص ٢٨٦ .

ويتفق معهم في هذا الرأي الأوزاعي إلا أنه اشترط لذلك أن يكون المرتد قد قتل بأرض الإسلام^(١٣٢).

الرأي الرابع

يرى بعض العلماء أن ميراث المرتد لأهل دينه الذي انتقل إليه فحسب لأنهم أحق به وإلا فلورثته من المسلمين ، وهذا ما يراه أبو الخطاب من الشافعية وبعض الظاهرية ، ورواية عن الإمام أحمد^(١٣٣).

لكننا لم نجد أحدا قال بهذا الرأي سوى من تقدم ذكرهم ، ثم إننا لا نرجحه لأن المرتد لا يقر أصلا على ارتداده فكيف نسمح له بنقل أمواله إلى ديار الكفار .

الرأي الخامس

إن مال المرتد ساعة يرتد هو لجميع المسلمين سواء قتل أو مات أو لحق بدار الحرب حتى لو كان حيا وراجع الإسلام كل ذلك سواء ، وهذا ما يراه بعض علماء المالكية كما ذكره ابن شعبان وأشهب عنهم^(١٣٤).

هذا ، وقد احتج كل أصحاب الآراء الأربعة الأولى على ما ذهب إليه كل منهم ، أما أصحاب الرأي الخامس فلم أعثر لهم على دليل على ما ذهبوا إليه ، أما احتجاج كل من أصحاب الآراء الأربعة فهي :

دليل الرأي الأول

ما رواه البخاري بسنده إلى أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال (لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم)^(١٣٥).

(١٣٢) تكملة المجموع د ١٨ ص ١٩ ، الكنز للزيلعي د ٣ ص ٢٨٦ ، المبسوط د ١٠ ص ١٠٠ ، البحر الزخار د ٦ ص ٢٠٩ و ٢١٠ .

(١٣٣) المغني د ٨ ص ١٢٨ ، تكملة المجموع د ١٨ ص ١٩ ، المحلى ح ١٣ ص ١٣٥ .

(١٣٤) حاشية الدسوقي د ٤ ص ٣٠٤ ، جواهر الاكليل د ٢ ص ٢٧٩ ، بلغة السالك د ٣ ص ٤٥٠ .

(١٣٥) صحيح البخاري بشرح فتح الباري د ١٢ ص ٥٠ .

أما وجه الاستدلال بهذا الحديث : أنه جاء عاما ولم يخص منه المرتد من غيره والله تعالى يقول (وما كان ربك نسيا)^(١٣٦) ، فلو أراد الله تعالى أن يخص المرتد من ذلك لما أغفله ولا أهمله ، والمرتد من جملة الكفار وصار منهم لقوله تعالى (ومن يتولهم منكم فإنه منهم)^(١٣٧) .

ثم إن المرتد كافر لا يرث أحدا ولا يرثه أحد حتى من يوافقه في الملة على الراجح ، والموافقة فيها سبب التوريث ، والمخالفة فيها سبب الحرمان ، فلما لم يرثه من يوافقه في الملة مع وجود سبب التوريث فلأن لا يرثه من يخالفه في الملة أولى ، وإذا انتفى التوريث عن ماله فهو في أحد الوجهين أما أنه مال حربى لا أمان له أمان له فيكون فينا لبیت المال ، وإما مال ضائع فمصيبه بیت المال^(١٣٨) .

تعقيب للإمام شمس الدين السرخسى

قال : إنه لا وجه لجعل المال فينا ، فإن هذا المال كان محرزا بدار الإسلام ولم يبطل ذلك الإحراز بردته حتى لا يغنم في حياته لا لحقه فإنه لا حرمة له ، بل لحق الورثة ، فكذاك بعد موته ثم إن المسلمين وإن كانوا يستحقون ماله بالإسلام إلا أن ورثته قد ساووا المسلمين في الإسلام وترجحوا عليهم بالقرابة وذو السببين مقدم في الاستحقاق على ذوى السبب الواحد فكان الصرف إليهم أولى^(١٣٩) .

وقد سبق لنا أن عقبنا على ذلك وهو رأى مرجوح لأن الكفر كله ملة واحدة .

(١٣٦) سورة مريم الآية ٦٤ .

(١٣٧) سورة المائدة الآية ٥١ .

(١٣٨) كشف القناع ج ٦ ص ١٨١ و ١٨٢ ، جواهر الاكلیل ج ٢ ص ٢٧٩ ، حاشية الشرفاوى

ج ٢ ص ٢٠٨ الكنز للزيلعى ج ٣ ص ٢٨٦ .

(١٣٩) المبسوط للسرخسى ج ١٠ ص ١٠١ و ١٠٢ .

دليل الرأي الثانى

احتج أصحاب هذا رأى على ما ذهبوا إليه من أن مال المرتد لورثته المسلمين بنص آية المواريث وهى قوله تعالى (وإن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك)^(١٤٠) والردة هلاك حكمى ثم بموته أصبحت هلاكا حقيقا ، وبناء على ذلك ينتقل كسبه حال إسلامه إلى ورثته المسلمين ويكون حينئذ توريث مسلم من مسلم باعتبار أن التوريث استند إلى أول الردة . بخلاف كسب الردة فهذا لا يمكن استناده لعدم الإسلام حينئذ ، لأن من شروط الاستناد أن يكون موجودا عنده فلو ثبت فيه حكم التوريث لثبت مقتصرا على الحال وهو كافر عند الاكتساب ومن ثم ينطبق الحديث (لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم)^(١٤١) .

فثبت بهذا أن مال المرتد الذى اكتسبه حال إسلامه لورثته المسلمين لأنه ميراث مسلم من مسلم أما كسبه حال ردته فلا يثبت لاختلاف الملة باختلاف جهة التوريث^(١٤٢) .

دليل الرأي الثالث

احتج أصحاب هذا رأى بالخبر الذى روى عن على رضي الله عنه كما ذكره ابن حزم بسنده الى دثار بن يزيد بن عبد الأرض الأسدى أن على بن أبى طالب قال (ميراث المرتد لولده)^(١٤٣) .

واحتجوا كذلك بقوله تعالى (إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك)^(١٤٤) والمرتد هالك ، ولم تفصل الآية فى التركة فبقيت على الإطلاق . فثبت بهذا أن مال المرتد سواء اكتسبه فى حال إسلامه أو فى حال الردة فلورثته المسلمين .

(١٤٠) سورة النساء الآية ١٧٦ .

(١٤١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى د ١٢ ص ٥٠ .

(١٤٢) الكنز للزيلعي د ٣ ص ٢٨٦ ، الميسوط للسرخسى د ١٠ ص ١٠٠ و ١٠٢ ، المحلى

د ١٣ ص ١٣٦ .

(١٤٣) المحلى لابن حزم د ١٣ ص ١٣٤ .

(١٤٤) سورة النساء الآية ١٧٦ أيضا .

واحتجوا ثالثاً : بما ذكره ابن حزم أنه روى عن الأعمش عن الشيباني قال : أتى على بن أبي طالب بشيخ كان نصرانيا فأسلم ثم ارتد عن الإسلام فقال له على : لعلك إنما ارتددت لأن تصيب ميراثاً ثم ترجع الى الإسلام قال : لا قال فلعلك خطبت امرأة فأبوا أن يزوجوها فأردت أن تزوجها ثم تعود الى الإسلام فقال : لا قال : فارجع الى الإسلام قال : لا حتى ألقى المسيح فأمر به فضربت عنقه فدفع ميراثه الى ولده المسلمين^(١٤٥) وعن ابن مسعود مثله .

فدل ذلك على أن مال المرتد مطلقاً لورثته المسلمين لأنه وإن كانت الردة هلاكاً فإن تمام هلاكه بالقتل أو الموت ، فإن تم ذلك استند التوريث لأول الردة ، وقد كان مسلماً عند ذلك فيخلفه وارثه المسلم في ماله ويكون هذا توريث المسلم من المسلم لأن الحكم عند تمام سببه يثبت من أول السبب^(١٤٦) .

دليل الرأي الرابع

احتج أصحاب هذا الرأي بما روى أن عمر بن عبد العزيز كتب في رجل من المسلمين أسر فتنصر إذا علم ذلك ترث منه امرأته وتعتد ثلاثة قروء ، ودفع ماله الى ورثته المسلمين لا أعلمه قال إلا أن يكون له وارث على دينه في أرض فهو أحق به^(١٤٧) .

أما أصحاب الرأي الخامس وإن كنا لم نجد لهم دليلاً كما أشرنا إلا أن الذي يبدو لنا أنهم اعتبروا المرتد من بداية رده ميتاً على الفور بمجرد الردة باعتبارها موتاً وأسسوا على ذلك رأيهم وحكموا بأن يؤول ماله من ساعته إلى المسلمين . والله أعلم .



(١٤٥) المحلى لابن حزم د ١٣ ص ١٣٤ .

(١٤٦) المحلى لابن حزم د ١٣ ص ١٣٤ ، تكملة المجموع د ١٨ ص ١٨ و ١٩ .

(١٤٧) المحلى لابن حزم د ١٣ ص ١٣٥ ، تكملة المجموع د ١٨ ص ١٨ و ١٩ .

الفصل السادس

توبة الساحر والعلاج من السحر

الواقع أن علماءنا رحمهم الله ينظرون الى الساحر بدء ذى بدء من جانب العقيدة . فوجدوا أن السحر كسائر الفنون يستخدمه المسلم والكافر ومن ثم جعلوا أحكاما تترتب عليه . بل وقع خلاف بينهم فى عقوبة السحرة عموما والساحر المسلم خصوصا على ما سبق بيانه باعتبار أن المسلم يعرف مزايا الإسلام ويعرف كذلك ما ينهى عنه ، فمن العلماء من يعتبره كالزندق ويعامله بأحكامه سواء بسواء لاشتراكهما فى وجه الشبه وهو الإصرار بالكفر وإظهار الاسلام ، ومنهم من يرى أنه مسلم ارتد عن الإسلام بسبب اشتغاله بالسحر ، والمرتد تجوز توبته ، ومنهم من يرى أن الساحر جان كسائر الجناة تجرى عليه أحكامهم .

المبحث الأول

توبة الساحر المسلم

وبناء على ما تقدم فإن للفقهاء فى قبول توبة الساحر وعدمها آراء ثلاثة :

الرأى الأول

يرى المالكية والحنفية فى المشهور عنهم وبعض قليل من الشافعية ورواية عن الحنابلة ومعهم بعض العلماء أن الساحر يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته لأنه اعتقد ما علم تحريمه ضرورة وكفر بالله العظيم وعظم غير الله كالشياطين والكواكب ونحوها وجمع الى ذلك السعى بالفساد فى الأرض ، ولأن السحر معنى فى قلبه لا يزوال بالتوبة فهو كالزندق وهو من يبطن الكفر ويظهر الإسلام .

وهذا الرأى هو الثابت عن جمع من الصحابة والتابعين فلم ينقل عن أحد منهم أنه استتاب ساحرا فمن الصحابة : عمر وعثمان وعبد الله بن عمر وحفصة أم المؤمنين وأبى موسى الأشعرى وقيس بن سعد ومن التابعين : سالم بن عبد الله وعمر بن عبد العزيز وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ،

وخالد بن المهاجر وجندب بن عبد الله وجندب بن كعب . وممن قال بهذا الرأي أيضا أبو ثور وإسحق والطوسي من الإمامية وهو رواية عن الحسن والشافعي في أحد قوليه وطاووس وعبيد بن عمير وعبد العزيز بن سلمة الماجشون وبه قال أهل الظاهر^(١) .

إلا أن للمالكية تفصيلا حيث فرقوا بين الساحر المتجاهر بسحره فإن كان كذلك فتقبل توبته ويستتاب وكذلك الحكم إن جاء الساحر تائبا قبل الاطلاع عليه وظهور أمره .

أما إذا كان مستسرا بسحره مبطنا له فهذا يقتل مطلقا بدون استتابة ولا تقبل منه التوبة . على أن بعض المالكية أيضا قد عرف عنهم عدم الاستتابة مطلقا سواء كان متجاهرا به أو مستسرا فهو عندهم كالزنديق سواء بسواء^(٢) .

وهذا هو الظاهر من مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله وفيه أيضا أنه إذا عرفت مزاولته للسحر لا يستتاب ويقتل لسعيه في الأرض بالفساد^(٣) .

(١) حاشية السوقي د ٤ ص ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، بلغة السالك د ٣ ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، جواهر الاكليل د ٢ ص ٢٧٩ ، فتح القدير د ٦ ص ٩٩ ، حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٠ ، الكنز للزبيلى د ٣ ص ٢٩٣ ، مغنى المحتاج د ٤ ص ١٤٠ و ١٤١ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٨٥٥ ، البحر الزخار د ٦ ص ٢٤٨ ، شرح الازهار د ٤ ص ٣٧٩ ، الناج المذهب د ٤ ص ٢٥٥ ، كشف القناع د ٦ ص ١٨٨ ، المغنى د ٨ ص ١٥٣ ، الفروق للقرافى د ٤ ص ١٥١ ، الزواجر لابن حجر د ٢ ص ١٠٤ ، فتح البارى د ١٠ ص ٢٣٦ ، د ١٢ ص ٢٦٩ .

(٢) حاشية السوقي د ٤ ص ٣٠٢ و ٣٠٨ ، بلغة السالك د ٣ ص ٤٤٦ و ٤٤٧ ، جواهر الاكليل د ٢ ص ٢٧٩ ، قوانين الاحكام الشرعية لابن جزى ص ٣٩٥ .

(٣) فتح القدير د ٦ ص ٩٩ ، حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٠ ، الكنز للزبيلى د ٣ ص ٢٩٣ ومعنى ظاهر المذهب : مسائل الأصول وتسمى ظاهر الرواية أيضا وهي مسائل مروية عن أصحاب المذهب وهم أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد ويلحق بهم زفر والحسن بن زياد وغيرهما ممن أخذ عن الإمام وكتب ظاهر الرواية ستة هي التي رواها محمد بن الحسن الشيباني - راجع حاشية ابن عابدين د ١ ص ٦٩ .

وقد سئل أبو حنيفة لم يكن الساحر بمنزلة المرتد حتى تقبل توبته ؟
قال : لأنه جمع الى كفره السعى فى الأرض بالفساد ومن هو كذلك يقتل
مطلقاً^(٤) .

قال الكمال بن الهمام : ويجب أن يكون حكم الساحر فى عدم قبولنا
توبته كالزندق لأن ذلك فى الزندق لعدم الاطمئنان إليه بإظهار توبته
والمنافق مثله والساحر فى الغالب يكون مستسراً بسحره فهو كذلك ، أما
طريق العلم بحاله فإما أن يعثر عليه بعض الناس أو يدلى بسرّه إلى من
يأمن له . فالزندق هو المبطن للكفر وهو لا بد كذلك من لا يتدين
بدين^(٥) .

هذا ، وقد ألحق علماء الحنفية الكاهن بالساحر وقالوا إنهما من باب
واحد وقيل أيضاً هو العراف الذى يحدس ويتخرص^(٦) وقيل هو الذى له
رئى من الجن وهو من يأتبه بالأخبار ، وقد اختلفوا فى توبته على
قولين : قول يقول بقبول توبته وقول بعدمها ويقتل كما يقتل الساحر^(٧) .
على أنه ينبغي أن أنبه أن علماء الحنفية قالوا : لا يجب العدول
عن مذهب الشافعى فى كفر هؤلاء وعدمه^(٨) .

(٤) الزواجر ح ٢ ص ١٠٤ ، أحكام القرآن للجصاص ح ١ ص ٥١ .

(٥) فتح القدير ح ٦ ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٦) الحدس : بسكون الدال : الذى يتوهم فى معانى الكلام والأمور ، يقال تحدس أخبار الناس أى
تخبر عنها وعلمها من حيث لا يعرفون به ، ومنه حدس الظن ، والأصل فيه الرمى والمراد
الرجم بالغيب والظن والتخمين .

أما المتخرص : فهو الكذاب تقول رجل خرّص أى كذاب ، وفى التنزيل الكريم (قتل
الخرّاصون) وقد يجوز أن يكون بمعنى الظن غير المتحقق فيعمل به بعض الناس وهم لا
يعلمون الحق فيه . راجع مادتي حدس وخرص فى المعاجم ولسان العرب لابن منظور مجلد
٢ ط دار المعارف .

(٧) فتح القدير ح ٦ ص ٩٩ .

(٨) حاشية ابن عابدين ح ٤ ص ٢٤٠ و ٢٤١ ، فتح القدير ح ٦ ص ٩٩ .

الرأى الثانى

يرى بعض العلماء قبول توبة الساحر وعرض الاستتابة عليه فإن تاب فيها ونعمت وإلا قتل حدا وهذا الرأى قال به بعض المالكية وعلماء المذهب الشافعى ، والرواية الثانية عن الحنابلة ويتفق معهم الزيدية وغيرهم ، على أن جمهور الشافعية وبعض العلماء يوجبون عرض الاستتابة عليه وبعضهم يقول باستحبابها وتطلب منه مرة واحدة وجوبا ، ويمهل ثلاثة أيام ويستحب تكرارها خلال هذه المدة وهذا ما قال به علماء الزيدية أيضا^(٩) .

الرأى الثالث

يرى علماء الشافعية أن الساحر باعتباره عندهم جانبا كسائر الجناة تقبل توبته ويستتاب من أفاعيله إلا أن يكون قد أتى ما يوجب القصاص عليه فحينئذ لا تؤثر التوبة فى القصاص ولا يسقط بها ، وممن يرى هذا أيضا بعض الحنابلة^(١٠) .

وقد استدل كل من أصحاب الآراء الثلاثة على ما ذهب إليه بالأدلة التالية :

الدليل الأول

قول الله تعالى (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سُنَّتَ الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون)^(١١) .

ووجه الدلالة فى الآية الكريمة أن الكفار لا ينفعهم إيمانهم بالله عند معاناة العذاب وحين يروا البأس ومن ثم فإن التوبة لا تقبل بعد رؤية العذاب وحصول العلم الضرورى . فكذلك الساحر لأن السحر باطن لا يظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزندق^(١٢) .

(٩) حاشية السوقي د ٤ ص ٣٠٢ ، بلغة السالك د ٣ ص ٤٤٦ ، تكملة المجموع د ١٨ ص ٧ و ٨ مغنى المحتاج د ٤ ص ١٣٩ ، كشف القناع د ٦ ص ١٨٨ ، المغنى د ٨ ص ١٥٣ ، شرح الأزهار د ٤ ص ٣٧٩ ، التاج المذهب د ٤ ص ٢٥٥ .

(١٠) تكملة المجموع د ١٨ ص ٢٧ ، المغنى لابن قدامة د ٨ ص ١٥٥ .

(١١) سورة غافر الآية ٨٥ .

(١٢) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٧ ص ٥٧٨٠ ، ومجلد ١ ص ٤٣٩ ، بلغة السالك د ٣ ص ٤٤٦ و ٤٤٧ جواهر الاكليل د ٢ ص ٢٧٩ ، فتح القدير د ٦ ص ٩٩ ، حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٠ ، المغنى لابن قدامة د ٨ ص ١٥٣ .

الدليل الثانى

قوله تبارك وتعالى (إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) (١٣) .

ووجه الدلالة : أن الله تعالى قد استثنى من اللعنة الذين تابوا وأصلحوا ولايكفى فى التوبة قول القائل قد تبت حتى يظهر منه خلاف ما كان عليه بالبرهان القاطع والساحر الحقيقى زنديق يظهر الإسلام ويبطن الكفر ومن ثم فلا تظهر علامة تبين لنا رجوعه وتوبته فى هذه الحالة وبذلك تكون توبته كعدمها فالآية الكريمة المستدل بها قد اشترطت التبين من التائب والساحر لا يستطيع ذلك لبناء عمله الكفرى على الخفاء والغموض دائما (١٤) .

الدليل الثالث

قوله تعالى (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا يهديهم سبيلاً) (١٥) .

ووجه الدلالة هنا أن الله تعالى لا يقبل توبة مستهزىء بها، وهذا الساحر الذى يشتغل بالسحر لو تاب فسيرجع إليه مرات ومرات لأن السحر معنى فى قلبه وبذلك يكون مكرراً للردة ومن يفعل ذلك يكون مستخفاً مستهزئاً فوجب ألا تقبل توبته .

ألا ترى أن بعض العلماء يقول : إن من دخل فى صلاة نافلة ثم أفسدها بفعله لزمته حتى لا يكون بمثابة المستهزىء فأولى ألا تقبل توبة الساحر المرتد بسحره (١٦) .

الدليل الرابع

ما أخرجه البخارى فى صحيحه بسنده إلى عكرمة قال : أتى على رضى الله عنه بزنادقة فأحرقهم فبلغ ذلك ابن عباس فقال : لو كنت أنا

(١٣) سورة البقرة الآية ١٦٠ .

(١٤) الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٥٦٨ والمراجع السابقة .

(١٥) سورة النساء الآية ١٣٧ .

(١٦) المبسوط لشمس الدين السرخسى ج ١٠ ص ٩٩ .

لم أحرقهم لنهى رسول الله ﷺ (لا تعذبوا بعذاب الله) ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ (من بدل دينه فاقتلوه) (١٧) .

ووجه الاستدلال بالحديث أن المرتد يقتل فى الحال لكن يمتنع إحراقه لقول الله تعالى (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر) وعليه يدل تصرف الامام البخارى ، فإنه استظهر بالآيات التى لا ذكر فيها للاستتابة والتى فيها أن التوبة لا تنفع ، وبعموم هذا الحديث وبقصة معاذ فى الدليل الاتى (١٨) .

الدليل الخامس

ما أخرجه البخارى بسنده أيضا إلى أبى بردة عن أبى موسى قال : أقبلت الى رسول الله ﷺ ومعى رجلان من الأشعريين أحدهما عن يميني والآخر عن يساري ورسول الله ﷺ يسناك ، فكلاهما سأل ، فقال يا أبا موسى - أو يا عبد الله بن قيس - قال قلت والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى أنفسهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل ، فكأنى أنظر الى سواكه تحت شفته قلصت ، فقال لن - أولا - نستعمل على عملنا من أراده ، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى - أو يا عبد الله ابن قيس - الى اليمن ، ثم اتبعه معاذ بن جبل فلما قدم عليه ألقى له وسادة قال : أنزل ، فإذا رجل عنده موثق ، قال ما هذا ؟ قال : كان يهوديا فأسلم ثم تهود قال اجلس ، قال : لا أجلس حتى يقتل قضاء الله ورسوله (ثلاث مرات) فأمر به فقتل ... ألخ الحديث (١٩) وفى رواية أحمد (قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه) (٢٠) .

وذكروا فى وجه دلالة هذا الحديث أن حكم من ارتد عن الإسلام حكم الحربى الذى بلغته الدعوة فإنه يقتل من قبل أن يدعى لأنه خرج من الإسلام عن بصيرة (٢١) .

(١٧) صحيح البخارى بشرح فتح البارى د ١٢ ص ٢٦٧ ، نيل الأوطار د ٨ ص ٢ ، موطأ الامام مالك ص ٤٥٩ ط الشعب .

(١٨) شرح فتح البارى د ١٢ ص ٢٦٩ .

(١٩) صحيح البخارى د ١٢ ص ٢٦٨ ، نيل الأوطار د ٨ ص ٢ .

(٢٠) نيل الأوطار د ٨ ص ٢ .

(٢١) فتح البارى د ١٢ ص ٢٦٩ .

وقالوا : أخرج الطبراني من وجه آخر عن ابن عباس رفعه (من خالف دين الإسلام فاضربوا عنقه) واستدلوا بالحديث المذكور على أنه يقتل الزنديق من غير استتابة^(٢٢) .

والسبب في تمسك أصحاب هذا الرأي بعدم قبول توبة الساحر أو استتابته أن السحر بطبيعته من الأمور الخفية الشديدة الخفاء والتستر والساحر يمارس عمله الكفري - إن كان السحر من هذا الوادي في سرية تامة ، فلا يمكن معرفة توبته من عدمها ولأنه لو تاب لكان أقرب الى العودة الى ما كان عليه . وأذكر ما أثبتته ابن قدامة في المغنى في هذا المعنى قال : روى الأثرم بإسناده عن ظبيان بن عمار (أن رجلا من بني سعد مر على مسجد بني حنيفة فإذا هم يقرؤون برجز مسيلمة فرجع الى عبد الله بن مسعود فذكر له ذلك فبعث إليه فأتى بهم فاستتابهم فتابوا فخلى سبيلهم إلا رجلا منهم يقال له ابن النواحة قال : قد أتيت بك مرة فزعمت أنك قد تبت وأراك قد عدت فقتله^(٢٣) .

أدلة الرأي الثانى

استدل أصحابه بالأدلة التالية :

الدليل الأول

قوله تعالى (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين)^(٢٤) .

ووجه الدلالة فى الآية الكريمة أن الله تعالى علق الغفران على الانتهاء عن الكفر والمعاصى فإن انتهوا فإن الله تعالى قد وصف نفسه بأنه هو الغفور الرحيم : قال ابن العربى : هذه لطيفة من الله سبحانه من بها على

(٢٢) نيل الأوطار ج ٨ ص ٥ .

(٢٣) المغنى لابن قدامة ج ٨ ص ١٢٦ و ١٢٧ .

(٢٤) سورة الأنفال الآية ٣٨ .

الخلق ، ذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم ويرتكبون المعاصي والمآثم فلو كان ذلك يوجب مؤاخذة لهم لما استدرکوا أبدا توبة ولا نالتهم مغفرة ، فيسر الله تعالى عليهم قبول التوبة عند الإنابة ، واستنابة المرتد أمر مشروع ، وبذل المغفرة بالإسلام وهدم جميع ماتقدم ليكون ذلك أقرب لدخولهم في الدين بصدق وإخلاص وبالتالي يكون أدعى الى قبولهم لكلمة المسلمين^(٢٥) وإن لم يتوبوا فيكونون في هذه الحالة مستحقين للقتل .

الدليل الثانى

ما أخرجه البخارى بسنده إلى أبى هريرة قال : لما توفي النبى ﷺ واستخلف أبو بكر ، وكفر من كفر من العرب ، قال عمر : ياأبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله)^(٢٦) .

وفى رواية : قال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها . قال عمر فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق .

ووجه الدلالة فى هذا الحديث أن الذين نسبوا الى الردة كانوا صنفين آنذاك فى عهد أبى بكر ، صنف رجعوا الى عبادة الأوثان وارتدوا عن الإسلام وهؤلاء إن عادوا الى الاسلام وشهدوا أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل منهم ذلك ، والصنف الآخر هم الذين منعوا الزكاة ومع ذلك يشهدون أنه لا إله إلا الله ، والذى يعنينا هنا الصنف الأول فقد وجبت استنابتهم فإن تابوا قبلت توبتهم وإلا فتضرب أعناقهم حدا لقاء ردتهم عن الإسلام^(٢٧) .

(٢٥) راجع الجامع لأحكام القرآن مجلد ٤ ص ٢٨٣٨ .

(٢٦) صحيح البخارى د ١٢ ص ٢٧٥ .

(٢٧) شرح فتح البارى د ١٢ ص ٢٧٧ .

الدليل الثالث

قول الله تعالى حكاية عن سحرة فرعون حين آمنوا (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى)^(٢٨) .

ووجه الدلالة فى هذه القصة أن معرفة الساحر للسحر واشتغاله به لا تمنع من قبول توبته وقربه من الله تعالى فلقد تاب الله على سحرة فرعون وقبل منهم توبتهم وجعلهم من أوليائه ، فلقد كانوا فى أول النهار سحرة كفرة ، وفى آخر النهار كانوا عند الله شهداء بررة ، ثم إن الساحر لو كان كافرا صح إسلامه وتوبته ، فإذا صحت التوبة منهما صحت من أحدهما والله تعالى لم يغلق باب التوبة دون أحد من خلقه .

قال القرطبى : واعلم أن مسألة قتل الساحر أصلا فيها خلاف بين العلماء ولا يمكن إثبات اليقين مع وجود هذا الخلاف ، ولهذا فإنه يجب أن لا تستباح دماء المسلمين إلا بيقين^(٢٩) .

ولعل القرطبى فى هذه العبارة يشير الى قبول توبة الساحر واستتابته فإن أبى الساحر إحداهما أو كليهما تحقق قتله بيقين .

الدليل الرابع

قوله تعالى (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القول الظالمين ، أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم)^(٣٠) .

قال علماؤنا فى تفسير هذه الآية : إنه قد روى عن ابن عباس أن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ، ثم ندم فأرسل الى قومه :

(٢٨) سورة طه الآية ٧٣ .

(٢٩) الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٨ .

(٣٠) سورة آل عمران الآيات : ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

سلولى رسول الله ﷺ هل لى من توبة ؟ فجاء قومه الى رسول الله ﷺ فقالوا هل له من توبة ؟ فنزلت الآيات الى قوله (فإن الله غفور رحيم) فأرسل إليه فعاد الى الإسلام ، وقيل نحو هذا أيضا (٣١) .

ووجه دلالة الآيات على هذا أن المرتد تجوز توبته واستتابته لاسيما وإن كثيرا من المرتدين أسلموا وهداهم الله كما أن كثيرا من الظالمين تابوا عن الظلم فليس ببعيد أن يتوب المرتد أو يستتاب وتحسن توبته وإنابته الى الله .

الدليل الخامس

ما ذكره الشوكانى عن محمد بن عبد الله بن عبد القارى قال : قدم على عمر بن الخطاب رجل من قبل أبى موسى فسأله عن الناس فأخبره ثم قال هل من مغربة خبر (٣٢) قال نعم كفر رجل بعد إسلامه قال فما فعلتم به قال قربناه فضربنا عنقه فقال عمر هلاحيستموه ثلاثا وأطعتموه كل يوم رغيفا واستتبتموه لعله يتوب ويراجع أمر الله ؟ اللهم أنى لم أحضر ولم أرض إذ بلغنى) رواه الشافعى وأخرجه الإمام مالك فى موطئه (٣٣) .

وهذا الأثر يدل على وجوب استتابة المرتد لعله يتوب ويرجع الى الإسلام ولذلك تبرأ عمر من قتل الرجل المرتد ابتداء وأشار الى أنه كان يجب أن يمهل حتى يتوب .

وقد يتساءل سائل كيف يروى هذا الأثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع أنه من القائلين بوجوب قتل الساحر وعدم استتابته ؟ ويجاب عنه : بأن عمر تمسك بقتل الساحر المرتد بسحره ابتداء لأن الساحر دائما يكون مستسرا بسحره فلا تعلم توبته لأن طويته مبنية على الخبث ، بخلاف المرتد الذى انتقل علنا عن دين الإسلام فهذا معلوم حاله وبالتالي تعلم توبته من عدمها .

(٣١) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٢ ص ١٣٧١ و ١٣٧٢ .

(٣٢) مغربة : بضم الميم وسكون الغين وكسر الراء وفتحها ومعناها : هل من خبر جديد من بلاد بعيدة .

(٣٣) نيل الأوطار للشوكانى ج ٨ ص ٢ ، الموطأ ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ ط الشعب .

وإذا قيل إن هذا الدليل على هذا في غير محل الاستدلال ؟

قلنا : أنه في محل الاستدلال لأن كثيرا من العلماء يعتبر الساحر مرتدا من جملة المرتدين ، ولذا فإن هذا الدليل يصلح لقيام الدعوى وفي محلها والله تعالى أعلم .

أدلة الرأي الثالث

استدل أصحاب هذا الرأي على ما ذهبوا إليه من أن الساحر جان كسائر الجناة ومذنب تجوز توبته من ذنبه بالأدلة التالية :

الدليل الأول

قوله تعالى : والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما(٣٤)

ووجه الدلالة في الآية الكريمة أن الله تعالى قد استثنى التائبين الذين أنابوا الى الله وباءوا بذنوبهم ومن تلك الذنوب الإشراك بالله تعالى فضلا عن الكبائر ، والساحر لا يخرج عن هذه الأصناف فهو إما كافر إن اعتقد أو فعل ما يكفر به، وإما مرتكب كبيرة من الكبائر فجازت توبته واستتابته من أفاعيله ، فله أن يبدله إيمانا من الشرك وإخلاصا من الشك وإحصانا من الفجور ، إذا أتبع توبته بعمل صالح وبذلك يكون قد حقق توبته وتاب حق التوبة ويدخل تحت من قال الله فيهم (ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب الى الله متابا) (٣٥) .



(٣٤) سورة الفرقان الآيات ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ .

(٣٥) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٦ ص ٤٧٩٤ ، ٤٧٩٥ ، سورة الفرقان الآية ٧١ .

الدليل الثانى

قول الله عز وجل : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعنتنا لهم عذابا أليما) (٣٦) .

وجه الدلالة أن الآية الكريمة الأولى من الآيتين عامة فى قبول التوبة من التائب فضلا من الله ورحمة بعباده . وقد اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقول الله تعالى (وتوبوا الى الله جميعا أيه المؤمنون) (٣٧) ولا يكون تائبا من أقام على أى ذنب ، ولا فرق بين معصية ومعصية فمن تاب مثلا من ذنب وهو يقيم على غيره فليس تائبا وهذا مذهب جمهور أهل السنة والمعتزلة وليس قبول التوبة واجبا على الله عقلا ، كما يقول بذلك المخالفون ، بل هو سبحانه له الخيار فى قبولها وعدمه ، أما فى أحكام الدنيا فالتوبة بابها مفتوح وتجاوز من المذنب فى أى وقت عدا من تقدم ذكرهم فى الآية الثانية وهم من حضرتهم الوفاة وصاروا فى حين اليأس كفرعون حين أدركه الموت بالغرق قال أمنت فهذه توبة لا تصح ولا تقبل ، وكذلك الكفار الذين يموتون على كفرهم .

وللتوبة شروط أربعة حتى تكون توبة صحيحة هي :

- (١) الندم بالقلب على ما كان منه من ذنب قد اقترفه .
 - (٢) ترك المعصية فى الحال والتو حتى تقع التوبة صادقة .
 - (٣) العزم الأكيد ألا يعود لمثلها وإلا فإن الأعمال بالنية .
 - (٤) أن تكون التوبة حياء من الله لا من غيره بعيداً عن الخداع والغش .
- فاذا اختل شرط من هذه الشروط الأربعة لم تصح التوبة بيقين ، فمن القواعد الأصولية المعروفة الأعمال بالنية والأمور بمقاصدها .

(٣٦) سورة النساء الآيتان ١٧ ، ١٨ .

(٣٧) سورة النور الآية ٣١ .

وزاد بعض العلماء بعض الشروط الأخرى هي :

- (٥) الاعتراف بالذنب إن كان من الممكن أن يعترف به وإلا فعلى الأقل أن يعترف به أمام نفسه وأن يكون صادقا معها حين يتوب .
(٦) كثرة الاستغفار والتقرب إلى الله فإنه يغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويدع أهل الحقد بحقدهم حتى يدعوه . (٣٨) .

الدليل الثالث

قول الله تعالى حكاية عن المشركين (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون) (٣٩) .
ووجه الدلالة في القول الكريم أن التوبة جائزة من المشترك وغيره فيكون الساحر أولى ، فقد اشترطت الآية التوبة وما يوجب تأكيدها من إقامة شعائر الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فإن فعلوا ذلك حصلت التوبة الصادقة .

ولذا خاطب الله المسلمين أن هؤلاء يكونون أخوة لنا في الدين ، والإسلام يجبُّ ما قبله . قال ابن عباس رضي الله عنهما إن هذه الآية قد حرمت دماء أهل القبلة (٤٠) . ومنه قوله جل ذكره (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) (٤١) .

الدليل الرابع

قول الله تعالى : (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة ، وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير) (٤٢) .

(٣٨) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٢ ص ١٦٦٠ ، ١٦٦١ .

(٣٩) سورة التوبة الآية ١١ .

(٤٠) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٤ ص ٢٩٢٠ .

(٤١) سورة التوبة الآية ٢٧ .

(٤٢) سورة التوبة الآية : ٧٤ .

هذه الآية تنعى أفعال المنافقين الذين يحاولون التخلص من رذائلهم بالحلف لكن الله أكد أنهم قالوا كفرا ومن ذلك ما قاله الجلاس وهو أحد المنافقين مكذبا لرسول الله ﷺ في وعد الله إياه بالفتح قال : إن كان ما جاء به محمد حقا لنحن أشد من الحمير ، وقول عبد الله بن أبي من زعماء المنافقين أيضا (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) .

قال القشيري : كلمة الكفر سب النبي ﷺ والطعن في الإسلام وكفروا بعد الحكم بإسلامهم فدل هذا على أن المنافقين كفار^(٤٣) .

أما وجه الدلالة فهو قوله تعالى (فإن يتوبوا يك خيرا لهم) فدل هذا على جواز توبة المنافقين وهم المستسرون بكفرهم ، والاية هنا حجة على من قال بعدم قبول توبتهم ، فالتوبة جائزة منهم بنص الآية المستدل بها هنا .

الدليل الخامس

أخرج البخارى فى صحيحه بسنده إلى أبى الغيث عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يارسول الله وما هن ، قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات^(٤٤) .

وجه دلالاته يتضح فيما قاله ابن حزم : أنه قد ثبت بهذا الحديث أن السحر ليس من الشرك ولكنه معصية موبقة ، كما صح أن السحر ليس كفرا وإذا لم يكن كفرا فلا يحل قتل فاعله ، والموبقات تجوز التوبة منها حيث ذكر الله ذلك فى كتابه فى قوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما)^(٤٥) .

(٤٣) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٤ ص ٣٠٤٥ و ٣٠٤٦ .

(٤٤) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج ٥ ص ٣٩٣ .

(٤٥) سورة النساء الآية ٣١ .

وقال سبحانه (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة)^(٤٦) ، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث مفصلاً فارجع إليه إن شئت .

الدليل السادس

ما رواه عثمان بن عفان رضى الله عنه أثناء حصره فى داره قبيل قتله قال : قال رسول الله ﷺ (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان : وزنا بعد إحصان أو قتل نفساً فقتل بها) هكذا أورده الحافظ ابن حزم الظاهرى^(٤٧) .

وفى رواية عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل دمر امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا فى إحدى ثلاث ، رجل كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصانه ، أو نفس بنفس^(٤٨) .

ووجه الدلالة على ما ذكره ابن حزم : أن الساحر ليس كافراً بل هو عاص مرتكب الكبيرة ، وهو فى نفس الوقت ليس زانياً ولا قاتلاً ولم يجرى فى قتله خبر صحيح فصح تحريم دمه بيقين ، أما ما بقى بعد ذلك فإنه يعزر عليه إن لم يتب ، فتوبة الساحر واستتابته جائزتان^(٤٩) .

وقد أشرنا فيما مضى أن ابن حزم من القائلين بعدم كفر الساحر أو ارتداده بل هو عنده مرتكب لكبيرة من الكبائر تجوز توبته منها ما لم يعتقد إباحة السحر فذلك أمر علم من الدين بالضرورة ومستحله كافر بإجماع العلماء .

وهناك أدلة كثيرة أوردها العلماء فى جواز وقوع التوبة من جميع الخلق ، وقد اكتفينا هنا بهذه الأدلة ومنها يعلم الحق فى هذه المسألة . والله أعلم .

(٤٦) سورة النجم الآية ٣٧ ، المحلى لابن حزم د ١٣ ص ٤٧٩ .

(٤٧) المحلى د ١٣ ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٤٨) نفس المرجع ص ١٨٦ .

(٤٩) المحلى د ١٣ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ .

المبحث الثانى

حكم توبة الساحر الذمى والمرأة الساحرة

يرى جمهور العلماء أن تقبل توبة الساحر من أهل الكتاب وتوبته الإسلام فإن أسلم ، فإن الإسلام يهدم ما قبله ، ولأن الأخبار إنما وردت بالقتل فى الساحر المسلم وليس فى أهل الذمة لأنهم كفار أصلاً ، هذا كله إذا لم يقتل الذمى بسحره إنساناً سواء كان مسلماً أو ذمياً فإن قتل بسحره إنساناً يقتص منه وإن تاب^(٥٠) .

الرأى الثانى

يرى الإمام أبو حنيفة وبعض العلماء أن الساحر إذا أقر بسحره أو ثبت بالبينة يقتل ولا تقبل توبته ولا يستتاب منه والمسلم والذمى والحر والعبد فى ذلك سواء . إلا أن الشافعية يشترطون لذلك أن يعترف الساحر بأن سحره يقتل^(٥١) .

دليل الرأى الأول

ما روى عن ابن شهاب أنه سئل : أعلى من سحر من أهل العهد قتل ؟ قال بلغنا أن رسول الله ﷺ قد صنع له ذلك فلم يقتل من صنعه وكان من أهل الكتاب ، أخرجه البخارى .

ووجه الدلالة هنا ظاهر ، وقد تكلمنا فيما سبق عن هذه الواقعة التى حدثت له ﷺ على يد ليبيد بن الأعصم اليهودى الذى خطط لهذا العمل الخبيث بما فيه الكفاية فارجع إليه إن شئت فلا داعى للتكرار^(٥٢) .

(٥٠) راجع : فتح البارى د ١٠ ص ٢٣٦ ، شرح النووى على صحيح مسلم د ١٤ ص ١٧٦ ، حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٠ ، حاشية النسوى د ٤ ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، بلغة السالك د ٣ ص ٤٥٤ ، تكملة المجموع د ١٨ ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٥١) كشف القناع د ٦ ص ١٨٧ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٩ ، أحكام القرآن للجصاص د ١ ص ٥٠ و ٥١ .

(٥٢) حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٠ ، فتح البارى د ١٠ ص ٢٣٦ ، شرح النووى على صحيح مسلم د ١٤ ص ١٧٦ ، نيل الاوطار د ٧ ص ٣٦٣ .

دليل الرأي الثانى

استدل القائلون بهذا الرأي بعموم الأدلة التى سبق لنا أن ذكرناها فى قتل الساحر حدا أو قصاصا على خلاف الوارد فى ذلك بين العلماء .

حكم توبة المرأة الساحرة

اختلف العلماء فى قبول توبة المرأة الساحرة على رأيين :

الرأى الأول

يرى جمهور العلماء أن تقبل توبة المرأة الساحرة واستتابتها ومنهم من قال بأنها تحبس حتى يستيقن تركها لعمل السحر والأمة والذمية فى ذلك سواء^(٥٣) .

الرأى الثانى

يرى الحنفية وبعض العلماء أن تقتل المرأة الساحرة متى ثبت عليها السحر ولا تقبل توبتها ولا تستتاب . استثناء من قاعدتهم فى عدم قتل المرأة ، وقد ذكرنا من قبل أنهم يفرقون بين المرأة المرتدة عموما وبين المرأة المرتدة بالسحر ولذلك استثنوا الساحرة ولم يقولوا بقبول توبتها وهو الأصح فى مذهبهم^(٥٤) .

ما احتج به أصحاب الرأى الأول

أستدلوا بما رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما من نهى الرسول ﷺ عن قتل النساء والصبيان^(٥٥) .

(٥٣) الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٩ ، الكنز للزليعى د ٣ ص ٢٩٣ ، أحكام القرآن د ١ ص ٥٠ و ٥١ المغنى د ٨ ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، تكملة المجموع د ١٨ ص ٢٨ ، حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤١ ، ٢٤٥ .

(٥٤) حاشية ابن عابدين د ٤ ص ٢٤٥ ، فتح القدير د ٦ ص ٧٢ ، روح المعانى د ١ ص ٣٣٩ .

(٥٥) نيل الاوطار د ٨ ص ٧١ - ٧٣ ، البخارى د ٦ ص ١٤٨ .

كما استدلووا بفعل عائشة في الساحرة التي كانت قد دبرتها والتي قامت بعمل السحر لها بقصد موتها حتى تصبح من الأحرار^(٥٦) وقد ذكرنا ذلك كله فيما مر .

ما احتج به أصحاب الرأي الثاني

استدلووا بعموم الأدلة الواردة بقتل الساحر ، والمرأة الساحرة أخبث من المرتدات بغير السحر فوجب قتلها ، وأثر حفصة وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم واضح فى ذلك ، الى غيره من الأدلة .

ويبدو لنا أن السبب الذى دعا الأحناف يتمسكون بقتل المرأة الساحرة وهو الأصح من مذهبهم إنما نظروا إلى خبث عملها الذى تمارسه فى خفاء لتسعى فى الأرض فسادا وأن قبول التوبة منها إنما يكون ضربا من الخداع والغش ، وما قيل إن رسول الله ﷺ قتل مرتدة ، فقد قيل إنه عليه الصلاة والسلام لم يقتلها بمجرد الردة بل لأنها كانت ساحر شاعرة تهجو رسول الله ﷺ وكان لها ثلاثون ابنا وهى تحرضهم على قتال رسول الله ﷺ فأمر بقتلها ، فقبول التوبة من المرتدين واستتابتهم عام لحقه خصوص فيخصص المتنازع فيه بما ذكرناه . والسحر والهجاء والحراية سعى فى الأرض بالفساد وكلها من باب واحد .

واعلم : أن كثيرا من الجهال اعتمدوا على رحمة الله تعالى وعفوه وكرمه ، فضيعوا أمره ونهيه ونسوا أو تناسوا أنه سبحانه قال عن نفسه إنه شديد العقاب وأنه تعالى لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، فمن اعتمد على ذلك العفو وذلك الكرم الإلهى وهو يصير على الذنب فهو معاند مكابر .

فلا ينبغي للإنسان المسلم أن يشك لحظة واحدة فى أن رقابة الله على خلقه دائمة مستمرة ليل نهار فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا . والله أعلم .

(٥٦) المحلى لابن حزم ج ١٣ ص ٤٧١ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٨ ، المغنى ج ٨

المبحث الثالث

العلاج من السحر

لاشك أن للسحر خطرا جارفا على المجتمعات البشرية ، ولذا فقد وجبت مقاومته عملا بالقواعد الشرعية التى تقضى بإزالة الأضرار ، وذلك لا يتحقق إلا من مصدر أكيد يعتمد عليه فى مقاومة هذا العمل الخبيث .

وقبل أن نذكر أنواع العلاج سوف نتناول أولا المسائل الآتية :

- (١) هل يجوز استخراج السحر ؟
- (٢) هل يجوز الاستئجار على حل السحر ؟
- (٣) حل السحر بآيات من القرآن الكريم أو أنكار شرعية والحكم فيه .
- (٤) حل السحر بسحر مثله هل يجوزه الشرع أم يمنعه ؟
- (٥) النشرة : هل هى مشروعة أم لا ؟

ثم نأتى بعد ذلك الى ذكر ما ورد من علاج للسحر ؟ لكن ينبغي على من يستعمل ما ننكره من علاج أن يكون حسن الاعتقاد بالله تعالى فتلك أسباب لكن الشافى هو الله الذى قال القرآن عنه (وإذا مرضت فهو يشفين)^(٥٧) وما الأطباء والمعالجون لكل فروع المرض إلا أسباب فقط فلا يملك أحد من الإنسانية قاطبة شفاء لأحد وهذا يقين لا شك فيه ، أما من حاد عن هذا اليقين فعليه أن يتحمل تبعات ذلك .



(٥٧) سورة الشعراء الآية ٨٠ .

أولا

هل يجوز استخراج السحر ؟

السحر عمل ضار والإسلام يوجب إزالة الضرر ومن ثم فيكون استخراج السحر من الأمكنة إذا عرفت أمر واجب للعمل على إزالته ومنع ضرره .

وقد وجدنا في السنة المطهرة حديثين قد يظن الناظر فيهما أنهما متعارضان لأن في أحدهما أن الرسول ﷺ لم يستخرج السحر واكتفى بأن الله قد عافاه وشفاه ، وفي ثانيهما أنه ﷺ استخرج السحر وشاهده بنفسه وأتلفه .

والواقع أنه لا تعارض بين الحديثين - كما أسلفنا القول فيهما فيما مضى عند الكلام عن أدلة إثبات السحر الحقيقي .

ففي الرواية الأولى التي رواها أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ لم يستخرجه اكتفاء بالمعافاة^(٥٨) .

وأما في الرواية الثانية التي رواها سفيان بن عيينة عن ابن جريح عن آل عروة عن هشام عن أبيه عن عائشة أنه ﷺ استخرج السحر ورآه رأى العين ، بدليل أنه وصف ماء البئر التي كان فيها السحر بالحمرة ولا بد أن يكون قد عاينه ، وإلا لما استطاع وصفه ، ومن الأمور المقررة عقلا أنه لا يستطيع الواصف أن يصف الموصوف إلا إذا رآه وشاهده غالبا^(٥٩) .

هذا وقد ذكرنا كيفية الجمع بين الروایتين بأن الرسول استخرج السحر ورآه مع نفر قليل من أصحابه وأتلفه وأخفاه عن العامة حتى لا يروه لحكم يعلمها وذكرنا بعضا منها في موضعه .

(٥٨) فتح الباري على صحيح البخارى د ١٠ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، صحيح مسلم بشرح النووي د ١٤ ص ١٧٧ .

(٥٩) فتح الباري د ١٠ ص ٢٣٢ و ٢٣٣ .

ومن ثم فإن استخراج السحر وإتلافه متى عرف مكانه أمر واجب شرعا لإزالة الضرر عن المسحور على أن يكون ذلك دون تهجم على أحد أو اعتداء على حرمة ، وهذا من باب درء المفاسد عن الناس وهو في مقدمة المقاصد الشرعية^(٦٠) .

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله : إن أبلغ علاج للسحر هو استخراجه وتبطله كما صح عنه عليه السلام أنه سأل ربه في ذلك فدل عليه فاستخرجه من بئر فكان في مشط ومشاطة وجف طلعة نكر فلما استخرجه ذهب ما به كأنما نشط من عقال ، فهذا من أبلغ ما يعالج به المطبوب فهو بمنزلة إزالة المادة الخبيثة وقلعها من الجسد بالا ستفراغ^(٦١) .

وقال أيضا رحمه الله : ويدل على أنه استخرج السحر ما ورد في الرواية الأولى من قوله فذهب . النبي عليه السلام في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها وعليها نخل (هذا النص من الرواية المذكورة يدل على أن الرسول استخرج السحر إذ أن مجرد النظر إلى البئر لا غرض له في نفسه وأنه لم يجيء إليها لينظر إليها ثم ينصرف^(٦٢) .

فوضح مما سبق أن من جملة علاج السحر بل في مقدمتها هو عملية استخراج السحر من مظانه وإتلافه مع الاستعانة بالله تعالى في إزالة هذا الضرر . وما على الإنسان إلا أن يتخذ الأسباب لدفعه والله هو المستعان والشافى .

ثانيا

هل يجوز الاستتجار على حل السحر ؟

يقول بعض العلماء : الأصل في الإجارة أنها عقد من العقود الشرعية على خلاف القياس^(٦٣) وهذا تعبير شائع عند بعضهم .

(٦٠) تفسير المعونتين لابن القيم ص ٢٦ : ٢٨ ، فتح الباري ج ١٠ ص ٢٣٠ - ٢٣٥ .

(٦١) زاد المعاد ج ٣ ص ١٠٤ .

(٦٢) تفسير المعونتين لابن القيم ص ٢٨ .

(٦٣) معنى الإجارة على خلاف القياس : أن حكمها وقوع الملك في البدين ساعة فساعة والمعقود عليه وهى المنافع معدومة في الحال . والقياس أنها لا تجوز لما فيها من إضافة العقد إلى ما سيوجد فيما بعد ، وقد أجيبت للضرورة لشدة الحاجة إليها . راجع الكنز للزيلعي ج ٥ ص ١٠٥ .

لكن الذى يغلب على ظنى أنه ليس هناك عقد مشروع أجازته الشريعة على خلاف القياس بل إن ٩٠٪ من العقود التى قيل إنها على خلاف القياس هى عقود مشروعة ابتداءً لأنه من الثابت أن عقود الإجارة والوكالة والجعالة والرهن ونحوها هى مصالح الناس الحاجية التى لا غنى عنها فى معاشهم ، ومن ثم فلا يمكن أن يقال إنها عقود مشروعة على خلاف الأصل فالشريعة الإسلامية تناولت مصالح الخلق بعموم وشمول تحقيقاً لمسيرة حياتهم .

والإجارة شرعا : عقد على المنافع بعوض : أو أنها : تملك المنافع بعوض أو بنحو ذلك^(٦٤) وقد ثبتت مشروعيتها بالكتاب والسنة : أما الكتاب فقوله تعالى (فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن^(٦٥)) وقوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام (إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج)^(٦٦) .

وأما السنة فما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال (ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم ، فقال أصحابه وأنت ؟ قال نعم كنت أراعاها على قراريط لأهل مكة) أخرجه البخارى وأحمد^(٦٧) .

وعلى ذلك إجماع الأمة لحاجة الناس الشديدة إلى الإجارة وهى كسائر العقود أيضا وتنعقد بالإيجاب والقبول^(٦٨) .

والإجارة إذا كان المقصود منها تحقيق منفعة مشروعة يقرها الشرع الحنيف كانت جائزة وبالتالي فإن الإجارة على إزالة الضرر ممن يستطيع ذلك تكون جائزة كالمسحور الذى لا يستطيع أن يحل نفسه ووجد من يقوم بهذا العمل بدلا منه ، طالما أن ذلك لا يؤذى مسلما ولا يعود بضرر على أحد من الناس .

(٦٤) المرجع السابق .

(٦٥) سورة الطلاق الآية ٦ .

(٦٦) سورة القصص الآية ٢٧ .

(٦٧) صحيح البخارى ج ٤ ص ٤٤١ ، نيل الأوطار ج ٦ ص ١٩ .

(٦٨) فتح القدير ٩ ص ٥٩ .

ثالثا

حل السحر بآيات من القرآن أو الإنكار

أجاز العلماء أن يحل السحر بآيات من كتاب الله تعالى أو دعوات نبوية أو أنكار إلهية وأجازوا أيضا استتجار من يقوم بهذا إذا لم يكن في وسع الشخص المسحور القيام به ، بل أجازوا أن يذهب به أهله إلى من يفعل له ذلك لإطلاقه من السحر وإزالة الضرر عنه وهو أمر مشروع .

وهذا ما قال به سعيد بن المسيب حيث كان لا يرى بأسا إذا كان بالرجل سحر أن يمشى الى من يطلق عنه وقال : هو صلاح . رواه قتادة وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح .

قال قتادة : وكان الحسن يكره ذلك ويقول : لا يعلم ذلك إلا ساحر . فقال سعيد بن المسيب إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع .

وقد سئل الإمام أحمد عن يطلق السحر عن المسحور فقال لا بأس وهذا هو المعتمد كما ذكره الحافظ^(٦٩)

رابعا

حل السحر بسحر مثله

اختلف علماؤنا في حل السحر بسحر مثله على أقوال أربعة :

القول الأول : إذا كان حل السحر بسحر مثله فذلك حرام لا يجوز عند المالكية والحنفية ، وبالتالي فلا يجوز الاستتجار على شيء من ذلك^(٧٠) .

القول الثاني : التوقف في هذه المسألة وهو قول الإمام أحمد وهو إلى الجواز أميل ، فقد سئل عن تأنيه مسحورة فيطلقه عنها قال لا بأس .

(٦٩) كشف القناع ج ٦ ص ١٨٨ ، حاشية ابن عابدين ج ١ ص ٩٣ ، زاد المعاد لابن القيم ج ٣

ص ١٠٥ المغنى ج ٨ ص ١٥٤ ، فتح الباري ج ١٠ ص ٢٣٢ و ٢٣٣ .

(٧٠) حاشية ابن عابدين ج ٦ ص ٩٣ ، حاشية الدرر ج ٤ ص ٣٠٢ .

قال الخلال : إنما كره فعله وهذا من الضرورة التي يباح فعلها والمذهب جواز ضرورة^(٧١) .

القول الثالث : الكراهة : قال قتادة : كان الحسن يكره ذلك ويقول لا يعلم ذلك إلا ساحر^(٧٢) .

القول الرابع : لا بأس به وهو مذهب الشافعية وسعيد بن المسيب ورواية عن الإمام أحمد وعامر والشعبي والزيدية والرازي وغيرهم^(٧٣) .

ولو استعرضنا الأقوال الأربعة التي قبلت في هذه المسألة نجد أن الحنفية والمالكية يمنعون حل السحر بسحر مثله بناء على أن السحر كفر فلا يعالج كفر بكفر ولا يزال الضرر بضرر مثله .

أما بقية العلماء فمنهم من توقف ولكنه يميل الى جواز ذلك ضرورة لإزالة الضرر عن المسحور بحل السحر بناء على القول بأن من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل ، ومنهم من لا يرى به بأساً لأن بعض أنواع السحر الحقيقي لاتزال إلا بسحر مثلها بناء على القول بأن حاكى الكفر لا يكفر أصلاً .

والذي يترجح في ظني إجازة حل السحر بآيات من القرآن الكريم أو الدعوات المأثورة عن سيدنا رسول الله ﷺ أو الكلام العربي المفهوم والمشروع في نفس الوقت . أما حله بسحر مثله فلا بد للذي يقوم بهذا العمل أن يرتكب أمورا أقل ما يقال فيها إنها من أكبر المعاصي وأشد الكبائر والضرر لا يزال بمثله وإلا فما الفائدة من هذا العمل ؟ هذا ما رأينا إثباته والله تعالى وحده أعلم بالصواب .

(٧١) المغني ٨ ص ١٥٤ ، كشاف القناع ٦ ص ١٨٨ ، فتح الباري ١٠ ص ٢٣٣

(٧٢) فتح الباري ١٠ ص ٢٣٣ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٩ .

(٧٣) حاشية الشرقاوي ٢ ص ٣٨٥ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٩ ، فتح الباري

١٠ ص ٢٣٣ ، البحر الرخاار ١ ص ٢٠٥ ، شرح الأزهاري ٤ ص ٣٧٩

خامسا

هل النشرة مشروعة^(٧٤)

للعلماء في النشرة رأيان :

الرأى الأول

يرى جمهور العلماء أن النشرة مشروعة والعمل بها جائز لإطلاق السحر عن المسحور لأن فى ذلك مصلحة وإزالة لضرر واقع . وهذا ما يراه سعيد بن المسيب والشعبي وابن بطال والمزنى صاحب الشافعى وأبو جعفر الطبرى والإمام أحمد وابن القيم وغيرهم^(٧٥) .

الرأى الثانى

يرى الحنيفة والمالكية أن النشرة غير مشروعة ولا يجوز العمل بها إلا إذا كانت بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة فهذا جائز بل مستحب^(٧٦) .

وقد استدل كل فريق من الفريقين لما ذهب إليه بما يؤيد صحة رأيه .



(٧٤) النشرة : بضم النون : وهى ضرب من العلاج يعالج به من يظن أن به سحرا أو مسا من الجن قيل لها ذلك لأنه يكشف بها عما خالط الإنسان من الداء وهى معروفة مشهورة عند أهل التعزيم وسميت بذلك لأنها تخلص عن صاحبها ما به من آلام السحر ، وأصلها من الرقية والعلاج . راجع لسان العرب لابن منظور مادة نشر .

(٧٥) فتح البارى د ١٠ ص ٢٣٣ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٩ ، صحيح مسلم بشرح النووي د ١٤ ص ١٦٩ ، كنشاف القناع د ٦ ص ١٨٨ .

(٧٦) حاشية ابن عابدين د ٦ ص ٩٣ ، حاشية السقوى د ٤ ص ٣٠٢ .

أدلة الرأي الأول

الدليل الأول

استدل أصحاب هذا الرأي بما رواه البخارى عن قتادة : أنه سأل سعيد بن المسيب رجل به طب - أى سحر - أو يؤخذ عن امرأته أيحى عنه أو ينشر ؟ فقال سعيد بن المسيب رضى الله عنه لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح فأما ما لم ينفع فلم ينه عنه^(٧٧) .

قال النووى : وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء وأنه يجوز الاسترقاء للصحيح لما يخاف أن يغشاه من المكروهات والهوام^(٧٨) .

الدليل الثانى

ما رواه البخارى فى صحيحه بسنده إلى سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن آل عروة عن عروة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها كان رسول الله ﷺ سحر ... الخ الحديث وجاء فى نهايته سؤال عائشة لرسول الله ﷺ قالت : أفلا تنشرت ؟ فقال : أما والله فقد شفانى^(٧٩) وقد سبق لنا ذكره بتمامه .

ووجه الدلالة فى هذا الحديث أن النشرة لو لم تكن مشروعة وجائز العمل بها ما سألت عائشة رسول الله ﷺ عن ذلك وكأنها تقول له تنشر يا رسول الله . أى عالج نفسك مما حل بك من سحر لبيد بن الأعصم ولذلك رد عليها ردا متسقا مع هذا المعنى فقال : أما والله فقد شفانى فهذا دليل على جواز النشرة .

هذا وقد اعترض المانعون من جواز النشرة بما أخرجه أبو داود فى المراسيل عن الحسن رفعه (النشرة من عمل الشيطان) ووصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر ، وبناء على ذلك فإن النشرة غير جائزة .

(٧٧) فتح البارى د ١٠ ص ٢٣٢ صحيح مسلم بشرح النووى د ١٤ ص ١٦٩ .

(٧٨) شرح النووى على صحيح مسلم د ١٤ ص ١٧٠ .

(٧٩) صحيح البخارى د ١٠ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

وهنا لابد لنا أن نوفق بين الحديتين الحديث المستدل به والحديث
المعترض به فالتعاضد هنا تعارض ظاهري . فقله ﷺ (النشرة من
عمل الشيطان) إشارة الى أصلها ويختلف الحكم بالقصد فمن قصد بها
خيراً كان خيراً وإلا فهو شر (٨٠) .

قال الإمام ابن القيم : من أنفع الأدوية وأقوى ما يوجد من النشرة
مقاومة السحر الذي هو من تأثيرات الأرواح الخبيثة بالأدوية الإلهية من
الذكر والدعاء والقراءة ، فالقلب إذا كان ممثلاً من الله مغموراً بذكره وله
ورد من الذكر والدعاء والتوجه لا يخل به كان ذلك من أعظم الأسباب
المانعة من إصابة السحر (٨١) .

والواقع أن تأثير السحر وسلطانه هو في القلوب الضعيفة ، ولهذا
يغلب تأثيره في النساء والصبيان والجهال لأن الأرواح الخبيثة إنما تنشط
على أرواح تلقاها مستعدة لما يناسبها .

قد يسأل سائل فيقول إن النبي ﷺ أصيب بالسحر مع علو مكانته
وسمو مقامه وهو سيد الذاكرين فكيف ذلك ؟

ويجاب عن هذا التساؤل : إن ما وقع له ﷺ لبيان تجويز السحر
والعوامل الدنيوية عليه فليس ملكاً ولكنه بشر وهذا تأكيد لنبوته ﷺ وتأكيد
لبشريته أيضاً وليتسلى به من بعده من أمته .

الدليل الثالث

ما رواه مسلم في صحيحه بسنده إلى أبي سعيد أن جبريل أتى النبي
ﷺ فقال يا محمد اشتكيت فقال نعم قال : باسم الله أريقك من كل شيء
يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد ، الله يشفيك باسم الله أريقك (٨٢) .

(٨٠) شرح فتح الباري د ١٠ ص ٢٣٣

(٨١) فتح الباري د ١٠ ص ٢٣٥

(٨٢) صحيح مسلم د ١٤ ص ١٧٠

ووجه الدلالة واضح في أن الأحد بالأسباب في علاج المرض امر واجب وأن الرقية من جملة العلاجات وداخلة في باب النشرة . ما دام بالالفاظ العربية المفهومة والمشروعة

الدليل الرابع

ما رواه البخارى ومسلم في صحيحيهما بسندهما إلى أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (العير حق) (٨٣) .

وزاد مسلم في رواية ابن عباس : ولو كان شييء سابق القدر سبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا (٨٤) والمعنى في الحديث أن الذى يصيب من الضرر بالعادة عند نظر الناظر إنما هو بقدر الله السابق لا بشيء يحدثه الناظر فى المنظور على ما قاله بعض العلماء .

ووجه الدلالة فى الحديث أنه ظاهر فى المغايرة بين القدر وبين العين وإن كنا نعتقد أن العين من جملة المقذور . وقد أحبر الشارع بوجوده وهو ما ذهب إليه أهل السنة ولذلك نبه الرسول ﷺ أنه إذا طلب من العائن (٨٥) أن يغتسل فليغتسل ليذهب ما أصاب المعيون فثبت بذلك الاغتسال من النشرة النافعة (٨٦) .

وقد يسأل سائل : ما هى الرابطة بين الغسل والعير ؟ قال الماررى وابن العربى : لا يمكن تعليله والله ورسوله أعلم .

قال ابن القيم معلقا على هذا : هذه الكيفية لا ينتفع بها من أنكرها ولا من سحر منها ولا من شك فيها ، أو فعلها مجربا غير معتقد ، وإذا كان فى الطبيعة خواص لا يعرف الأطباء عللها بل هى عندهم خارجة

(٨٣) صحيح البخارى د ١٠ ص ٢٠٣ . ٢٧٩ . صحيح مسلم د ١٤ ص ١٧١

(٨٤) صحيح مسلم بشرح النووي د ١٤ ص ١٧١

(٨٥) العائن : هو الذى أصاب الشخص بعينه عن طريق النظر العميق اليه . واعلم أن أمر العين صحيح وأنها قوية الضرر . وقد كان معلوما بين العرب أن المعيون إذا طلب من العائن الاغتسال فينبغى على العائن ألا يمتنع من ذلك لأن المعيون يحسنى على نفسه الهلاك وكان اغتسال العائن عادة جرت بينهم بقصد شفاء المعيون من نظرة العائن ، كما فعل سهيل بن حنيف وكان معيونا من عامر بن ربيعة وكان عائنا

(٨٦) راجع فتح البارى د ١٠ ص ٢٠٤ و ٢٠٥ . شرح النووى على صحيح مسلم د : ص ١٧٢

عن القياس وإما نفعل بالخاصية . ثم إن المعالجة بالاعسالة مناسبة لا
 نأبأها العفوز الصحيحة لأن أثر العين كانه شعله نار وقعت على جسد .
 ففي الاعسالة إطفاء لتلك الشعلة وذلك عدم استحكام النظره . فأما عند
 الإصابة وقبل الاستحكام فقد أرسد الشارع الى ما يدفعه بقوله صلوات الله
 وسلامه عليه في قصة سهل ابن حنيف (ألا بركت عليه) وفي رواية
 ابن ماجه (فليدع بالبركة)^(٨٧)

على أن بعض الطبائعيين المثبتين للعين أن العائن تنبعث من عيه
 قوة سمية تتصل بالمعير (المراد النظر إليه) فيهلك أو يفسد ، قالوا ولا
 يمتنع هذا كما لا يمتنع انبعاث قوة سمية من الأفعى والعقرب تتصل باللدغ
 فيهلك وإن كان غير محسوس لنا فكذا العين

إلا أن الإمام المارري رد عليهم وقال . هذا غير مسلم لأننا بينا في
 كتب علم الكلام أن لا فاعل إلا الله تعالى وبيننا فساد القول بالطبائع وإذا
 تقرر هذا بطل ما قالوه . ثم أردف قائلا : هذا المنبعث من العين إما جوهر
 وإما عرض ، وباطل أن يكون عرضا ، لأنه لايقبل الانتقال ، وباطل كذلك أن
 يكون جوهرًا لأن الجواهر منجاسة فبطل ما قالوه . وأقرب طريقة قالها من
 يتحل الإسلام منهم أن قالوا لا يبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من
 العين فتتصل بالمعير وتتخلل مسام جسمه فيخلق الله سبحانه وتعالى الهلاك
 عندها والواقع أنه لا يمكن تعليل ذلك^(٨٨)

والذي يميل إليه مما قيل في مسألة العين وفي تعليل تأثيرها هو
 ما قاله الإمام ابن القيم في هذا المقام وأن علاج ذلك بالإغتسال هو نوع
 من أنواع النشرة وهي جائزة شرعا



(٨٧) شرح فتح الباري د . ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥

(٨٨) شرح النووي على صحيح مسلم د . ص ١٠ ، ١٢ فتح الباري د . ص ٤٠

الدليل الخامس

ما أخرجه البخارى فى صحيحه بسنده الى عائشة رضى الله عنها قالت : أمرنى رسول الله ﷺ - أو أمر - أن يسترقى من العين (٨٩) .

وفى نفس الباب أخرج أيضا بسنده الى أم سلمة رضى الله عنها أن النبى ﷺ رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفة فقال : استرقوا لها فإن بها النظرة (٩٠) .

والمعنى فى الحديثين : أن العين هى نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر ، وقد أشكل ذلك على بعض الناس فقال : كيف تعمل العين من بُعد حتى يحصل الضرر للمعيون ؟

والجواب : أن طبائع النفوس تختلف : فقد يكون ذلك من سم يصل من عين العائن فى الهواء الى بدن المعيون ، وقد نقل عن بعض من كان معيانا أنه قال إذا رأيت شيئا يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني ، كالمرأة الحائض تضع يدها فى إناء اللبن فيفسد ، كما إذا دخلت بستانا ضرت بكثير من المغروس من غير أن تمسها يدها أما إذا فعلت ذلك فى طهرها فلا يحدث شيء منه (٩١) .

قال الخطابى : فى الحديث أن للعين تأثيرا فى النفوس ، وقال ابن حجر جائز أن يقع بالعين هذا التأثير ولكنه يكون من قبيل العادة ولا يكون من قبيل الضرورة ولا الطبيعة وهو كلام سديد (٩٢) .

ويمكن أن يقال فى هذه المناسبة : إن الله تعالى يخلق عند نظر العائن الى المعيون وإعجابه به إذا شاء ما شاء من ضرر أو هلكة ، وقد يصرفه الله قبل وقوعه إما بالاستعاذة أو بغيرها وقد يصرفه بعد وقوعه إما بالرقية أو بالإغتسال أو بغير ذلك .

(٨٩) صحيح البخارى ج ١٠ ص ١٩٩

(٩٠) نفس المرجع ومعنى فى وجهها سفة : أى سواد فيه أو حمرة يعلوها سواد

(٩١) نفس المرجع ص ٢٠٠

(٩٢) المرجع السابق

والحاصل : إن الأرواح مختلفة فى طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها فمنها ما يؤثر فى البدن بمجرد الرؤية لشدة خبث تلك الروح ، وينبغى أن يعلم أن التأثير بإرادة الله تعالى وخلقه ليس مقصورا على الاتصال الجسمانى ، بل يكون تارة به وتارة بالمقابلة وأخرى بمجرد الرؤية وأخرى بتوجه الروح كالذى يحدث فى الأدعية والرقى والالتجاء الى الله وتارة يقع بالتوهم والتخييل .

فالذى يخرج من العائن سهم معنوى إن صادف البدن الذى لا وقاية له أثر فيه وإلا لم ينفذ السهم^(٩٣) .

ومن ثم فإن النبى ﷺ أمر بالرقية من العين وهى نوع من النشرة فصح أن النشرة مشروعة بيقين بشروطها المعروفة .

الدليل السادس

ما أخرجه البخارى بسنده الى ابن عباس رضى الله عنهما أن نفرا من أصحاب النبى ﷺ مروا بماء فيهم لديغ - أو سليم - فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال : هل فيكم من راق ؟ إن فى الماء رجلا لديغا أو سليما فانطلق رجل منهم فقرا بفاتحة الكتاب على شاء^(٩٤) ، فبرأ ، فجاء بالشاء الى أصحابه فكرهوا ذلك وقالوا : أخذت على كتاب الله أجرا ؟ حتى قدموا المدينة فقالوا يا رسول الله : أخذ على كتاب الله أجرا فقال رسول الله ﷺ (إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله)^(٩٥) .

ووجه دلالة الحديث : أن الرقى مشروعة إذا كانت بآيات من القرآن أو الدعوات والمأثورات النبوية أو بالألفاظ العربية المعروفة ، وهذه هى النشرة المقصودة من الحديث الذى رواه هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها فى واقعة سحر الرسول ﷺ .

(٩٣) فتح البارى ج ١٠ ص ٢٠١

(٩٤) الشاء : القدر من الجعل وهو الاجر راجع شاء فى المعاجم

(٩٥) صحيح البخارى ج ١٠ ص ١٩٨ ، ١٩٩ و ج ٤ ص ٥٣ ، صحيح مسلم ج ١ ص

وفي الحديث كذلك جواز أخذ الأجر على قراءة القرآن خلافا لبعض العلماء الذين قالوا إن ذلك طاعة لله والطاعات لا يستأجر عليها وما عليه الجمهور هو الجواز والله تعالى اعلم .

دليل الرأي الثاني

يستدل أصحاب هذا الرأي بعدم جواز النشرة بما رواه أحمد وأبو داود أنه عليه السلام سئل عن النشرة فقال (هي من عمل الشيطان) .

وفي رواية لأبي داود أيضا في المراسيل ورفع الحسن (النشرة من عمل الشيطان)^(٩٦) وقالوا في وجه الدلالة : إنه لا يعلم النشرة إلا ساحر والسحر مذموم من جانب الشرع الشريف ، وكان الحسن البصري يكره ذلك ويقول لا يعلم ذلك إلا ساحر فتكون النشرة غير جائزة .

وقد ناقش أصحاب الرأي الأول أصحاب الرأي الثاني في دليلهم هذا فقالوا : أولا : إن الحديث مرسل ، والمراسيل مختلف في العمل بها ،

ولو سلمنا بصحته : فإن الحديث المستدل به لا يؤخذ على إطلاقه وإنما ذلك إشارة إلى أصلها ويختلف الحكم بالقصد فمن قصد خيرا كان خيرا ومن قصد شرا كان شرا فالحديث محمول على أنها أشياء خارجة عن كتاب الله وأنكاره .

ثانيا : إن الأثر الوارد عن الحسن ليس على ظاهره لأنه قد ينحل بالرقى والأدعية والتعويد وهي أمور مشروعة^(٩٧) .



(٩٦) فتح الباري ج ١٠ ص ٢٣٣ ، أعلام الموقعين ج ٤ ص ٤٩٦ شرح النووي على صحيح

مسلم ج ١٤ ص ١٧٥ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٩ .

(٩٧) فتح الباري ج ١٠ ص ٢٣٣ ، أعلام الموقعين ج ٤ ص ٣٩٦ ، الزواجر ج ٢ ص ١٠٤ .

(المبحث الرابع)

الآثار الواردة فى علاج السحر

الأثر الأول

ما رواه ابن القيم قال : لما سحر رسول الله ﷺ وانتهى الى رأسه بحيث كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله ، فاستدعى الحجام فاحتجم^(٩٨) ليستفرغ المادة الرديئة من ذلك العضو وكان ذلك قبل أن يوحى إليه أن ذلك من السحر ، فلما جاء الوحي من الله تعالى وأخبره أنه قد سحر عدل الى العلاج الحقيقى فاستخرج السحر وأبطله فأنزل الله عز وجل المعوذتين وهما إحدى عشرة آية - سورة الفلق خمس آيات ، وسورة الناس ست آيات فكلما قرأ آية انحلت عقدة من تلك العقد المغروزة بالإبر فقام ﷺ كأنما أنشط من عقال حكى ذلك عن ابن عباس وعائشة ونكره البغوى . قال : أبى القيم : وهذا من أنفع علاجات السحر فالأدوية الإلهية هى التى يمكن أن تواجه تلك الأرواح الخبيثة الشريرة^(٩٩) .

فإذا لم يستطع المسحور أن يقوم بذلك بنفسه لنفسه فله شرعا أن يسعى الى من يعمل له ذلك سواء كان مأجورا أو فاعل خير .

(٩٨) أشكل هذا على بعض الناس فقال ما للحجامة والسحر وما الرابطة بينهما ولو وجد هؤلاء القائلون أبقرات أو ابن سينا أو غيرها قد نص على هذا العلاج لنلقوه بالقبول والتسليم ، وأبقرات أو بقرات على اختلاف فى التسمية هو : من أشهر الأطباء الأقدمين جعل للأمراض مصدرين أساسيين هما الهواء والغذاء ، دعاه رئيس دولة كانت تعادى وطنه لمعالجة الوباء المتفشى فى بلاده فأبى أن يخدم أعداء وطنه . وله مؤلفات نقل بعضها الى اللغة العربية منها : مقدمة المعرفة ، طبيعة الانسان ، وقد عاش أبقرات من ٤٦٠ : ٣٣٧ قبل الميلاد .

أما ابن سينا فهو فيلسوف عربى من كبار الفلاسفة ومن كبار أطبائهم عرف بالشيخ الرئيس ابن سينا كانت له ميول صوفية عميقة ، ومن مؤلفاته المطبوعة : القانون فى الطب والشفاء فى الفلسفة ، والإشارات والتنبيهات : راجع زاد المعاد ح ٣ ص ١٠٤ و ١٠٥ .

(٩٩) راد المعاد لابن القيم ح ٣ ص ١٠٤ و ١٠٥ ، تفسير المعوذتين له أيضا ص ٢٩ .

وقد سلك الرسول ﷺ مسلك التفويض وتعاطى الأسباب . ففي أول الأمر دعا الله سبحانه ثم احتجم ، فلما آتاه الوحي استخرج السحر وأتلفه وقرأ عليه المعوذتين .

وقد ذكرنا فيما مضى قصة اللديغ الذي قرأ عليه أحد الصحابة وأخذ على ذلك أجرا وقدورد الحديث بعدة روايات كلها تدور حول هذا المعنى وهو العلاج بالنشرة المشروعة وجواز أخذ الأجر على قراءة القرآن الكريم (١٠٠) .

قال ابن القيم : روى عن رسول ﷺ نوعان فى علاج السحر :

أحدهما : وهو أبلغهما : استخراج السحر وتبطيله كما صح عنه ﷺ أنه سأل ربه فى ذلك فدل عليه فاستخرجه من بئر فذهب مابه حتى كأنما نشط من عقال .

ثانيهما : الاستفراغ فى المحل الذى يصل إليه أذى السحر ، فإن للسحر أذى فى الطبيعة ، وهيجان فى أخلاطها وتشويش مزاجها ، فإذا ظهر أثره فى عضو وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو نفع جدا (١٠١) .

الأثر الثانى

ما ذكره ابن كثير : من أن أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله ﷺ من قراءة المعوذتين ، فلم يتعوذ المتعوذ بمثلهما وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان (١٠٢) .



(١٠٠) صحيح مسلم د ١٤ ص ١٦٩ و ١٨٨ ، نيل الأوطار د ٦ ص ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ ، تكملة

المجموع د ١٨ ص ٢٣ .

(١٠١) الطب النبوى تحقيق فضيلة المرحوم الدكتور عبد الباقى عبد الخالق ص ٩٩ .

(١٠٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير د ١ ص ١٤٨ .

الأثر الثالث

ما حكاه القرطبي وابن عابدين عن وهب بن منبه : أن المسحور يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فتدق بين حجرين ، ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ثم يحسو منه ثلاث حسوات ، ويغسل فإنه يذهب عنه ما به إن شاء الله ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله^(١٠٣) .

واعلم أن العلماء أجازوا كل حل للسحر عن المسحور وعمل المحبة بين الزوجين إذا كان بأشياء مشروعة وحينئذ فيكون الغرض منه غرضاً شرعياً فمثلاً : إذا أقامت امرأة على عمل تحبب زوجها في نفسها كأن يكون بكلام مباح أو لبس زينة له أو تطعمه طعاماً من عقار مباح أكله شرعاً أو نحوه مما قد يعتقد أنه سبب إلى محبة زوجها لما أودع الله فيه من الخصيصة بتقدير الله تعالى لا أنه يفعل ذلك بذاته . فهذا كله جائز قال به ابن رسلان وقال لا أعرف الآن ما يمنعه من الشرع ، ونكره الشوكاني في كتابه ، وقال سعيد بن المسيب إن استطعت أن تنفع أخاك فافعل وهذا ما عليه الشافعية والحنابلة ولكنهم قيدوه بالضرورة ، ويتفق معهم القرطبي وقتادة والطبري والزيدي وغيرهم من العلماء^(١٠٤) .

الأثر الرابع

ما ذكره ابن القيم : من قوله ﷺ (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) وقوله (أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة) وقوله (أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق ونراً وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما نرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها ومن شر فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن) ونحو ذلك مما ورد عنه ﷺ^(١٠٥) .

(١٠٣) الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٩ و ٤٤٠ ، حاشية ابن عابدين د ٣ ص ٤٩٦ .

(١٠٤) راجع : المغني د ٨ ص ١٥٤ ، كشف القناع د ٦ ص ١٨٨ ، حاشية الشرقاوى د ٢

ص ٣٨٥ ، الجامع لأحكام القرآن مجلد ١ ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، فتح الباري د ١٠ ص

٢٢٣ ، البحر الزخار د ٦ ص ٢٠٥ شرح الازهار د ٤ ص ٣٧٩ ، نيل الأوطار د ٩

ص ١٠٣ و ١٠٤ .

(١٠٥) الطب النبوي ص ١٣٢ ، أعلام الموقعين د ٤ ص ٣٩٦ ، نيل الأوطار د ٩ ص ١٠٥ .

ويتضح أيضا من ذلك أن النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة كل ذلك جائز بل مستحب لإبطال السحر عن المسحور .

الأثر الخامس

ما رواه البخارى فى صحيحه بسنده إلى عامر بن سعد عن أبيه رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ من اصطبج كل يوم تمرات عجوة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم الى الليل . وقال غيره سبع تمرات رواية أخرى . باب الدواء بالعجوة للسحر (١٠٦) .

ووقع فى رواية أبى أسامة : من تصبح ، وأصل الصبوح والإصطباح تناول الشراب صباحا ثم استعمل فى الأكل .

وقد زاد أبو ضمرة أنس بن عياض التقييد بالمكان ولفظه (من تصبح بسبع تمرات عجوة من تمر العالية الخ) (١٠٧) وقد روى عن عائشة من طريق ابن أبى مليكة بلفظ (فى عجوة العالية شفاء فى أول البكرة) كما روى نحوه (١٠٨) .

هذا ، وقد اختلف العلماء فى الغاية (إلى الليل) هل يرتفع الضرر إذا دخل الليل ؟ وقد حسم الحافظ ابن حجر هذا الخلاف فقال : لم أقف فى شيء من الطرق على حكم من تناوله أول الليل هل يكون كمن تناوله أول النهار حتى يندفع عنه ضرر السم والسحر الى الصباح بقوله : والذي يظهر خصوصية ذلك بالتناول أول النهار لأنه حينئذ يكون الغالب أن تناوله على الريق ، فيحتمل أن يلحق به من تناوله بالليل على الريق كالصائم .

فإذا علم هذا هل يقتضى المواظبة يوميا على السبع تمرات؟ أم أن ذلك مقيد بفترة زمنية؟ (١٠٩) والإجابة عن ذلك ما قاله الحافظ ابن حجر : بأن ظاهر الإطلاق المواظبة على ذلك .

(١٠٦) صحيح البخارى ح ١٠ ص ٢٣٨ .

(١٠٧) العالية : هى القرى التى فى الجهة العالية من المدينة المنورة وهى جهة نجد - فتح البارى

ح ١٠ ص ٢٣٩ .

(١٠٨) المرجع السابق .

(١٠٩) فتح البارى ح ١٠ ص ٢٣٩ .

وقد أخرج الطبري من رواية عبد الله بن بخير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها : كانت تأمر بسبع تمرات عجوة في سبع غدوات أخرجه ابن عدي من طريق محمد بن عبد الرحمن عن هشام مرفوعاً^(١١٠) ويتضح لنا من هذا الخبر أن تناول هذا العلاج مقيد بفترة معينة وهذا هو المعتمد .

هل المقصود تمر المدينة أو التمر مطلقاً ؟

اختلف العلماء أيضاً في المراد بالتمر هل هو خصوص تمر المدينة أم مطلق التمر ؟

فذهب الخطابي : إلى أن المراد خصوص تمر المدينة لأن ذلك إنما ببركة دعوة النبي ﷺ لتمر المدينة لا لخاصية فيه .

وذهب ابن التين إلى أنه يحتمل أن يكون المراد نخلا خاصا بالمدينة لا يعرف الآن .

وذهب البعض إلى أنه خصوص تمر المدينة لخاصية فيه ، كما يحتملون أن يكون خاصا بزمانه ﷺ^(١١١) .

قال القرطبي : ظاهر الأحاديث خصوصية عجوة المدينة بدفع السم وإبطال السحر وهو من باب الخواص التي لا تدرك بقياس ظني ، أما ابن القيم فيرى أن عجوة المدينة من أنفع تمر الحجاز وهو صنف كريم متين الجسم والقوة وهو من إلية التمر وأذنه ، والتمر في الأصل من أكثر الثمار تغذية لما فيه من الجوهر الحار الرطب^(١١٢) .

والذي يبدو لنا أن للنبي ﷺ سرا في وصفه التمر لعلاج كل من المسموم والمسحور قد لا نعلمه الآن ، مع أن بعض العلماء قد تكلف في بيان خواص التمر بأنه يمتاز بوجود الحرارة فيه وهو كاف في مقاومة

(١١٠) فتح الباري ج ١٠ ص ٢٣٩

(١١١) المرجع السابق

(١١٢) نفس المرجع

الداء ، وأعتقد أنه لا شك في أفضلية تمر المدينة المنورة فإن كان غير مستطاع فمطلق التمر كاف إن شاء الله لكن ينبغي أن تتوفر النية في أكله والثقة بالله تعالى وبرسوله .

وأما ما ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح من أنه وقف على صفة النشرة في كتاب الطب النبوي لجعفر المستغفرى . قال نصوح : سألتني حماد بن شاکر ما الحل وما النشرة فلم أعرفها فقال : هو الرجل الذى لم يقدر على مجامعة أهله وأطاق ما سواها ، فإن المبلى بذلك عليه أن يأخذ حزمة قضبان وفأسا ذا قطارين ويضعه فى وسط تلك الحزمة ثم يؤجج نارا فى تلك الحزمة حتى إذا ما حمى الفأس استخرجه من النار وبال على حره فإنه يبرأ بإذن الله تعالى^(١١٣) .

الأثر السادس

ما ذكره ابن حجر أيضا عن جعفر من أن النشرة أن يجمع أيام الربيع ما قدر عليه من ورد البساتين المختلفة ، ثم يلقبها فى إناء نظيف ويجعل فيها ماء عذبا ثم يغلى ذلك الورد فى الماء غليا يسيرا ، ثم يمهل حتى إذا فتر الماء أفاضه عليه فإنه يبرأ بإذن الله تعالى^(١١٤) .

قال حاشد : تعلمت هاتين الفائدتين بالشام^(١١٥) .

وأخيرا : فقد اكتفيت بما ذكرته بعض الكتب المعتمدة والموثقة مراعاة لعدم السير وراء كل غث وسمين والآثار السبعة التى ذكرناها فيها الكفاية إن شاء الله .

على أنه ينبغي للمسلم أن يعلم أن الله تعالى هو الشافى وحده فما من داء إلا وجعل الله له دواء وصدق رسول الله ﷺ فيما رواه عنه ابن مسعود قال ، قال النبى ﷺ (إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله) رواه أحمد^(١١٦) .

(١١٣) فتح البارى ح ١٠ ص ٢٣٣ و ٢٣٤ .

(١١٤) نفس المرجع .

(١١٥) حاشد هذا : هو من رواية الصحيح عن الإمام البخارى رحمه الله نفس المرجع .

(١١٦) نيل الاوطار ح ٩ ص ٨٩ .

كذلك فإن صدق الإيمان بالله عقيدة وعملا مع الأخذ فى الأسباب
المشروعة يلعب دورا كبيرا و مؤثرا فى الشفاء من العلل .

(ربنا لا تؤخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً
كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف
عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



قويسنا فى الرابع والعشرين من جمادى الاول عام ١٤٠٦ هـ
الموافق ٤ من فبراير ١٩٨٦ م

فهرست الكتاب

الصفحة

الموضوع
تقديم البحث

الفصل الأول

٢٤ - ٥

فى تاريخ السحر

- ٧ نوازع السحر فى قديم الزمن
- ١٠ السحر فى بلاد الهند قديما
- ١٥ علوم السحر هجرتها الشرائع الإلهية
- ٢٤ - ٢٠ أسباب إقدام الانسان على هذا التحول الخطير

الفصل الثانى

١١٠ - ٢٥

القول فى السحر

٤٥ - ٢٥

المبحث الأول : فى تعريف السحر

- ٢٥ تعريف السحر عند علماء اللغة
- ٢٧ تعريف السحر عند علماء الشريعة
- ٤٥ - ٣٩ تعريف السحر عند علماء الاجتماع

١١٠ - ٤٦

المبحث الثانى : هل للسحر حقيقة ؟

- ٤٦ رأى جمهور أهل السنة وعامة العلماء فيه
- ٤٧ رأى عامة المعتزلة والقدرية وغيرهم
- ٤٨ مراتب السحر عند ابن خلدون
- ٤٩ أدلة جمهور أهل السنة على أنبات حقيقة السحر
- ٧٨ اعتراض وجوابه على صحة الحديث المروى فى واقعة سحره ﷺ ..
- ٨٧ إجابة ابن قيم الجوزية
- ٨٩ تعقيب
- ٩٠ رأى الأستاذ الإمام محمد عبده والرد عليه
- ٩٤ إجابة ابن قتيبة على المنكرين لواقعة سحره ﷺ
- ٩٨ اعتراض آخر وجوابه بشأن واقعة سحره ﷺ
- ١١٠ - ١٠٦ أدلة أصحاب رأى الثانى (القائلون بانكار السحر)

الفصل الثالث

أنواع السحر وتأثيره والأمور التي تتخرق لها العادة	١١١ - ١٥٨
المبحث الأول : السحر الحقيقي وأنواعه وتأثيره	١١١ - ١٣١
السحر الحقيقي	١١٢
النوع الأول : سحر الكلدنيين وأهل بابل	١١٢
النوع الثاني : سحر تسلط الروح	١١٥
النوع الثالث : السحر الذي يستعان فيه بالأرواح الأرضية	١١٧
السحر المجازى	١١٨
هل السحر يؤثر في المسحور ؟	١٢١
آراء العلماء في مدى تأثير السحر الحقيقي	١٢٦ - ١٣١
المبحث الثاني : السحر المجازى وتأثيره (الشعوذة)	١٣٢
الشعوذة باستخدام المواد الكيماوية	١٣٣
الشعوذة باستخدام المهارة والتعويہ	١٣٦ - ١٣٩
المبحث الثالث : في الأمور التي تتخرق لها العادة	١٣٩ - ١٥٨
الأمر الأول : المعجزة	١٤٠
الأمر الثاني : الإرهاب	١٤٧
الأمر الثالث : الكرامة	١٤٧
الأمر الرابع : المعونة	١٥١
الأمر الخامس : الاستدراج	١٥١
الأمر السادس : الإهانة	١٥١
الفرق بين المعجزة والكرامة	١٥٢
الفرق بين المعجزة والسحر	١٥٤ - ١٥٨

الفصل الرابع

في أحكام السحر وكيفية إثبات جريمته	١٥٩ - ١٩٤
المبحث الأول : في أحكام السحر ومستولية الساحر	١٥٩ - ١٧٨
حكم تعلم السحر وتعليمه والعمل به	١٦٣
حكم تعلم فن الشعوذة	١٧٥

١٧٨	عقوبة المشعوذ
١٧٩	المبحث الثانى : إثبات جريمة السحر
١٨٠	الركن الأول : الإسناد المادى
١٨١	الإثبات بالإقرار
١٨٤	الإثبات بالشهادة
١٨٨	إثبات السحر بالقرائن
١٩٠ - ١٩٢	الركن الثانى : القصد الجنائى

الفصل الخامس

١٩٣ - ٢٣٨	فى عقوبة الساحر
١٩٣ - ٢١١	المبحث الأول : عقوبة الساحر المسلم
١٩٤	أراء الفقهاء فى عقوبة السحرة
١٩٧	أدلة الرأى الأول
٢٠٤	أدلة اصحاب الرأى الثانى
٢٠٨	مناقشة جمهور أهل السنة
٢١١	المبحث الثانى : عقوبة الساحر الذمى والمرأة الساحرة
٢١١	عقوبة الساحر الذمى
٢١٥ - ٢١٨	عقوبة المرأة الساحرة
٢١٩ - ٢٣٨	المبحث الثالث : العقوبات التبعية
٢١٩	العقوبات التبعية نوعان
٢١٩	أولاً : نقص الأهلية
٢٢٠	تصرفات المرتد فى امواله واملاكه
٢٢٤	ما يصير به المرتد محجوراً عليه
٢٢٥	تصرفات المرتد بالسحر
٢٢٥	القسم الأول : فى التصرفات الجائزة
٢٢٦	القسم الثانى : التصرفات الباطلة
٢٢٨	القسم الثالث : التصرفات الموقوفة
٢٢٩	القسم الرابع : التصرفات المختلف فيها

٢٣١ ثانيا : مصادرة مال المرتد
٢٣١ الأمر الأول : حلول الدين وقضاؤه
٢٣٤ الأمر الثاني : انتقال أمواله
٢٤٠ - ٢٣٦ تعقيب للامام شمس الدين السرخي

الفصل السادس

٢٣٩ - ٢٧٩	توبة الساحر والعلاج من السحر
٢٥٥ - ٢٣٩	المبحث الأول : توبة الساحر المسلم
٢٣٩ آراء العلماء في توبة الساحر المسلم وآلتهم
٢٥٣ - ٢٥٠ شروط التوبة الصحيحة
٢٥٤	المبحث الثاني : حكم توبة الساحر النمي والمرأة الساحرة
٢٥٦ - ٢٥٤ حكم توبة الساحر النمي
٢٥٨ - ٢٥٥ حكم توبة المرأة الساحرة

المبحث الثالث : العلاج من السحر

٢٥٨ هل يجوز استخراج السحر ؟
٢٥٩ هل يجوز الاستتجار على حل السحر
٢٦١ حل السحر بآيات القرآن او الإنكار
٢٦٣ - ٢٦١ حل السحر بسحر مثله
٢٧٠ - ٢٦٣ هل النشرة مشروعة

المبحث الرابع : الآثار الواردة في علاج السحر

٢٧٢ الأثر الأول
٢٧٢ الأثر الثاني
٢٧٣ الأثر الثالث
٢٧٣ الأثر الرابع
٢٧٤ الأثر الخامس
٢٧٥ هل المقصود تمر المدينة المنورة او التمر مطلقا
٢٧٦ الأثر السادس
٢٧٦ الأثر السابع
٢٧٩ - ٢٧٧ خاتمة

الناشر

للنشر والتوزيع



الدار المصرية

al dar al masria publishing & distribution house ltd.

20 Kalypso, St., suite 301, Acropolis, P.O.Box 8559

Tel. (02)498688, Telex 5341 Hosni-Cy Fax-(003572) 312983

Nicosia - Cyprus